

نساء الموساد

ترجمة وإعداد

أبو بكر خلّاف

مكتبة الأسرة العربية

ZAD



أبو بكر خلّاف

صحفي وكاتب متخصص بالشـــان الإســـرائيلي، وُلد في ٦ أكتوبر ١٩٧٧م بمصر وتخرّج عام ١٩٩٩م في كلية الآداب جامعة القاهرة قســـم اللغات الشـــرقية وآدابها/ فرع اللغة العبرية، ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل في المجال الإعلامي والترجمة والبحث في الشؤون الدولية والإسرائيلية.
أسهم كاتبنا في تأسيس أول جمعية للمترجمين واللغويين، وإنشاء نقابة الإعلاميـيـــن الإلكترونيين بمصر؛ ويرأس حالياً مجلس إدارة شـــبكة محرري الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ومركز زاد للدراسات الإسرائيلية.

نساء الموساد

استخدم جهاز الاســـتخبارات الإسرائيلية "النســـاءَ" ليكنَّ في مقدمة عناصره الفاعلة، وهذا الاتجاه كان ولا يزال آخذاً في الازدياد.. في هذا الكتاب المأخوذة ترجمته عن كتاب "محاربات الموساد" لكلٍّ من الصحفي الإسرائيلي نسيم مشعل، والمؤرخ ميخائيل بار زوهار؛ ســـنقف عند العديد من الشـــخصيات النسائية التي أسهمت في تنفيذ عمليات استخباراتية أو اغتيال لمصلحة "الموساد".
ورغم ما تم رصده في كتابنا هذا؛ إلا أنه لم يكشف من العمليات الاستخباراتية التي نفّذها "الموســـاد" إلا القليل، وهذا ما أكده الرئيس السابق للموساد، تامير بـــاردو، في مقابلة نادرة مـــع إحدى الصحف العبرية، حين قال: "النســـاء هنّ المســـؤولات عن العديد من عملياتنا الكبرى، وحتى الآن لا يزال لدينا ٩٩,٩ في المائة من العمليات لم تُنشر بعد".

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 81 09
+90 531 935 71 31
info@arabfamilybs.com





ISBN 978-625-8063-18-9



نساء الموساد



NİSAA AL MUSAD

ABOUBAKR İBRAHİMOGLU

1. Baskı: İstanbul
2022 - 1443

نساء الموساد

ترجمة وإعداد

أبو بكر خلّاف





نساء الموساد

ترجمة وإعداد: **أبو بكر خلّاف**

القياس: 21.5 X 14.5 سم

عدد الصفحات : 320 ص

ISBN: 978-625-8063-18-9

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م



زاد للدراسات الإسرائيلية
Zad for Israeli Studies
www.zadpost.com



طبـاعــة ونشــر وتوزيع
إصدارات مُختــارة للأســرة العربيــة



www.arabfamilybs.com
+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31
info@arabfamilybs.com



Sertifika No: 51871

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: baskı Yılmaz Basımevi (Mat. Sert. Nu: 49749), kapak baskısı Salkım Ofset'te gerçekleştirildi

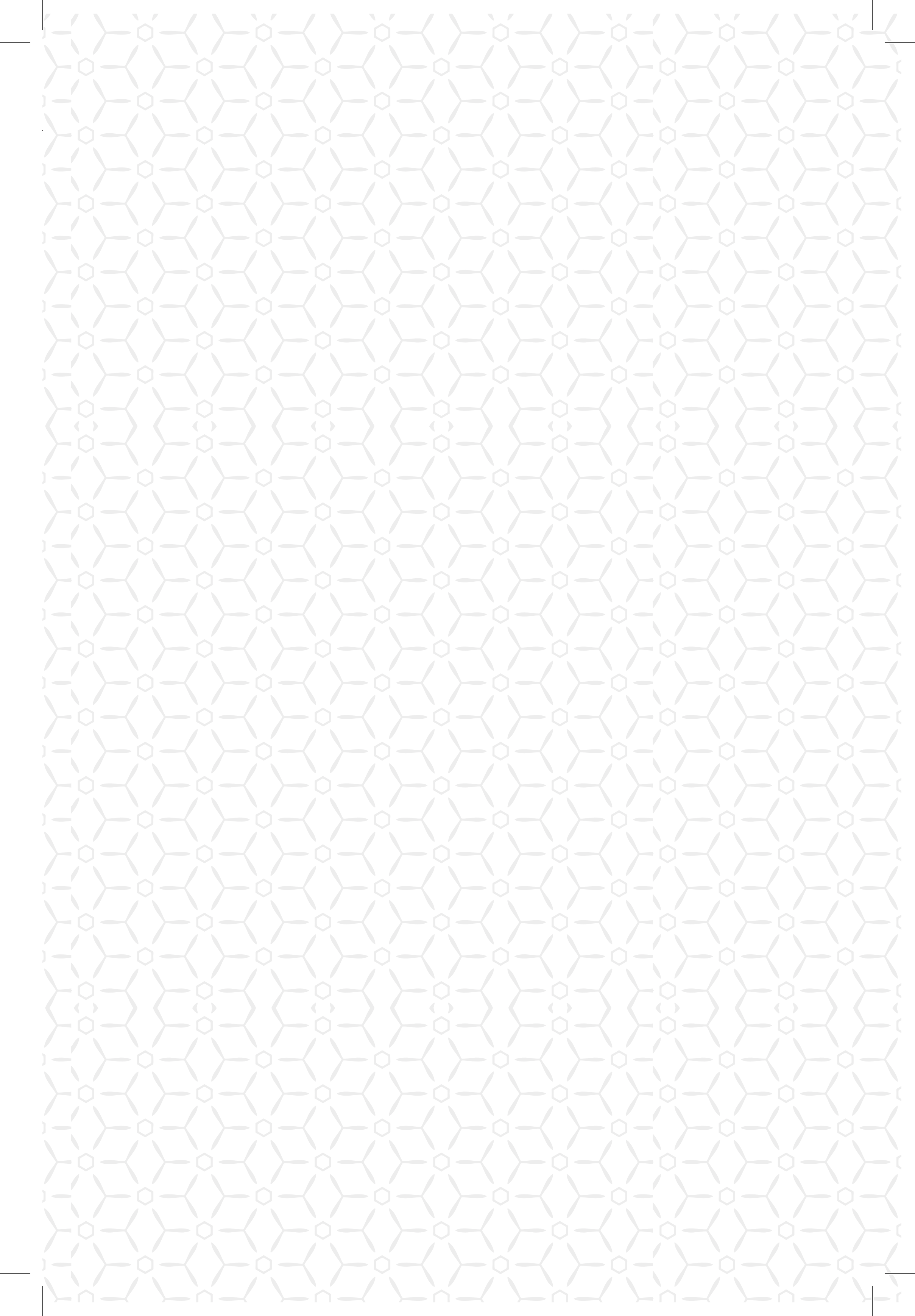
الفهرس



إلى روح أستاذي الدكتور
عبد الوهاب وهب الله

وإلى روح الأستاذة الزميلة العزيزة
هبة الديب

رحمهما الله تعالى وتقبلهما في الصالحين، وأسكنهما فسيح جناته.



شكر وتقدير

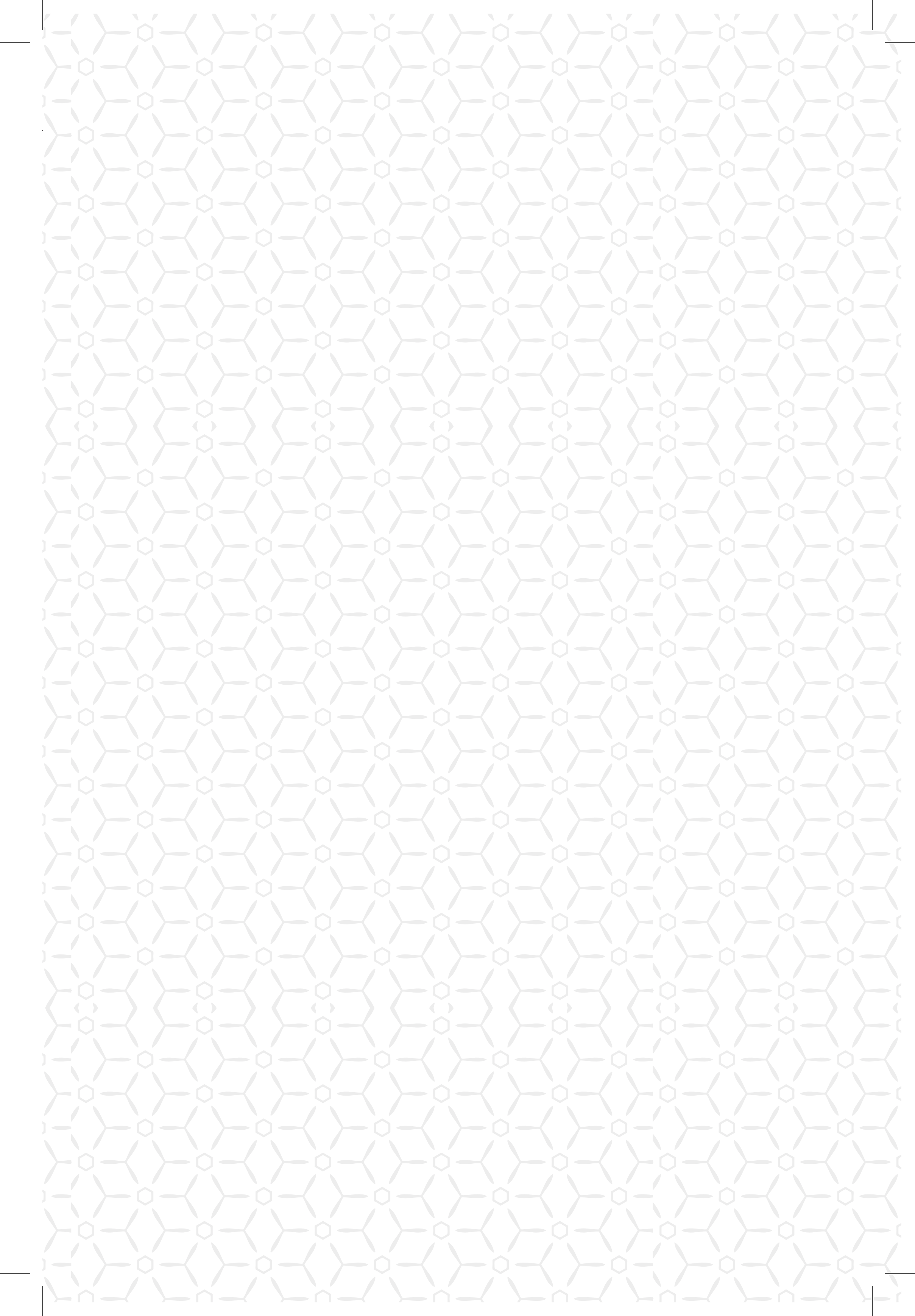
أتوجه بخالص الشكر والتقدير لأخي وصديقي



على مساهمته في المراجعة الأدبية للكتاب، وما أبدعه بقلمه من رشاقة الأسلوب، وضبط إيقاع الكلمات، ليخرج لنا الكتاب بهذه الصورة الرائعة.

له مني كل تقدير واحترام.





مقدمة المترجم

استخدم جهاز الموساد «النساء» ليكن في المقدمة، وهو اتجاه آخذ في الازدياد لديه. وها قد حان الوقت للكشف عن بعض هذه القصص عبر ترجمتها للغة العربية عن مصادرها العبرية التي كشفت وقائعها، من استهداف القيادي الفلسطيني «علي حسن سلامة» وتفجير القنابل بقلب بيروت، إلى اغتيال المبحوح في دبي، وغيرهما عبر السنوات، من عشرات، بل مئات العمليات الاستخباراتية الدقيقة، والتي أُعلن عن بعضها ولا يزال أكثرها خفيًّا، وهو ما يؤكده الرئيس السابق للموساد، تامير باردو، في مقابلة نادرة بقوله: «النساء هن المسؤولات عن بعض أكبر عمليات الموساد، لا يزال لدينا 99.9 ٪ من العمليات لم يتم نشرها بعد.

وفي كتابه «محاربات الموساد» الذي نضع بين أيديكم ترجمته العربية تعاون الصحفي الإسرائيلي المخضرم نسيم مشعل، مع مايكل بار زوهار، الذي نشر العديد من السير الذاتية للشخصيات السياسية الإسرائيلية البارزة؛ بما في ذلك ديفيد بن غوريون وشيمون بيريز، وألف العديد من الكتب حول التاريخ السياسي الإسرائيلي والمسائل الأمنية.

مخابرات بلا دولة

في العقد الأول من تأسيس الكيان الصهيوني كانت الحاجة مُلحة إلى معلوماتٍ استخباراتية عن الدول المعادية التي تحيط بالكيان الوليد من كل حدوده. وفي أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كانت المجتمعات اللبنانية والمصرية منفتحة على العالم، وزخرت بالنخب النابضة بالحياة، في مزيج من السكان المحليين الأثرياء والأجانب الذين كانوا يلتقون في نفس النوادي والحانات والمطاعم الراقية. ومع أن الدولتَين كانتا في حالة عداء شديد مع الكيان الصهيوني الوليد على أطرافهما، فإن حدودهما كانت سهلة الاختراق نسبياً، وركزت وكالات الاستخبارات فيهما على التهديدات المحلية بدلاً من مكافحة التجسس.

سمحت هذه الظروف لجواسيس اسرائيل والدول الغربية؛ بالعمل على جمع المعلومات مع التمتع بنوعٍ من الحصانة، ما داموا بعيدين عن لفت الانتباه، وكان هذا النوع رائجا خاصة مع ارتباطه بالنساء الجميلات اللاتي تمتعن بنسبة عالية من التساهل والقدرة على الاختراق بسبب جنسهن ومظهرهن.

تروي الفصول الأولى للكتاب قصة امرأتين هما «يولاندا هارمور» و»شولا كوهين» اللتين استخدمتا جمالهما وسحرهما وعلاقاتهما مع المجتمعات الراقية في مصر ولبنان؛ لجمع المعلومات الاستخباراتية، والمساعدة في العمليات السرية، وتسهيل الهجرة غير الشرعية لليهود إلى إسرائيل.

بعدها يتناول الكتاب قصة «مارسيل نينيو» السيدة المصرية الموهوبة سيئة الحظ، والتي تورطت في «قضية لافون»، والتي كانت واحدة من أسوأ العمليات المخزية في تاريخ المخابرات الإسرائيلية. ففي عام 1954 أمر وزير الدفاع الإسرائيلي بنحاس لافون، ورئيس المخابرات العسكرية بنيامين جيبلي، مجموعة من اليهود المصريين بتفجير عبوات ناسفة في مؤسسات غربية في القاهرة؛ بهدف خلق فضيحة دولية، وتأجيل انسحاب الجنود البريطانيين من منطقة قناة السويس. وقد شاركت الصهيونية المخلصة مارسيل نينيو، في هذا الفشل الذريع، وكما يقول الكتاب فقد دفعت ثمنًا باهظًا من السجن والتعذيب والشعور الدائم بالخيانة.

فترة الستينات

في هذه الفترة كما نستلهم من الكتاب، تركز دور النساء على كونهن مساعدات في فرق ذكورية. ووفقًا لما جاء في مذكرات عميل الموساد المخضرم بيتر مالكين، كانت الفرق المختلطة تعاني التوترات الجنسية، وتميل إلى وجود تراتبية غير متكافئة بين الجنسَين.

وفي كثيرٍ من الحالات أجبرت التحيزات السائدة العميلات على أداء دور «المساعدة المنزلية» في البيوت السرية الآمنة. وهنالك أخريات كن زوجات جواسيس ممن شاركن بشكل كامل في نشاطات أزواجهن. كانت «فالتراود نيومان» على سبيل المثال، امرأة ألمانية وقعت في حب «وولفغانغ لوتز»، الرجل الأول للموساد في مصر، وانتهى بها المطاف

كشريكٍ مقرب له. بشكل عام نجحت قليلات منهن في الارتقاء عاليا ونلن جوائز على ذلك في حياتهن بعد الخدمة. يتطرق الكتاب إلى تفاصيل قصص اثنتين منهن، «يهوديت ناسياهو» و»عليزا ماجين»؛ كلتاهما شاركت في عمليات ملاحقة النازيين، بما فيها اختطاف المجرم النازي أدولف آيخمان، الذي تم اختطافه في بيونس آيرس، ومن ثمَّ محاكمته وإدانته وإعدامه في إسرائيل. كما شاركت «ناسياهو» وماجين في العديد من العمليات الأخرى، ووصلتا إلى مراتب غير مسبوقة في وكالة الاستخبارات.

كما تعتبر قصة «إيزابيل بيدرو» من القصص الشائقة في تلك السنوات؛ إذ كانت عميلة من أمريكا الجنوبية، وقد تمكنت من سرقة المخططات السرية لسد أسوان تحت غطاء عالمة آثار.

سنوات السبعينات والثمانينات

يأخذنا الكتاب في فترة السبعينيات والثمانينيات، إلى العصر الذهبي للعمليات السرية للموساد في أوروبا. وقتها كان مايك هراري هو القائد البارز لقسم العمليات في الموساد. كان مدافعا قويا عن دمج النساء في جميع المجالات العملياتية؛ ليس فقط كمساعداتٍ وجاسوسات، بل كمحاربات وضابطات عمليات.

شاركت «يائيل» كمحاربة في عملية «ربيع الشباب» المشتركة بين الموساد وقوات الكوماندوز الإسرائيلية، ضد قيادة منظمة التحرير

الفلسـطينية في بـيروت. كـما تمكنـت «سـيلفيا رافائيـل» اليهوديـة جنـوب الأفريقيـة مـن التسـلل إلى قـصر الملـك حسـين، كمصـورة، وشـاركت في عمليـات اغتيـال أعضـاء مـن منظمـة «أيلـول الأسـود». ولعبـت «إيريـكا تشـامبرز» دورًا رئيسًـا في اغتيـال عـلي حسـن سـلامة، ضابـط عمليات أيلـول الأسـود؛ بـل كانـت هـي مـن ضغطـت عـلى زر تفجـير القنبلـة بنفسـها.

أمـا الفصـول الأخيرة مـن الكتـاب فتكشـف عـن دور النسـاء في بعـض العمليـات التـي لم يكشـف عنهـا حتـى الآن في طهـران، وغيرهـا مـن الأماكـن. وربـما يكـون مـن المخيـب لآمـال القـراء أن عمليـة اغتيـال محمـود المدهـون في دبي، قـد ذكـرت باختصـارٍ شـديد. ثـم بعـد ذلـك يتطـرق الفصـل الأخـير مـن الكتـاب في الروتـين اليومـي للعميـلات ضمـن المؤسسـة.

ويعتقـد بـار- زوهـار ومشـعل أنـه لا يطلـب مـن العميـلات اسـتخدام الجاذبيـة الجنسـية للإيقـاع بأهدافهـن، عـلى الرغـم مـن أنـه يسـمح لهـن بذلـك. وقـد طالبـت العميلـة الشـهيرة «سـيندي» الموسـاد بتعويضـاتٍ وحصلـت عليهـا؛ لأن التقـرب الجسـدي لم يكـن جـزءًا رسـميًّا مـن مهمتهـا عندمـا قامـت بإغـواء موردخـاي فعنونـو، الـذي سرب معلومـات عـن النشـاطات النوويـة الإسرائيليـة، وأوقعـت بـه في فـخ العسـل.

وأخـيرا يطـرح المؤلفـان المعضلـة التـي واجهـت عميـلات الموسـاد في الجمـع بـين الحيـاة الأسريـة والإنجـاب، وعملهـن السري. اعتـاد الموسـاد في السـتينيات والسـبعينيات عـلى إجبـار العميـلات عـلى اتخـاذ إجـراءات لتجنـب الحمـل لسـنواتٍ عديـدة. ويقـول المؤلفـان إن تسـيبي ليفنـي، التـي شـغلت

منصب وزيرة الخارجية الإسرائيلية، استقالت من الموساد لهذا السبب بالتحديد.

وعلى الرغم من أن كتاب بار- زوهار ومشعل، في غاية الأهمية؛ فإنه يعاني عدة عيوب، حين يغفل المؤلفان بعض الأفكار المهمة والمؤلمة المخبأة وراء قصص تلك النسوة؛ فعلى سبيل المثال لم يكشف المؤلفان عن الأحداث التي مرت بها كل من «يولاندا هارمور» و»شولا كوهين» قبل اعتقالهما. بينما كانت أنشطتهما التجسسية مفضوحة لدى المخابرات المصرية واللبنانية؛ ومن المدهش أنه سُمح لها بالعودة إلى القاهرة حتى بعد حرب عام 1948، كما اعتقلت شولا كوهين عدة مرات ولفترات قصيرة، وكانت معروفة لدى الكثيرين من مجتمع بيروت الراقي بتعاطفها مع دولة الكيان الوليدة.

بالإضافة إلى ذلك، تشوب رواية المؤلفَين بعض الأخطاء الواقعية والتأكيدات المشكوك في صحتها؛ فالعالم النمساوي أوتو جوكليك (المحتال الذي خدع كلًّا من مصر وإسرائيل إبان أزمة الصواريخ بين عامَي 1962 و1965)، لم يتم تجنيده من قِبل الموساد أو من قِبل إحدى ضابطاته من النساء؛ بل كان هو مَن تواصل مع الموساد، وليس العكس. كما أن عميل الموساد في مصر وولفغانغ لوتز، لم يكن هو مَن أرسل الرسالة المفخخة إلى العالم الألماني وولفغانغ بيلتز، التي أدت إلى إصابة سكرتيرته بفقدان بصرها. وتظهر وثائق الموساد، غير السرية، أن هذه الرسالة تم إرسالها من ألمانيا بواسطة عميل آخر. كما يتفق معظم الباحثين اليوم على أن وائل زعيتر، الشاعر الفلسطيني الذي اغتاله الموساد عام 1972

كجزء من عملية «غضب الرب»، لم يكن متورطًا في مذبحة ميونخ ولا في أية عمليات أخرى، وأن مقتله كان نتيجة عملية استخبارية قذرة نتيجة الحماسة المفرطة. ومع ذلك صوره بار- زوهار ومشعل، على أنه إرهابي خطير بناءً على القبول غير النقدي لرواية الموساد.

ولم يكن عميل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية روبرت آيمز، هو مؤلف كتاب «الجاسوس الجيد»؛ بل هو سيرة ذاتية لآيمز كتبها المؤلف الأمريكي كاي بيرد. كما أنه من غير المحتمل أن يكون مايك هراري -القائد السابق لقسم العمليات في الموساد الذي عمل في خدمة ديكتاتور بنما مانويل نورييغا، في أوائل الثمانينيات - بعيدًا عن التورط في أعمال نورييغا القذرة.

المؤلفان اللذان اعتمدا بشكل رئيس على مقابلات مع عملاء سابقين للموساد، والكتب الشعبية، والمقالات الصحفية، لم يقوما بأبحاثٍ أرشيفية جادة؛ صحيح أن أرشيف الموساد مغلق بمعظمه، لكن هنالك الكثير من الوثائق المتاحة، ويمكن مقارنة سجلات الموساد مع وثائق أخرى إسرائيلية وأجنبية؛ بما في ذلك سجلات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي رُفعت عنها السرية أو غيرها من وكالات المخابرات غير الإسرائيلية.

لم يتكبد المؤلفان حتى عناء الاطلاع على هذه الأرشيفات أو الكتب العلمية المنشورة بلغات غير العبرية، ولم تكن كتاباتهما نقدية. وفي بعض الحالات القليلة يعترف المؤلفان بحوادث مؤسفة؛ مثل قضية لافون

واغتيال ليلهامر، حيث قتل الموساد رجلا بريئا اعتقدوا أنه «علي حسن سلامة». وهنا يصور المؤلفان العملية من خلال عيون سيلفيا رافال؛ ربما لأنها حذرت طوال الوقت من أن الضحية كان رجلا بريئا.

الصورة النمطية في التناول تعد من المآخذ أيضا، حيث تصوير عملاء الموساد، رجالا ونساء، وطنيون مخلصون يتمتعون بأخلاق رفيعة رجالا وسيمين ونساء جميلات، وأعداؤهم إرهابيون بغيضون. وهو مالا يتناسب مع الكتابة التاريخية الجادة؛ فعالم التجسس الحقيقي ليس باللونَين الأبيض والأسود فقط؛ بل هو في أغلب الأوقات يتراوح بين أطياف لا حصر لها من درجات اللون الرمادي.

الكتاب في مجمله مجرد إعادة صياغة لقصص نُشرت في وقتٍ سابق. على سبيل المثال، يقدم الكاتب رونين بيرغمان، في كتابه «انهض واقتل أولا»، سردا أكثر ثراءً ودقةً وتوازنًا لمعظم عمليات الموساد التي وردت في كتاب بار- زوهار ومشعل.

خلاصة القول أنه كتاب مثير للاهتمام بكل تأكيد؛ ولكنه لسوء الحظ في معظم الحالات يفتقر إلى العمق والتركيز والاهتمام بالتفاصيل بما يكفي لبعث الحياة في الحبكة.

2022 /04 /10

اسطنبول – تركيا

(1)

المحاربة «ليات» تتحدث (اسم مستعار)

أنا محاربة موساد.

ولـدت في غـور الأردن، وانضممـت إلى الموسـاد منـذ 20 عامًـا. راضيـة ومتحمسـةٌ لمـا أفعلـه.

لا يعـرف العامـة مـاذا نفعـل. شـاركت في مهـمات سرية في جميـع أنحـاء العـالم، وبوسـعي تغيـير هويتـي ومظهـري طـوال الوقـت، بـل يمكننـي تغيـيره عـدة مـرات خـلال دقائـق. لا أبـدو هكـذا مـن الخـارج، إلا إذا أردت لفـت الانتبـاه. تتفجـر «السـعادة مـن عينـي» عندمـا يتـم اسـتدعاء مجموعتـي للحضـور إلى غرفـة الاجتماعـات. هنـا أعلـم أن شـيئًا مـا سـيحدث. في كل عمليـة أكـون في مكـانٍ مختلـف. أنـا أعلـم أني سـأشرب قهـوة الصبـاح في تـل أبيـب، لكنني لا أعـرف في أي مدينـةٍ عـلى وجـه الكـرة الأرضيـة سـأتناول وجبـة العشـاء.

تقـوم النسـاء بجميـع الوظائـف، جميعهـا بـلا اسـتثناء. تمامًـا كالرجـل. ولا

تعجب إن أخبرتك أن هناك عملياتٌ تشارك فيها النساء أكثر من الرجال. الرجال يأتون من الجيش، وهم يعرفون: الأسلحة - الاستخبارات - الوسائط. أما أنا فلا. أنا أعمل في منطقةٍ رماديةٍ في مكان ما في الوسط، وبفضل كوني امرأةً فأنا أعبر أيضًا من تحت الرادار، وفوق المستنقعات.

هناك هراءٌ تتحدث به الصحف عن نساء الموساد، وهو أنهن دائمًا ما يكن حسناوات تخطفن الأنفاس. هذه المواصفات لا نحبها ولا تناسبنا. ما يهم حقًا هو أننا بالفعل نتساوى مع الرجال. بالمناسبة، لقد أرسلتم لي تعليمات حول كيفية الوصول إلى المقهى الذي سنلتقي به. بربكم، ما عليكم إلا أن تعطوني اسم المكان والوقت وأنا سأكون هناك. أعطوني اسما في بانكوك وسأكون هناك. لا حاجة لمزيد من التوجيهات.

أنا بحاجة لأن أعرف كيف أفكر، وأسير وفق خطة؛ لكن إن كان هناك تغيير، ففي غضون ثانية سأتخذ قراراتٍ مختلفة، وسأنتهز الفرص أيضًا. ليس من السهل أن تتعلم وتطبق ما تعلمته. بالطبع، هناك قوانين يجب أن أحترمها وأمور يجب عليّ القيام بها سواء كنت في مهمة أم لا. فعلى سبيل المثال، لن تجدني أجلس أبدًا في مقهًى وظهري للباب. سأدفع فاتورة المقهى دائمًا عند الطلب؛ حتى أتمكن من النهوض والمغادرة في أي لحظة. وعندما أكون في الخارج ويتعرف عليّ شخصٌ ما، ويناديني باسمي الحقيقي، لا أستدير نحوه إطلاقًا.

عند عودتي إلى المنزل من مهمة، يجب أن أكون قادرة على تقمص

هويتـي الحقيقيـة فـورًا، بـما يتـلاءم مـع حيـاتي في البـلاد. أكثـر شيءٍ مفـرحٍ بالنسـبة لي هـو سـماع صـوت الختـم، عندمـا يقـوم شرطـي مراقبـة الحـدود بختـم جـواز سـفري. وفي سـيارة الأجـرة أعـود بالفعـل إلى هويتـي التـي في البـلاد. يمكننـي في يـومٍ مـا أن أمسـك بيـدي واحـدًا مـن أكثـر الأجهـزة تطـورًا، والـذي طورتـه إسرائيـل – وفي اليـوم التـالي أجـد نفـسي في البـلاد، أشـكو في حـيرة، عـن الغسـالة التـي تعطلـت.

أنـا مطلقـة، وأم لابنتـين وابـن، لكنهـم لا يعرفـون مـاذا أعمـل. حدثتنـي ابنتـي ذات مـرة عـن الجاسوسـات، فقلـت: «ربـما أنـا؟» لكـن الطفلـة ذات الثـلاث سـنوات ردت: «لا». سـألتها: «لمـاذا؟»

«لأنك لا تستطيعين القيام بحركة فليك فلاك».

خرجـت ذات يـوم برفقـة شـاب ثـري جـدًا، أراد أن يثـير إعجـابي فأخـبرني بأنـه يحلـم أن يصبـح محـارب موسـاد. قـال لي إن أولئـك يعرفـون كيـف يبدلـون وظيفتهـم وهويتهـم هكـذا، ويمكنهـم أن يقفـوا تحـت أنفـي دون أن أميزهـم. فحدقـت بـه.

لقد كان طويل القامة، وكنت أنا تحت أنفه.

(2)

المحاربات الثلاثة والمفاعل النووي السوري

التاريخ: 7 مارس/ آذار عام 2007م.

بينما كان إبراهيم عثمان خارجًا من المصعد في الطابق الرابع للفندق، سائرًا باتجاه غرفته، وإذ به يفاجأ بفتاةٍ صغيرةٍ تجلس على الأرض بالقرب من باب الغرفة المجاورة لغرفته، وتبكي بمرارة. كان مشهدًا غريبًا لم يعتد على مثله من قبل، غير أنه تجاوز ذلك، وهو يلقي نظرة على حقيبة كبيرةٍ فضية اللون مصنوعة من مادة صلبة تقبع بجانب الفتاة. شاهد الفتاة وهي تلكم الحقيبة بقبضة يدها في يأس، ثم تمسك بكلا زري الحقيبة في محاولة يائسة لفتحها دون جدوى.

تردد عثمان قليلا، قبل أن يقترب منها ويسألها: «ماذا حدث؟ هل يمكنني مساعدتك؟»

رفعت وجهها الغارق بالدموع، وقالت وهي تبكي: «الحقيبة مقفلة، وقد أضعت مفتاحي. لا أدري كيف. لا أعلم ماذا عليّ أن أفعل».

قال عثمان: «ربما في الطابق السفلي في الفندق يعرفون...»

قطع عبارته ثم جعل فكر في نفسه. تأمل في الفتاة. كانت جميلةً بحق.

«إنهم لا يعرفون شيئًا! لقد وضعت محفظتي في الداخل وبها جميع أوراقي ومفتاح الغرفة. لا يمكنني الدخول إلى الغرفة و... الوثائق، والمال...»

تردد قبل أن يقول بشيءٍ من حرج: «ربما أستطيع المساعدة».

«لا، أنت لا تستطيع...»

جثا بجانبها وحاول تحرير الأزرار، لكن لم يحدث شيء.

سألها مرة أخرى: «لم لا نتصل بالأسفل؟»

أجابت بتردد: «هذا لن يساعد. انتظر، قال لي أحدهم ذات مرة... ألديك مفتاح آخر، أو مفك براغي، أو سكين يمكنني بها فتح الحقيبة؟»

هز كتفيه: «كلا، آسف». وفجأة لمعت في رأس ابراهيم عثمان فكرة: «هل يساعدك مفتاح غرفتي؟» أعطاها مفتاح غرفته، فانحنت فوق الحقيبة بحيث لا يرى يديها، وطبعت المفتاح في مادة تشبه البلاستيسين (معجون اللعب)[1]. كانت تخفيها في راحة يدها. ثم بحركةٍ ذكيةٍ أخرى

(1) البلاستيسين: مادة لدائنية يتكون من أملاح الكالسيوم والفازلين ومركب أليفاتي. يستخدم بصورة واسعة كطين اصطناعي لتشكيل الدمى

أوهمت إبراهيم أنها أدخلت المفتاح في قفل الحقيبة وضغطت الأزرار مرة أخرى. هنا سُمع صوت نقرة معدنية، وفُتح الغطاء.

نظرت إلى الحقيبة غير مصدقة، وقالت: «يا إلهي! لقد نجح الأمر!»

كرر وراءها: «لقد نجح الأمر».

رفعت رأسها ونظرت إليه بامتنان، وقالت: «شكرًا. شكرًا جزيلا، لقد أنقذتني، حقًا!»

سلمته المفتاح وبدأت تنبش في الحقيبة. رأى بطرف عينه كيف أخرجت من هناك محفظة بنية كبيرة، وبدأت تتفحصها. «أوه، ها هو مفتاحي».

توجه نحو غرفته، فسمع نداءها من خلفه: «شكرًا لك سيدي. شكرًا لك مجددا».

دخل غرفته مسرورًا إذ ظن أنه قد صنع معروفًا لفتاةٍ صغيرةٍ وجميلة. لم يدر في خلده قط أن تلك الفتاة والتي كانت تُدعى نينا، كانت قد تمكنت خلال ساعة واحدة فقط، وبمساعدة زملائها في فرقة الموساد، أن تصنع مفتاحًا شبيهًا بمفتاح غرفته. هكذا استطاع الموساد اختراق غرفة إبراهيم عثمان، رئيس هيئة الطاقة الذرية في الحكومة السورية.

* * *

كان الموسـاد يتعقـب عثمان منـذ فـترةٍ طويلـة، لكـن دون جـدوى. وقـد أثـارت المعلومـات الـواردة مـن اتجاهـات مختلفـة – وأبرزهـا تقريـرٌ أعـده الرائـد يعقـوبي (اسـم مسـتعار)، الباحـث في المجـال التكنولوجـي في هيئـة الاسـتخبارات التابعـة للجيـش الإسرائيـلي – شـكوكًا في أن سـوريا، بعـد العـراق وإيـران وليبيـا، ربـما تحـاول أيضًـا تطويـر أسـلحة نوويـة. رفـض معظـم خـبراء الموسـاد هـذا الافـتراض كـما رفضـوا روايـة يعقـوبي مبرريـن ذلـك بأسبابٍ مختلفـة. أحـد المبررات الرئيسية هـو أن «هـذا لا يناسـب بشـار (الأسـد)». اسـتمر الجـدال حـول مـا إذا كان هـذا يناسـب طبيعـة بشـار أم لا. لكـن في نهايـة المطـاف، قـرر رئيـس الموسـاد مئير داغـان التحقـق مـن افـتراض يعقـوبي. فأجـرى اجتماعًـا مـع رؤسـاء الأقسـام في الموسـاد، ورفـض بعنـادٍ جميـع الاعتراضـات والشـكوك، وأمـر باتخـاذ كل خطـوةٍ ممكنـةٍ للتحقـق مما إذا كانـت سـوريا تبنـي منشـأةً نوويـة. كانـت إحـدى الخطـوات التـي نسـبت للموسـاد، مـن أجـل التحقـق مـا إذا كانـت سـوريا تبنـي منشـأةً نوويـة، هـي تفعيـل قسـم «كيشـت» (قـوس قـزح) المتخصـص بالعمليـات المعقـدة للحصـول عـلى المعلومـات في جميـع أنحـاء العـالم.

وبحسـب مـا يذكـر، فقـد بـدأ رام بـن بـاراك بتعقـب عثـمان، الـذي كان كثـير السـفر حـول العـالم. وقـد قـال لصحيفـة «هآرتـس» في وقـت لاحـق: «لقـد كلفنـا داغـان بالتحقـق مما إذا كان لـدى سـوريا مـشروعٌ نـوويٌّ أم لا. أنـت تقـوم بسلسـلة مـن الأنشـطة حـول العـالم لبضعـة أشـهر إلى أن يحالفـك الحظ، شـخص مـا يرتكـب خطـأ في أحـد الأماكـن – فيربـح شـخص آخـر في

مكان آخر. كان لدى مائير (داغان) تصميم هائل. قال له كثيرون: لا يمكن أن يكون هناك مفاعل. إنها مضيعة للموارد والوقت. ولكننا، بناءً على أوامر منه، لم ندع الأمر يمر لوقت طويل».

من المنطقي أن لا تسفر العمليات المختلفة عن أي شيء على الإطلاق. لقد كلف إرسال فرق التعقب وراء عثمان أموالا طائلة، وكانت النتائج معدومة، غير أنه اتضح مؤخرًا أن عثمان كان مسافرًا إلى فيينا، لحضور مؤتمر الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وقد قرر هذه المرة الإقامة في فندق، وهناك التقى بمحاربة الموساد التي كانت تبكي.

كان الحصول على مفتاح غرفة عثمان هو المرحلة الأولى من «الثلاثية»- ثلاث مراحل، كل واحدةٍ منها كانت عملية بحد ذاتها - وقد لعبت أدوار البطولة في جميعها محاربات شابات.

* * *

المرحلة الثانية: نزل عثمان صباح اليوم التالي لتناول وجبة الإفطار في الفندق، ودخل إلى المطعم. تلفت حوله فوجد أن الصالة ممتلئة عن آخرها، وجميع الطاولات محجوزة. لم يكن يعرف بالطبع أن معظم رواد المطعم هؤلاء كانوا من رجال الموساد الذين حجزوا الطاولات وتناولوا الإفطار. ولم يتركوا إلا مكانًا واحدًا متاحًا في المطعم بأكمله: كرسيٌّ فارغٌ بجانب طاولةٍ تجلس عليها فتاةٌ شابةٌ وجميلة، تتحدث على الموبايل وهي تحتسي القهوة.

سألها: «هل بإمكاني الجلوس هنا؟»

أجابت: «تفضل»، وعادت للتحدث على الهاتف بالإنجليزية بطلاقة مع غضب متزايد. رفعت صوتها عدة مرات، ثم تلفتت حولها بعدم ارتياح. وأخيرًا أنهت المكالمة وضربت هاتفها الخليوي على الطاولة. وصاحت: «أيها الوغد، أتفعل هذا بي؟» رفعت عينيها ونظرت إلى جارها الجديد. «المعذرة، أنا فقط متأثرة لكنه 'يتهرب' مني مرةً أخرى، إنه حقًّا وغد».

هز عثمان رأسه، فيما استمرت الفتاة المنزعجة بالكلام. وأخبرته عن صديقها، الذي لا يمكن الاعتماد عليه. لقد سبق وألغى بالفعل مواعيد سابقة في اللحظة الأخيرة، لكن هذه المرة! بالتحديد هذه المرة! كانا على وشك الاحتفال بالذكرى السنوية لصداقتهما واختارا فيينا كمكانٍ رومانسي ليقضيا فيه عطلة نهاية الأسبوع. وصلت هي بالأمس فيما كان هو على وشك أن يصل اليوم – وها هو يقوم بإلغاء الموعد مرة أخرى! اليوم تحديدًا!

أومأ عثمان برأسه موافقًا، ثم لم يلبث أن تجرأ وقال: «يبدو أنه لا يعرف ما الذي يخسره».

نظرت إليه باهتمام. «ومن أنت؟»

قدم لها نفسه باسمه، دون أن يكشف عن وظيفته في هيئة الطاقة الذرية.

قالـت: «اسـمي مارلـين». وطرحـت عليـه بعـض الأسـئلة التافهـة وعلمـت أنـه يعـرف فيينـا جيـدًا، وأنـه سـافر كثـيرًا حـول العـالم. لم تمـض لحظات حتى تطور الأمر بينه وبين الفتاة إلى محادثةٍ لذيذة، استمتع فيها عثمان بشدة، وهو يتذوق كل حرف يخرج من فيه مارلين.

صمتت مارلين قليلا، قبل أن تقول بحسرة: «كم حرصت على تنظيم أمسية رائعة لنا. لقد قمت بحجزٍ مسبقٍ لطاولة في مطعم (سيلفيو نيكول). يجب حجز الطاولة هناك قبل شهر. إنه المطعم الأفضل في فيينا».

أومأ برأسه وقال: «نعم، لقد سمعت به».

قالت: «من المؤسف إضاعة الدعوة. ربما... ربما ترافقني ونتناول الطعام هناك سوية؟»

«كلانا؟ سوية؟ وإذا جاء صديقك...»

قاطعته: «إنه لن يأتي ولا يستحق ذلك. إذن، ماذا تقول؟»

صمت للحظة، ليس كل يوم تتم دعوته لتناول العشاء مع حسناء كهذه... حك رأسه مفكرًا. ماذا الذي لديه ليخسره؟ ثم سمع نفسه يقول: «لم لا؟ فكرة عظيمة، في أي وقت؟»

* * *

في السـاعة الثامنـة مسـاءً، التقـى إبراهيـم ومارلين في بهو الفندق واسـتقلا سـيارة أجـرةٍ إلى المطعـم. وبعـد مغادرتهـما، انتـشر فريـق «كيشـت» في قاعـة الاسـتقبال في الفنـدق. محاربـان اثنـان أخـذا عـلى عاتقهـما مهمـة الأمـن، فيـما جلسـت محاربتـان اثنتـان ومحـارب واحـد عـلى كـراسي بالقـرب مـن المصعـد، بهـدف تأخـير عثـمان بطريقـة أو بأخـرى في حـال غـير رأيـه بشـكلٍ مفاجـئ وعـاد مبكـرًا جدًا. أمـا قائـد الفريـق إيتـان، فـكان يجلـس في السـيارة المركونـة في الخـارج، بمسـافة ليسـت بعيـدة. ولم تمـض دقائـق حتـى سـمع صـوت أحـد رجالـه عـبر السـماعة، يقـول بعبـارة رمزيـة مـا يفيـد أن الثنائـي قـد بلـغ المطعـم المنشـود، وأنهـما يجلسـان بالفعـل في المطعـم. لم يكـن عثـمان يعـرف بالطبـع أن مـن يجلسـون عـلى الطـاولات المجـاورة هـم عنـاصر موسـاد أيضًـا، تتخلـص وظيفتهـم في التأكـد مـن أن عشـاء الثنائـي يسـير وفـق الخطـة، إضافـة إلى حمايـة «مارلـين» في حـال قـام عثـمان بسـلوكٍ غـير لائـق.

هنـا بلغـت الخطـة مرحلتهـا الثالثـة: أرسـل إيتـان فرقـة العمليـات إلى مهمتهـا. فصعـد كل مـن إيـال وكـيرا إلى الطابـق الرابـع، وبحوزتهـما نسـخة مـن مفتـاح غرفـة عثـمان، ولذلـك لم يجـدا أدنـى صعوبـة في دخـول الغرفـة. كان هنـاك عـلى طاولـة مكتـب الغرفـة بعـض المتعلقـات الشـخصية وهاتـف محمـول. يبـدو أن عثـمان لم يرغـب في أن يتـم إزعاجـه بمكالمـاتٍ هاتفيـة أثنـاء قضـاء الوقـت مـع مارلـين، فـترك الجهـاز في غرفتـه.

كان الهاتـف محميًّـا بكلمـة سر. فانحنـت كـيرا فوقـه ونجحـت خـلال بضـع دقائـق في اختراقـه والدخـول إليـه. قـام الاثنـان بتفتيـش الهاتـف

المحمـول، الـذي كان مليئـا برسـائل البريـد الإلكـتروني والوثائـق، حتـى فوجئـا بمجلـدٍ كبـير، يحـوي صـورًا بالغـة الخطـورة.

كانـت كل صـورة تحكـي عـن نفسـها بدقـة، إذ اتضحـت أمـام أعينهـم المفتوحـة عـلى مصراعيهـا صـورٌ لمبنًـى كبـير، يقبـع بداخلـه مفاعـل نـووي قـد وصـل إلى مراحـل متقدمـة في البنـاء، وأجـزاء كبـيرة مـن قلـب المفاعـل، وأشـخاص ذوي ملامـح آسـيوية – صينيـين أو كوريـين. لم يتوقـف الأمـر عنـد ذلـك الحـد بـل إن الصـور والتـي بلـغ إجمـالي عددهـا 35 صـورة، أظهـرت بوضـوح البيئـة الصحراويـة المحيطـة بمبنـى المفاعـل. لم يصدقـا أعينهـما في البدايـة، غـير أنهـما ومـع الوقـت أدركا أنهـما قـد وقعـا عـلى كنـزٍ ثمـين. إذ أن عثـمان قـام بتصويـر المفاعـل، مـن الداخـل والخـارج، بهاتفـه الخليـوي!

تفحـص إيـال بسرعـة الوثائـق الموجـودة عـلى الطاولـة، لكـن لم يكـن هنـاك أي شيءٍ جديـد فيهـا. بينـما قامـت كـيرا بنسـخ الصـور مـن الهاتـف المحمـول إلى أجهزتهـا. وباحترافيـةٍ شـديدةٍ أعـاد الاثنـان كل المتعلقـات الموجـودة بالغرفـة إلى أماكنهـا وغـادرا.

مع نهايـة عشـاء الملـوك الـذي تنـاولاه في «سـيلفيو نيكـول»، عـاد عثـمان ومارلـين إلى الفنـدق وافترقـا وديًّـا. وقامـت مارلـين بشـكر إبراهيـم بكلـمات دافئـة.

ثم لم يعد لها علاقة به.

* * *

نقلت المواد التي تم الحصول عليها بمساعدة نينا ومارلين وكيرا (الثلاثي) إلى رئيس الموساد ورئيس هيئة الأركان ورئيس الحكومة، فأثارت دهشتهم جميعًا. وضع رئيس الموساد مئير داغان على مكتب رئيس الحكومة إيهود أولمرت ظرفًا بنيًا يحوي الصور الـ 35 التي جلبها «كيشت» من فيينا، فدهش أولمرت. قال له داغان: «هذا مفاعلٌ نووي بلوتوجينيك (ينتج البلوتونيوم)». كان من الصعب تخيّل اكتشافٍ مذهلٍ أكثر من هذا. قال أحد مساعدي داغان لإيهود أولمرت: «انتهت علامات الاستفهام. لا يوجد الآن إلا علامات تعجب!» توجه داغان بالسؤال لأولمرت: «سيدي رئيس الحكومة، ما العمل؟» أجاب أولمرت: «سندمره».

تم إرسال الصور التي حصل عليها فريق «كيشت» إلى مختبرات الأبحاث التابعة للموساد وأمان (هيئة الاستخبارات). وسرعان ما حدد الباحثون موقع المفاعل بدقة: الكبر، موقع منعزل في الصحراء، في محافظة دير الزور شرقي سوريا. كان الموقع قريبًا من نهر الفرات والحدود العراقية. وقد تم بناء المفاعل على شكل مكعب ارتفاعه 20 مترًا بمساحة 1600 متر مربع تقريبًا.

تدريجيًا، أصبحت التفاصيل حول المفاعل واضحة. كان الرجال الذين ظهروا في الصورة المكتشفة في فيينا كوريين شماليين. لقد بدأ التعاون بين سوريا وكوريا الشمالية عام 1990، عندما قام رئيس كوريا الشمالية كيم إل سونغ بزيارة دمشق. حيث وقع كيم إل سونغ والرئيس

السوري حافظ الأسد اتفاقيات مختلفة، لكن هذه الاتفاقيات كانت تتعلق بشكل أساسي بتوريد صواريخ سكود من كوريا الشمالية إلى سوريا، وقد وصلت أول دفعة خلال حرب الخليج الأولى، في فبراير/ شباط عام 1991م. ولم تطرح القضية النووية إلا في عام 2000م، عندما حضر وفدٌ كوريٌّ شماليٌّ إلى دمشق للمشاركة في جنازة حافظ الأسد. فقام ابنه بشار، بطلب مساعدة الكوريين لبناء مفاعلٍ نووي في سوريا. انضم ممثلو إيران إلى المباحثات، وتم أخيرًا التوصل إلى اتفاق يقضي بأن تقوم كوريا الشمالية ببناء مفاعلٍ نووي في الصحراء السورية يكون نسخةً طبق الأصل عن مفاعلها النووي في يونغبيون (Yongbyon)، على أن تقوم إيران بتغطية كامل التكلفة، والتي قدرت بملياري دولار.

بدأت أعمال البناء، دون أن تكتشف الأذرع الأمنية الأمريكية والإسرائيلية شيئًا عنها. وحتى عندما علموا بزيارة خبراء طاقة نووية إيرانيين إلى دمشق في نهاية العام 2006م، أساء الأمريكيون والإسرائيليون تقدير أهمية هذه الزيارة.

بيد أن المعلومات الجديدة قد أوضحت الآن للإسرائيليين أن وقت التحضيرات قد انقضى، وأنه قد حان وقت اتخاذ القرار. نقلت المعلومات إلى وكالة المخابرات المركزية للولايات المتحدة، وقام رئيس الحكومة إيهود أولمرت بإرسال التقارير والصور إلى رئيس الولايات المتحدة جورج بوش في 18 يونيو/ حزيران، كما اقترح عليه أن تقوم الولايات المتحدة بتدمير المفاعل. أيّد بعض مسؤولي الإدارة الأمريكية، بمن فيهم

نائب الرئيس ديك تشيني، بشدة القيام بعملٍ عسكري خاطف، لكن بوش تردد. وبناء على نصيحة وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس وبعض مستشاريه، قرر تجنب العملية بزعم أن قصف المفاعل سيشكل انتهاكًا للسيادة السورية. وخلال محادثة هاتفية مع أولمرت في 13 يوليو/ تموز، أبلغه بوش أنه لن يقصف المفاعل وأنه يعتزم اتخاذ تدابير دبلوماسية ضد سوريا. رد أولمرت على ذلك: «استراتيجيتك مزعجة، أما أنا فأنوي العمل دفاعًا عن إسرائيل». فيما بعد، قال الرئيس الأمريكي حول ذلك: «هذا الرجل لديه الكثير من الجرأة، ولذلك أنا أحبه».

جرت هذه المحادثات بطرقٍ عدةٍ شملت لقاءاتٍ شخصية أو عبر مكالماتٍ هاتفية محمية ومشفرة. لم تتسرب أي كلمةٍ للعامة أو لوسائل الإعلام، وحتى الحكومة السورية لم تتخيل أن الولايات المتحدة وإسرائيل تعلمان ما يجري في دير الزور.

في غضون ذلك، ازدادت المراقبة على المفاعل من الأعلى: فقد بثت أقمار التجسس الإسرائيلية والأمريكية باستمرار صورًا محدثة للمفاعل وما يجري حوله. اتضح أنه منعًا للفت الانتباه، فضّل النظام السوري عدم نشر بطاريات دفاع جوي في محيط المفاعل وعدم وضع الكثير من الحرس عليه. كما قام السوريون بإلقاء القمامة في محيط البناء ليظهروا أن المبنى مهجور وغير نشط. كانت التقديرات في القدس وواشنطن تشير إلى أن المفاعل سيبدأ العمل بحلول نهاية شهر سبتمبر/ أيلول، وأي هجومٍ عليه بعد ذلك ستكون نتائجه كارثية من الناحية البيئية، سواء في سوريا

أو خارجها. حيث يمكن للإشعاعات المنبعثة من مفاعل «نشط» بعد تدميره أن تسبب ضررًا خطيرًا على البيئة.

كان هناك في إسرائيل مسؤولون أمنيون رفيعو المستوى مترددين من القيام بعمل عسكري. لقد كانوا يخشون أن يؤدي قصف المفاعل إلى إجبار الرئيس بشار الأسد على خوض حربٍ ضد إسرائيل، علما بأن حرب لبنان الثانية كانت قد انتهت مؤخرًا بنتائج مؤسفة. كان المترددون يخشون في حال اندلعت الحرب مع سوريا أن يقوم حزب الله بتفعيل بطارياته الصاروخية وإيقاع خسائر مؤلمة في الجبهة الداخلية المدنية. الشخص الذي لم يتردد، إدراكًا منه لخطر المفاعل السوري، كان أولمرت الذي طالب بقصف المبنى الهائل في دير الزور في أقرب وقتٍ ممكن. وهكذا حسم الأمر.

أعطيت العملية اسما مناسبًا هو: «خارج الصندوق».

قبل العملية، كان من الضروري رصد المفاعل عن كثب. ووفقا لما نشرته صحيفة «صنداي تايمز» اللندنية بتاريخ 4 يوليو/ تموز عام 2007م، فقد قامت قوات خاصة من «سييرت شلداغ» (وقد ذكرت تقارير لاحقة أنها من وحدة خاصة تألفت من جنود «سييرت متكال») بالتسلل إلى سوريا بواسطة طائرات مروحية من أجل «صبغ» الجدران الخارجية للمبنى بأشعة الليزر لتحديد الهدف لطائرات سلاح الجو.

وصلت الطائرات بالفعل في الليلة بين 5 و6 سبتمبر/ أيلول: أقلعت

أربـع طائـرات «إف15-» مـن قاعـدة حتسريـم وأربـع طائـرات «إف16-» مـن قاعـدة رامـون. وفي محاولـة لتجنـب الحـرب مـع سـوريا، تـم اتخـاذ كافـة الإجـراءات لإخفـاء دور إسرائيـل في القصـف المتوقـع. وصلـت الطائـرات إلى هدفهـا، مـع التحليـق عـلى علـو منخفـض جـدًا، مـن جهـة الحـدود التركيـة، بعـد أن تجـاوزت لبنـان ومعظـم السـواحل السـورية. وهكـذا وصلـوا إلى شـمال سـوريا بعـد اتبـاع مسـار عـلى شـكل قـوس واسـع فـوق البحـر المتوسـط، والتفـوا مـن الشـمال إلى الجنـوب، نحـو ديـر الـزور. قامـت وحـدات الحـرب الإلكترونيـة التابعـة للجيـش الإسرائيـلي، والتـي عملـت مـن الأرض ومـن الجـو، بالتشـويش عـلى عمـل محطـات الـرادار السـورية، فلـم يتـم كشـف الطائـرات. وصلـوا إلى ديـر الـزور واكتشـفوا المبنـى مـن جدرانـه المتوهجـة المصبوغـة بأشـعة الليـزر. ثـم ألقـت الطائـرات قذائفهـا ودمـرت المبنـى المسـتطيل بالكامـل.

اجتاحـت وسـائل الإعـلام العالميـة عناويـن وتصريحـات نسـبت الهجـوم لإسرائيـل، كأمـر مسـلّمٍ بـه. وحـذر المحللـون العسـكريون مـن انـدلاع حـرب بـين سـوريا وإسرائيـل. إلا أن الرئيـس الأسـد فضّـل عـدم التـورط في الحـرب. وحافظـت إسرائيـل عـلى الصمـت المطبـق ولم تعلـن مسـؤوليتها عـن العمليـة. لقـد أدرك الأسـد وهيئـة الأركان السـورية بالطبـع أن إسرائيـل هـي مـن قصفـت المفاعـل، لكـن صمـت إسرائيـل سـهل عليهـم عـدم القيـام بأعـمالٍ انتقاميـة، كـما أن سـوريا لم تكـن أيضًـا تريـد الاعـتراف ببنـاء المفاعـل، ناهيـك عـن مسـاعدة كوريـا الشـمالية! وبعـد عـدة سـاعات مـن الصمـت والإحـراج،

نشرت وكالة الأنباء الرسمية للحكومة السورية بيانًا غامضا: «اخترقت طائراتٌ إسرائيليةٌ الأجواء السورية، وأسقطت ذخائر في البادية دون وقوع أضرار، قبل أن تقوم القوات السورية بطردها»!

* * *

كان للعملية فصلٌ أخير، بنفس القدر من الدراما، إذ كان يرأس مشروع بناء المفاعل النووي السوري العميد محمد سليمان، قائد «جيش الظل» السوري، وهي وحدة خاصة صغيرة تتكون من خيرة الضباط والخبراء العسكريين في سوريا. كان سليمان أيضًا المستشار السري للأسد، وعمل من وراء الكواليس دون أن يظهر للعلن. بعد تدمير المفاعل في دير الزور، بدأ سليمان التخطيط لإعادة بنائه من جديد، لكنه سمح لنفسه أولا بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزله في الرمال الذهبية، شمال مدينة طرطوس السورية. كان المنزل يقع على شاطئ البحر المتوسط. وقد دعا سليمان إلى هناك مجموعة من أصدقائه، حيث جلسوا على الشرفة المطلة على البحر الهادئ وملؤوا بطونهم بالطعام في جو بهيج. وبحسب التقارير، فهم لم يلاحظوا ذانك الشخصين اللذين ظهرا من بين الأمواج. قناصان جاءا غوصًا ووجَّها أسلحتهما نحو سليمان ثم أطلقا النار عليه في الحال. سقط سليمان على الطاولة، بينما اختفى القناصان في الظلام ووصلا إلى السفينة التي كانت تنتظرهم في عرض البحر.

نعت الحكومة السورية وفاة سليمان الذي مات، كما قيل، بسبب «نوبة قلبية»!

هكـذا انتهـت العمليـة التـي بـدأت بإرسـال ثـلاث محاربـاتٍ شـابات إلى مدينـة فيينـا الرومانسـية.

ملاحظـة: جميـع الأسـماء الـواردة في هـذا الفصـل هـي أسـماء مسـتعارة، باسـتثناء أسـماء: مائـير داغـان، وإبراهيـم عثـمان، والعميـد سـليمان، ورام بـن بـاراك، والشـخصيات السياسـية المعنيـة بالقضيـة – أولمـرت وبـوش وغيرهـم.

(3)

موت على جبل الكرمل

في الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول عام 1917م، دوى صوت طلقٍ ناري في «زخارون يعقوب»، تلك المستوطنة الصغيرة الواقعة على السفوح الخضراء لجبل الكرمل. هرع الجنود العثمانيون إلى مصدر الصوت واقتحموا حمام أحد البيوت ليجدوا الشابة سارة آرونسون غارقة في دمائها على الأرضية الملونة. لقد أطلقت النار على نفسها في فمها بمسدسٍ صغير، لكن الرصاصة أخطأت عمودها الفقري. ما زالت على قيد الحياة.

كانت سارة معتقلةً لدى العثمانيين، حيث كانت فلسطين جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، التي شاركت في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا ضد فرنسا وبريطانيا وحلفائهما، في تلك الفترة انضمت سارة وعائلتها إلى الطائفة اليهودية الصغيرة في البلاد، قادهم في ذلك شقيقها العالم البارز آرون آرونسون، والذي اشتهر عالميا بفضل اكتشافه «أم القمح»، وهو النبات البري القديم الذي تطورت منه أصناف القمح

الحديـث، وقـد سـاهمت مؤسسـات أوروبيـة وأمريكيـة بتمويـل مختـبره في «عتليـت». وكان آرونسـون أيضًـا أول مالـك سـيارة ودراجـة هوائيـة في فلسـطين.

رغـم ذلـك، كان آل آرونسـون مـن أشـد المعارضـين للحكـم العثـماني، وكانـوا يعتقـدون أن السـبيل الوحيـد لتحقيـق الاسـتقلال اليهـودي في البـلاد يومًـا مـا، سـيكون بدعـم بريطانيـا العظمـى، ولذلـك قـرروا مسـاعدة البريطانيـين بـأيّ وسـيلةٍ لينتصروا في الحـرب، فأنشـأوا شـبكة تجسـسٍ سريـة، حملـت اسـم «نيـلي»، قامـت بتزويـد البريطانيـين بمعلومـاتٍ استخباريةٍ بالغـة الأهميـة عـن الجيـش العثـماني. تـرأس هـذه الشـبكة كل مـن آرون وسـارة ذات الــ 27 ربيعًـا، وقـد ضمـت في أوج نشـاطها حـوالي 40 جاسوسًـا ومخـبرًا.

لكـن في نهايـة شـهر سـبتمبر/ أيلول مـن ذلـك العـام، أمسـك العثمانيـون بأحـد طيـور الحـمام الزاجـل والـذي كان ينقـل الرسـالة الأخـيرة مـن سـارة للبريطانيـين، فسـارعوا إلى محـاصرة «زخـارون يعقـوب» واعتقـال أفـراد عائلـة آرونسـون، وقامـوا بـضرب وتعذيـب سـارة بقسـوة شـديدة. وبعـد أربعـة أيـام مـن التعذيـب الشـديد، قـرر العثمانيـون ترحيـل سـارة إلى النـاصرة، ومنهـا إلى دمشـق، ليتـم إعدامهـا شـنقًا هنـاك. توسـلت سـارة لهـم ليسـمحوا لهـا بالدخـول إلى غرفتهـا لتبديـل ملابسـها الملطخـة بالدمـاء، ومـا إن أصبحـت وحدهـا في الحـمام حتـى أخرجـت مسدسـها الصغـير مـن مخبـأ سري وأطلقـت النـار عـلى نفسـها. ظلـت حالـة سـارة حرجـة حتـى توفيـت في التاسـع مـن شـهر أكتوبر/ تشريـن الأول.

يزخر تاريخ إسرائيل المضطرب بالعديد من النساء اللواتي تم تجنيدهن من قبل الموساد أو الاستخبارات العسكرية، وأخريات تطوعن، بل وحتى شرعن وحدهن في تنفيذ مهماتٍ جريئة دون أن ينتظرن توجيهات أو تدريبا من أحد. كثيرات دفعن ثمنا باهظا نظير جرأتهن.

لن نتمكن في هذا الكتاب من الحديث عن آلاف النساء اللواتي خدمن ويخدمن في جيش الظل السري الخاص بنا، فهناك بطلات ما زالت أسماؤهن (المستعارة) ممنوعة من النشر، ولا يمكننا ذكرهن أو سرد قصتهن الكاملة، لأن ما فعلنه وما زلن يفعلنه سيبقى سريا لسنوات طويلة.

في البداية كن سكرتيرات و «مرافقات».

كانت «المرافقة» عبارة عن ضابطة في الموساد تقوم بمرافقة محارب الموساد على أنها صديقته، أو زوجته إن جاز التعبير. وهذه إضافة ضرورية للمحارب في مهمته، حيث أن الزوجين أقل إثارة للشك من الرجل العازب، وتواجد امرأة مع أي رجل أو مجموعة يقلل من الشكوك.

كان محاربو الموساد عادة رجالا من قدامى المحاربين في «الهاغانا» و «البالماح»، أو أعضاء كبار في المنظمات السرية «إتسل» و «ليحي». ومن كان جيدًا منهم خدم في الوحدة العملياتية للشاباك، التي عملت أيضًا لصالح الموساد في سنواته الأولى. وفي وقت لاحق تم إنشاء الوحدة العملياتية للموساد التي عرفت باسم «قيسارية»، والتي أيضًا كانت

في بداياتها مكونـة مـن الرجـال فقـط. وفي مرحلـة لاحقـةٍ اكتشـف رؤسـاء الموسـاد أن النسـاء اللـواتي يسـافرن إلى بلـدان الهـدف بمفردهـن يعـبرن الحـدود بسـهولة أكـبر ويمكنهـن أيضًـا العمـل وتنفيـذ المهـمات دون إثـارة الشـكوك. وكـما قالـت لنـا إحـدى محاربـات الموسـاد القديـمات: «عندمـا تجـد رجـلا يقـف ليـلا في زاويـة شـارع – فإنـك تشـك بـه، أمـا إذا رأيـت امـرأة – فإنـك سـتحاول مسـاعدتها».

كثـيرًا مـا وصفـت وسـائل الإعـلام العالميـة المحاربـات الإسرائيليـات بأنهـن «فتيـات إغـراء»، لكـن هـذا ليـس هـو الواقـع. فهنـاك تعليـمات واضحـة في الموسـاد بعـدم إعطـاء أوامـر للنسـاء باسـتخدام أجسـادهن بغـرض تنفيـذ مهماتهـن. وإذا مـا بـادرت أي محاربـةٍ طواعيـة في إقامـة علاقـةٍ جنسـية مـع شـخصٍ كان مسـتهدفًا في العمليـة المكلفـة بهـا، فـإن هـذا حقهـا، ولكنهـا لم تتلـق أي أمـر، أو طلـب، أو تلميـح، أو حتـى نصيحـة في هـذا الاتجـاه. هنـاك حالـة نـادرة تلقّـت فيهـا إحـدى المحاربـات أمـرًا بإقامـة اتصـالٍ جزئـي مـع شـخص كان هدفًـا لعمليـة – وذلـك في قضيـة «سـيندي – فعنونـو».

يـروي يوسـكا ياريـف، أحـد القـادة السـابقين لوحـدة «قيسـارية»، قصـة تجنيـد إحـدى العميـلات: «كانـت امـرأة أربعينيـة محترمـة، يعـرف عنهـا بأنهـا ليبراليـة في الجنـس... قمنـا بتجنيدهـا لتعمـل عـلى تكويـن صداقـات مـع ‹المسـتهدفين› الذيـن كنـا نعتبرهـم مهمـين في بعـض الـدول. وظفناهـا لمـدة عامـين تقريبـا، وكانـت النتائـج ممتـازة. لم يخـف عنهـا المسـتهدفون أي معلومـات عمـن كانـوا يجتمعـون معهـم وأيـن ولمـاذا. وقـد تمكنـت أيضًـا مـن التأكـد مـن

هوية هؤلاء المستهدفين حقًّا وما هي وظيفتهم وما طبيعة مهمتهم وما الغطاء الذي يعملون به. كان هذا أمرًا حيويًّا بالنسبة لنا. لكنني لن أحضر امرأة كهذه من أجل عمل استخباراتي وتجسس واضح».

تقول المحاربة «ياعيل» في مقابلة صحفية: «لطالما استخدمت حقيقة كوني امرأة، لكنني لم أستخدم جسدي أبدًا للقبول وكسب الثقة في الأماكن التي عملت بها. شعرت أن المحافظة على الحدود هو في الواقع ميزة الأنوثة، وكانت تلك هي الرسالة التي تلقيتها من رؤسائي. لم ينتظروا مني أبدًا أن أذهب إلى الفراش كجزءٍ من أداء وظيفتي، كانت الرسالة عكس ذلك. ما هو أكثر من ذلك، كانت تلك هي السياسة المتبعة».

كانت إحدى محاولات الإغواء – ضمن الأطر المسموح بها – في عام 1955م، عندما طارد محاربو الموساد أحد الفارّين في أوروبا، وهو ألكسندر يسرائيل (الذي غير اسمه إلى أفنير)، ضابط سابق في الجيش الإسرائيلي تورط في قضايا مالية وفر من البلاد. كما قام ببيع خرائط ووثائق سرية تخص الجيش الإسرائيلي لدبلوماسيين مصريين في إيطاليا. وقد اختفت آثاره لبعض الوقت قبل أن يتم اكتشافه في فيينا، عندما التقت به مصادفة في أحد شوارع العاصمة النمساوية إحدى صديقات الطفولة، التي سبق وتعرف عليها في بلغاريا، فقامت بالإبلاغ عنه لمبعوثين إسرائيليين. وفي النهاية وصلت المعلومات إلى الموساد وبدأ عناصره في تعقب أفنير.

صعـد أفنـير إلى الطائـرة في فيينـا متوجهًـا إلى باريـس، وكانـت تجلـس بجانبـه مصادفـة فتـاةٌ فرنسـيةٌ جميلـةٌ وجذابـة، بـدأت في محادثتـه. هكـذا اسـتلطف الاثنـان بعضهـما البعـض وقـررا الخـروج معًـا لقضـاء الوقـت في باريـس. وعندمـا هبطـت الطائـرة، أقنعـت الفتـاة أفنـير بالانضـمام إليهـا في الرحلـة مـن المطـار إلى باريـس، بواسـطة «سـيارة الأصدقـاء» الذيـن أتـوا لاسـتقبالها. وافـق أفنـير وركـب معهـا في سيارة «الأصدقـاء» الودوديـن الذين اسـتقبلوهما في المطـار. وفي الطريـق توقفـت السـيارة فجـأة وقـام عنـاصر الموسـاد بخطـف أفنـير، بينـما اختفـت الحسـناء. (تـوفي أفنـير في طائـرة نقـل كانـت في طريقهـا إلى البـلاد، نتيجـة حقنـه عـلى مـا يبـدو بجرعـةٍ زائـدةٍ مـن المخـدر، وبحسـب شـهادة رئيـس الموسـاد إيسر هرئيـل، فقـد ألقيـت جثتـه في البحـر وتـم إخفـاء حقيقـة وفاتـه عـن عائلتـه).

كانـت هـذه إحـدى الحـالات النـادرة نوعًـا مـا، والتـي تشـارك فيهـا امـرأة في عمليـة للموسـاد. وسـتمر بعدهـا عـدة سـنوات قبـل أن يتـم تحقيـق المسـاواة بـين الجنسـين في العمليـات، ولكـن قبـل ذلـك، وحتـى قبـل قيـام إسرائيـل أيضًـا، نشـأت نسـاء لم ينتظـرن أن يجندهـن الموسـاد، بـل «جنـدن أنفسـهن» لخدمـة الدولـة. في هـذه الفـترة لم يكـن قـد تـم تحديـد أنـماط وأطـر عمـل الأجهـزة الأمنيـة بعـد، وكانـت الأذرع الاسـتخباراتية العسـكرية والمدنيـة مـا زالـت في طـور مخـاض مـا قبـل الـولادة، بـرزت وقتهـا نسـاء شـابات تطوعـن أو تـم تجنيدهـن بشـكل عشـوائي وغـير منظـم، ودخلـن دون تلقـي أي تدريـب في حقـل الألغـام هـذا – عـالم الظـل.

(4)

يولاندا: التي خاطت أسرار الحرب على أكتاف معطفها

في مساء أحد الأيام، من أواخر أربعينيات القرن العشرين، كان أفراد الطبقة الأرستقراطية في القاهرة يتناولون وجبة العشاء كعادتهم في المطعم الفاخر لفندق «شبرد»، هذا المطعم الذي تم تصميم صالته على شكل قاعة فخمة. جدران مكسوة بالرخام. ثريات مستديرة، ونوافذ مقوسة عالية، وأعمدة مزخرفة شاهقة، وقبة دائرية كجرسٍ شفاف. وقد جلس حول الطاولات، المغطاة بمفارش مائدة بيضاء وأوان مزخرفة، رجال ببدلات سهرة مفصلة ونساء تتزين بالمجوهرات البراقة وترتدين فساتين سهرة مستوردة من أحدث صيحات دور الأزياء في باريس وروما. كان معظم رواد المطعم من الأوروبيين، وقليل من المصريين الأثرياء ورجال الأعمال والنبلاء والمسؤولين والوزراء. ومن بين الحشد أيضًا من يرتدون زي ضباط بريطانيين. كان النُّدل يجولون بين الطاولات مع صوانٍ محملة بالأطباق الأوروبية. فيما كانت الأوركسترا قد أنهت عزفها قبل بضع دقائق، بعد أن أمتعت الحضور بموسيقى الفالس الفييني، ومعزوفات

أخـرى خفيفـة، وتخلـل كل ذلـك أصـوات نقـرات الملاعـق والأشـواك عـلى الصحـون البورسـلانية وضجيـج المحادثـات عـلى الطـاولات.

خيـم الصمـت فجـأة عـلى القاعـة. صمـت الجميـع وتركـزت الأنظـار عـلى المجموعـة التـي دخلـت لتشـق طريقهـا نحـو طاولـةٍ كبـيرةٍ وسـط المطعم. كان يتقـدم المجموعـة الملـك فـاروق، ملـك مـصر، في حلـة مدنيـة وطربـوش، وخلفـه مسـاعدون وأصدقـاء وحـراس أمـن، جميعهـم رجـال. جلـس الملـك ومرافقـوه، وقـام النُّـدل بمـلء الطاولـة بالأطبـاق والصـواني والمشروبـات، بينـما عـاد الحضـور إلى طعامهـم وأحاديثهـم.

ثـم حـدث أمـر مفاجـئ أصـاب الضيـوف بالدهشـة. كانـت تجلـس عـلى إحـدى الطـاولات شـابة شـقراء طويلـة القامـة ترتـدي فسـتان كوكتيـل رمـادي اللـون يظهـر قوامهـا الرشـيق وتنتعـل كعبًـا عاليًـا، قامـت مـن مكانهـا وسـارت بسرعـة نحـو طاولـة الملـك فـاروق. حبـس الجميـع أنفاسـهم وهـم يراقبـون تلـك الحسـناء تقاطـع عشـاء الملـك! يمكـن القـول إنهـا تصرفهـا هـذا كان يضاهـي تدنيـس المقدسـات، إلا أنـه بـدا أنهـا لم تكـترث لتقاليـد المـكان. اقتربـت مـن طاولـة الملـك وهـي تضحـك بصـوت مسـموع، قبـل أن تقـول في دلال: «اعـذرني، يمكنـك أن تلقـي القبـض عـليّ إن كنـت ترغـب في ذلـك، لكـن لم يتـم السـماح لي بالوصـول إليـك حتـى الآن. ذهبـت عـدة مـرات إلى القـصر وطلبـت مقابلتـك، لكننـي لم أتلـق ردًّا. أنـا صحفيـة، فـماذا سـأكتب لصحيفتـي في أمريـكا؟».

قام الملك من مكانه وصافح يد المرأة الشابة بلطف. ثم أخرج بطاقة دعوة من جيب بدلته وقدمها لها. ودعاها ببضع جمل قصيرة للاتصال به لتحديد موعد.

هكذا نجحت يولاندا هارمور، القائدة السرية لشبكة التجسس الصهيونية في القاهرة، في تكوين علاقةٍ وثيقةٍ ومثمرة مع القصر الملكي في مصر.

* * *

يمكن القول إن يولاندا امرأةٌ رائعة. أطلق عليها لاحقًا لقب «ماتا هاري الإسرائيلية». ربما هي لم تكن راقصة تعري ولا حتى عميلة مزدوجة كما كانت ماتا هاري[1] في الحرب العالمية الأولى، ولكنها كانت تماثلها في الشجاعة والجمال، وسحرها الذي يصيب أي عين تراه. كانت موهوبة جدًّا في تكوين العلاقات داخل دوائر الحكم المغلقة والأكثر تأثيرًا، وكذلك استغلالهم لتحقيق هدفها. تلك الفتاة الشقية والمرحة،

(١) ماتا هاري (1867-1917): ماتا هاري هو الاسم الفني التي اشتهرت به (مارجاريتا جِرترودا زيلي)، وهي أشهر جاسوسة في التاريخ الحديث. كانت راقصة هولندية-جرمانية، وموسًا لدى رجال الطبقة العليا من المجتمع، تم إعدامها من قبل الفرنسيين رميًا بالرصاص بتهمة التجسس عليهم خلال الحرب العالمية الأولى. أصبحت مادة شديدة الثراء للأدباء والمؤرخين وصناع السينما، وأطلق عليها لقب جاسوسة الجاسوسات ورسموا لها صورة الفتاة الجميلة الساحرة التي أوقعت كبار السادة في هواها وغوايتها، لكن ماتا هاري في الواقع، كانت أقرب إلى القبح والدمامة.

ابنة عائلة جباي الثرية، المولودة في الإسكندرية في يوليو/ تموز عام 1913م، لا بد أنها لم تتخيل يومًا، أنها ستصبح جاسوسةً وستكرس حياتها لأمن إسرائيل.

في البداية، كانت حياتها تسير بشكل روتيني، كما يليق بابنة عائلةٍ يهودية ثرية في مصر في مطلع القرن العشرين. أرسلها والداها إلى مدرسةٍ داخليةٍ مرموقة للبنات في سان جيرمان بالقرب من باريس، حيث درست اللغات والفن والأدب والتاريخ الفرنسي، فضلا عن معظم العادات وأسلوب التعامل. وفي سن السابعة عشر أعادها والدها إلى مصر ليزوجها من رجل الأعمال الناجح جاك دي بوتون، فحظيت بمنزلٍ جميل وخدم وحياة مرفهة، كما أنجبت طفلها جيلبر، قبل أن تنتهي حياتها الروتينية هنا، إذ ما إن أتم جيلبر عامه الثالث حتى تطلقت يولاندا من السيد دي بوتون، وشرعت في عملها المستقل كصحفية. قررت أن تتحمل مسؤولية نفسها، وأن تثبت أنها قادرة على النجاح في مهنة الصحافة، والتي كانت حكرًا على الرجال في مصر.

بدأت يولاندا تكتب عن الحياة السياسية المصرية، فأقامت علاقاتٍ وثيقةٍ مع العديد من قادة الدولة ومن الجالية الأجنبية في مصر. وكانت ترسل مقالاتها عما يحدث في دوائر الحكم لصحف أمريكية، وبعد ذلك أرسلتها لـ «فلسطين بوست» الصهيونية. لقد فهمت الجو، وعرفت كل النمائم والقصص، وكتبت مقالاتٍ متعاطفة مع القادة المصريين البارزين، وبذلك اكتسبت العلاقة والثقة. وكثيرًا ما ظهرت في مطاعم مرموقة

بصحبة وزراء وسياسيين وضباط جيش كبار ودبلوماسيين أجانب، وسرعان ما اعتادت على النظرات الفضولية التي كانت تحدق بها من كل جانب.

وبصفتها ابنة لعائلة غنية، لم تشعر يولاندا بأي نقص، فكانت دائمًا ما تظهر بأفضل ما لديها – بأرقى الملابس وأكثرها أناقة، برحلات الاستجمام المرفهة، بالشقق الفسيحة، وبالسيارات الفاخرة. سافرت أكثر من مرة إلى أوروبا، وخاصةً إلى باريس المفضلة لديها. وهكذا أطلق عليها البعض لقب «فام فاتال» ووصفوها بأنها «غامضة ومغرية». تقول إحدى صديقاتها: «لقد كانت مميزةً لا مثيل لها، وذكية بشكل لا يصدق. لم تكن هناك أي امرأة في مصر يمكن أن تضاهيها. وقع الرجال في حبها وسقطوا عند قدميها...». وتضيف أخرى: «كلمة جميلة قليلة عليها». ولكن أكثر ما كان يثير الإعجاب في هذه الشخصية الاجتماعية الراقية كان تألقها ومحبتها للحياة وابتسامتها الساحرة. ويقول صديقها البروفسور دان سيجري: «عندما تبتسم، لا يبتسم وجهها فقط وإنما كل جسدها». وقد أشاد معارفها بذكائها وسرعة بديهتها والأنوثة الآسرة التي كانت تنبعث منها.

أحبت يولاندا الملذات التي كانت تنعم بها القاهرة، فقد كانت مدينة جميلة، ذات شوارع واسعة وحدائق خضراء ومتاجر ممتلئةً بما لذّ وطاب. ووفقًا لسكانها الأوروبيين، فقد كانت تلك الأيام ساحرة في العاصمة المصرية، حيث سادت بينهم اللغة الفرنسية بينما تسمع بين الحين والآخر

محادثـاتٍ بالإنجليزيـة أو الإيطاليـة. مجتمـعٌ كانـت حياتـه زاخـرة بالملـذات – إبحـار في النيـل. رياضـة في النـوادي الفاخـرة في هليوبوليـس والجزيـرة. تـذوق الأطباق الشـهية في حانـوت «جروبيز» الشـهير. احتسـاء شـاي مـا بعد الظهـيرة عـلى وقـع الأوركسترا والرقـص في أحـد الفنـادق الفخمـة. كوكتيـل في فنـدق «مينـا هـاوس». ركـوب الجـمال والاسـتمتاع بغـروب الشـمس الأحمر عنـد الأهرامـات. في موعـد شرب الشـاي، كانـت «كل القاهـرة» تجلـس عـلى شرفـة «الكونتيننتـال»، حيـث يسـتمتع المشـاركون بانحسـار الحـر وتلـون سـماء المدينـة بالألـوان الزرقـاء والأرجوانيـة. وكانـوا أيضًـا يتمازحـون حـول جلـوس كل هـؤلاء العمـلاء والجواسـيس مـن جميـع أنحـاء أوروبـا. لقـد اسـتأثروا بالاسـتمتاع بهـذه التجربـة الأوروبيـة العالميـة، حيـث كانـوا يعيشـون في مجتمـع منغلـق ولم يسـمح إلا لعـدد قليـل مـن المصريـين بالانضـمام إليـه، وكان معظـم المصريـين الذيـن عرفهـم الأوروبيـون هـم مـن الخـدم والنُّـدل ومـربي الخيـل والموظفـين الخاضعـين وقائـدي الجِـمال وسـائقي عربـات النقـل. كانـت هـذه أيـام تراجـع الاسـتعمار الأبيـض المتغطـرس، وكانـت القاهـرة آخـر حصونـه.

اندمجت يولانـدا تمامًـا في حياة المجتمـع الأوروبي، حتـى أتـى ذلـك اليوم في مطلـع سـنوات الأربعينيـات، عندمـا ظهـر في القاهـرة شـاب صهيـوني اسـمه «إنـزو سـيريني». كان يلقـي خطابًـا أمـام مجموعـة مـن اليهـود، حيـث أثـرت كلماتـه في يولانـدا وجعلتهـا تتحـول إلى صهيونيـةٍ متحمسـة. تعرفـت بعـده عـلى العديـد مـن رؤسـاء الوكالـة الصهيونيـة – إلياهـو إيـلات، رؤوفـين

شيلواح، إلياهو ساسون، شاؤول أفيغور، وتيدي كوليك. أرسلت «الهاغانا» إلى القاهرة ليفي أفراهمي ويعقوب عيني وآخرين غيرهم. وفي حفلة كوكتيل التقت يولاندا بكبيرهم - رئيس المكتب السياسي موشيه شاريت، ونشأت بينهما علاقة صداقةٍ قوية. كما تعرفت على ديفيد بن جوريون خلال زياراته المتعددة إلى القاهرة. وذات مرة كانت توصله بسيارتها من المطار عندما تعطلت بهما السيارة، حيث قضوا ساعة كاملة على قارعة الطريق في الصحراء قبل أن يتم إنقاذهم. وكان معهما في السيارة وقتها جيلبر ابن التسع سنوات، والذي بقيت محادثته الطويلة مع بن جوريون محفورة في قلبه. وما إن اقترب المشير الألماني إرفين رومل على رأس جيشه من القاهرة، حتى فرت يولاندا وابنها إلى القدس، لكنهما سرعان ما عادا إلى مصر فور زوال الخطر. ومع ذلك فقد تركت الحرب جرحًا نازفًا في قلب يولاندا. فقد وقعت يولاندا وهي في القاهرة، في حب طيار من أصل جنوب إفريقي اسمه جون هارمور، وتزوجت به. لكنه قُتل في الحرب، فشكّل موته صدمةً كبيرةً لها. وبحسب جيلبر فإنها لم تتمكن أبدًا من التغلب على ذلك الألم. لقد حملت اسم زوجها، وغيّرته لاحقًا إلى «هارمور».

نشأت بعد الحرب علاقة رومانسية بين يولاندا وموشيه شاريت، استمرت حتى قيام دولة إسرائيل. ولم تكن يولاندا خلال هذه الفترة عشيقة شاريت فقط، بل كانت أيضًا مستشارة له، وقد شاركها أفكاره وخططه. كما كانت هي من يرسل إليها شاريت التقارير من نيويورك

عشـية إقامـة الدولـة، عـن محادثاتـه مـع قـادة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وعـن مخاوفـه مـن العـرب. وفي الثامـن مـن مايو/ أيـار عـام 1948م، التقـى شـاريت بوزيـر الخارجيـة الأمريكـي جـورج مارشـال، الـذي حـذره بلغـة فظـة وقاسـية مـن إقامـة دولـة إسرائيـل. حيـث قـال مارشـال: «سـيبيدونكم»، وأضـاف أن الولايـات المتحـدة لـن تقـدم المسـاعدة ولـن تنجـد اليهـود في فلسـطين إذا مـا هزمـوا في المعركـة. أصـاب القلـق شـاريت مـن تلـك المحادثـة، ومـا إن انتهـت تلـك المحادثـة حتـى كتـب رسـالة شـخصية إلى يولانـدا، يكشـف لهـا مـا يعتمـر قلبـه. كتـب لهـا في الرسـالة: «أنـا عائدٌ إلى فلسـطين مـع ابنتـي ياعيـل. وإننـي خائـفٌ مـن كوننـا عـلى وشـك أن نرتكـب خطـأً فادحـا». شـعرت يولانـدا وسـكرتيرتها أورا بانقبـاض روحهـما.

* * *

لكن دعونا لا نستبق الأحداث.

في 22 مـارس/ آذار عـام 1945م، وقبـل أن تضـع الحـرب العالميـة الثانيـة أوزارهـا، التقـى قـادة كل مـن مـصر وسـوريا والأردن والعـراق ولبنـان واليمـن والسـعودية وقـرروا إنشـاء «جامعـة الـدول العربيـة». كان عـرب فلسـطين أيضًـا أعضـاء في الجامعـة، التـي أقيمـت مكاتبهـا في القاهـرة، عاصمـة الدولـة العربيـة الرائـدة آنـذاك. كان مـن الواضـح أن الجامعـة سـتركز جهودهـا عـلى إحبـاط مـشروع إقامـة دولـة يهوديـة عـلى أرض فلسـطين، وهـو المـشروع الـذي يقـوده ديفيـد بـن جوريـون منـذ سـنتين. كان رؤوفـين شـيلواح، الـذي

سيتم تعيينه لاحقًا كأول رئيس للموساد في دولة إسرائيل، يتلقى المشورة من إلياهو أفشتاين، أحد رؤساء المكتب السياسي الذي قام أيضًا بأنشطة استخباراتية. وقرر الاثنان إنشاء شبكة تجسسٍ في القاهرة. قاما بالمفاضلة بين أسماء المرشحين المحتملين، ووقع اختيارهم على يولاندا. رغم أنها كانت امرأة، وفي مصر المسلمة كانت حركة وحريّة عمل المرأة مقيدة للغاية، حيث كان المجتمع المصري مجتمعا ذكوريًّا، ومكانة المرأة فيه أدنى مستوى. ويقتصر دورها على البيت والمطبخ وتربية الأولاد. إلا أن يولاندا كانت استثنائية: متحررة وأوروبية العادات والتقاليد، في حديثها ولباسها، واجتماعية، وتعرف الكثيرين من مسؤولي الدولة، حتى إن بعضهم قد تودد إليها، كما كانت عمليةً وشديدة التركيز، إضافة إلى كونها صهيونية متحمسة.

يعود رئيس بعثة «الهاغانا» ليفي أفراهمي بذاكرته إلى لقائه الأول بيولاندا. لقد قالت له بابتسامة آسرة: «تعال واجلس بجانبي لأخبرك عن سبب قدومك إلى القاهرة. أنت تريد أن تجمع الكميات الكبيرة من الأسلحة التي تركها الألمان وراءهم في الصحراء (صحراء مصر الغربية، حيث تمت هزيمة جيش المشير رومل على يد القوات البريطانية) وتهريبها إلى الأراضي الفلسطينية. أليس كذلك؟ وأنت لا تملك مستودعًا كبيرًا من أجل ذلك. إذًا دعنا نجد واحدا». فوجئ أفراهمي، رغم أنه لم يكن من أولئك الذين يفاجؤون بسهولة. وفي اليوم التالي اصطحبته بسيارتها إلى الصحراء، وبحثت معه عن «موئل عشاق» منعزل. ولم تلبث أن عثرت

على فيلا كبيرةٍ محاطةٍ بسور مرتفع وسياج شائك، فاستأجرتها فورًا. يقول أفراهمي: «كان ذلك مكانًا مثاليًّا». تم استخدام هذه الفيلا لهذا الغرض لفترة طويلة.

أرسل بن جوريون سيارةً مصفحةً إلى مطار اللد لاصطحاب يولاندا إليه، حيث سلمته الخطط التي كانت ذات أهميةٍ كبيرة. تفحص رؤوفين شيلواح الخرائط باهتمام وأقر بأنها حقيقية. قام بن جوريون وشيلواح ومساعديهم بدراسة الخطط بجدية.

ومع ذلك، كان هناك شيءٌ ما غريبٌ في حديثهم. فعندما سمعت يولاندا المداخلات والتعليقات التي تبادلها المشاركون في المناقشات، تولّد لديها انطباع بأن لديهم معلومات استخباراتية إضافية حول الهجمات المتوقعة من الشمال. وخمّنت بأن لديهم مصدرًا استخباراتيًّا آخر في بيروت أو في دمشق. لكنهم التزموا الصمت عندما سألتهم عن ذلك.

حان الآن وقت العودة إلى القاهرة. كان تيدي كوليك يشغل منصب رئيس الاستخبارات في الوكالة وقتها، وكان يعتقد أنها تخاطر كثيرًا من أجل الدولة، فنصحها بعدم العودة إلى القاهرة. وافقه في الرأي كذلك رؤوفين شيلواح، لكنها لم تنصت لهما. وأجابتهما بأنها لن تفيدهم وهي في البلاد، كما أنه لا زال لديها ما تقوم به في مصر.

قالت يولاندا في شهادتها لاحقًا: «بعد اندلاع الاضطرابات في ديسمبر/ كانون الأول عام 1947م، نشبت حرب بين المستوطنين اليهود

من جهة والعرب الفلسطينيين والمتطوعين الذين أرسلتهم جامعة الدول العربية لمساعدتهم من جهة أخرى. وقد وجهتُ جهدي الاستخباراتي نحو تلك العناصر في مصر - مجلس جامعة الدول العربية والقيادة الفلسطينية في المنفى و»الإخوان المسلمين» وحزب «مصر الفتاة»، الذين كانوا وقتها متورطين مباشرة في الحرب الدائرة على أرض فلسطين. تابعنا مؤسسات الجامعة واجتماعاتها في القاهرة، وقمنا بزرع عملاء داخل السفارات الأجنبية ووسط الضباط البريطانيين في مصر، حيث أمكننا عن طريقهم معرفة ما يجري داخل الفيلق العربي (الأردني)، وكذلك ما هي نوايا وتوجهات بريطانيا في أرض فلسطين. كما اخترق عملاؤنا أيضًا صفوف المتطوعين المصريين، الذين كانوا يخططون للتوجه إلى أرض فلسطين والانخراط في الحرب».

أخذت يولاندا على عاتقها مخاطر متزايدة. وقد قالت لاحقًا: «كنت أخشى في كثيرٍ من الأحيان أن يتم إلقاء القبض عليّ. إلا أني أكملت مهمتي بفضل إيماني العميق بأهمية ما أقوم به». ساء الوضع كثيرًا بعد إعلان قيام الدولة، وشعرت يولاندا للمرة الأولى أنها في خطر. وفي 20 مايو/ أيار عام 1948م، كتبت لمشغليها في إسرائيل: «وضعي هنا غير مستقر أبدًا. أنا ما زلت خارج البلاد بفضل تأثير بعض الأصدقاء. إن كنتم ترون أني سأكون ذات فائدة أكبر في مكانٍ آخر، فلن أمانع في تغيير الأجواء».

ولم يمض شهران حتى تحققت مخاوفها بالفعل. ففي يوليو/ تموز عام

1948م، تم اعتقال يولاندا وإيداعها السجن، لكنه كان اعتقالا غريبًا. وبفضل علاقاتها مع شخصيات رفيعة المستوى، حظيت بمعاملةٍ خاصة. فقد كانت تحصل على وجبات دسمة يوميًّا من أحد أفضل المطاعم في القاهرة، كما كانت تصلها الصحف كل صباح، إضافةً إلى أنه سمح لها بإجراء المكالمات الهاتفية مع من تريد.

في هذه الأثناء، فقدت شبكة التجسس قوتها واستقرارها، وواصل العملاء القدوم إلى المكتب وطلب نقودهم من «أورا». ارتدت أورا زي فتاةٍ عربيةٍ وغطّت رأسها ووجهها بالحجاب وتوجّهت إلى السجن مصطحبةً جيلبر ذي الأربعة عشر ربيعًا. لم يسمح لها بمقابلة يولاندا لكنها رأتها من بعيد. كانت يولاندا تقف خلف القضبان في الطابق الثاني وتم الحديث بينهما عبر الصراخ بصوتٍ عال. صاحت أورا: «ما العمل؟». هزت يولاندا كتفيها قائلة: «افعلي ما تستطيعين».

نُقلت يولاندا إلى فيلا جميلة كانت تستخدم كسجن خاص للنساء الأجنبيات. وهناك مرضت وفقدت وزنها حتى أنها بالكاد كانت تستطيع النهوض من فراشها. وقد نجحت في إيصال بضعة رسائل لرؤوفين شيلواح في إسرائيل وأعلمته بتدهور صحتها. ثم أخيرًا، وبفضل علاقاتها، تم إطلاق سراحها من السجن، فسافرت مع ابنها إلى فرنسا.

في باريس، انضمت يولاندا علنًا وبشكل رسمي لوفد الدبلوماسيين الإسرائيليين الذين شاركوا في اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة،

والـذي عُقـد ذلـك العـام في قـصر «شـايو» في العاصمـة الفرنسـية. ومـع ذلك، اسـتمرت يولانـدا في لقـاء مسـؤولين مصريـين والحصـول عـلى معلومـات مـن محادثتهـم. لقـد كانـوا يحترمونهـا واسـتمروا في معاملتهـا بلطـف. أرسـل ممثـل وزارة الخارجيـة شـمويل ديفـون تقريـرًا مـن باريـس يفيـد بـأن يولانـدا قـد قامـت بعمـل رائـع في الوفـد. يقـول ديفـون: «في هـذا التجمـع في الأمـم المتحـدة، عندمـا تريـد أن تقيـم اتصـالاتٍ في الوقـت المناسـب، فلـن تجـد أفضـل منهـا». وعـلى الرغـم مـن أنشـطتها، كانـت تعتقـد أنـه يمكـن الوصـول إلى تفاهـم بـين اليهـود والعـرب وبينـما كانـت هـي تحـاول تقريـب وجهـات النظـر، كانـت النقـب تشـهد اشـتباكات بـين الجيشـين الإسرائيـلي والمـصري، حتـى أنهـا أعـدّت تقريـرًا لموشـيه شـاريت، ادعـت فيـه أن المصريـين مهتمـون بالوصـول إلى تهدئـة مـع دولـة إسرائيـل.

أصيبت بالمرض مرة أخرى في باريس، وكان هنـاك خطـر عـلى حياتهـا، لكنهـا نجـت بعـد الخضـوع لعمليـة جراحيـة ومكثـت في المستشـفى خمسـة أشـهر كاملـة، قبـل أن تقـرر بعدهـا مغـادرة فرنسـا. انتهـت الحـرب، كـما انتهـى أيضًـا دورهـا في باريـس، ومـرة أخـرى - وخلافًـا لـكل النصائـح والأوامـر التـي تلقتهـا - عـادت مـع جيلـبر إلى مـصر ورجعـت إلى عادتهـا السـيئة.

استقبلتها القاهـرة بـأذرع مفتوحـة وكأن شـيئًا لم يحـدث، وكأنهـا لم تُعتقـل ولم تدخـل السـجن مـن قبـل. لقـد عـادت إلى شـقتها نفسـها وعـاد جيلـبر إلى مدرسـته ذاتهـا. حتـى صديقاتهـا وعائلتهـا ومـصر الرسـمية ومعارفهـا في الدوائـر الحكوميـة عاملوهـا وكأن شـيئًا لم يكـن. يتذكـر ابنهـا جيلـبر ذلـك،

فيقـول: «كان ذلـك غريبًـا جـدًا. والأغـرب مـن ذلـك – أنـه لم يكـن هنـاك أحـد قـد رأى أن الأمـر غريـب». لكـن يولانـدا كانـت تعيـش في الوقـت بـدل الضائـع، لأنهـا كانـت بالفعـل متهمـة بالتجسـس. كان المصريـون عـلى علـم أيضًـا بـأن يولانـدا قـد عملـت في باريـس ضمـن وفـد إسرائيـل إلى الأمـم المتحـدة، لكنهـا تجاهلـت المخاطـر وواصلـت نشـاطاتها السريـة. كان لديهـا جهـاز إرسـال قـد وفرتـه لهـا الاسـتخبارات الإسرائيليـة، هـي لم تسـتخدمه لأنهـا لم تكـن تعـرف كيفيـة تشـغيله، ولذلـك كانـت ترسـل تقاريرهـا إلى عنـوانٍ سري في باريـس.

هنـاك مـن يزعمـون أنهـا عـادت إلى القاهـرة بتوجيـه مـن «داعـت»، قسـم الاسـتخبارات في وزارة الخارجيـة الـذي كان قبـل الموسـاد. حيـث رآهـا أحـد أفـراد الوحـدة، الـذي سبق لـه العمـل في مـصر، وهـو إلياهـو براخـا، في أحـد المطاعـم بصحبـة رئيـس الاسـتخبارات في القاهـرة «شوشـة بيـه» واثنـين آخريـن مـن مسـاعديه الكبـار. لقـد شـعر بالذعـر – هـل تـم إلقـاء القبـض عليهـا؟ لكنهـا نهضـت إلى دورة الميـاه، ومـرت بجـوار طاولـة براخـا، وأسـقطت مـن يدهـا منديـلا. كان عـلى المنديـل ملاحظـة برقـم هاتـف. أعـاد لهـا المنديـل وهاتَفهـا مسـاءً. ثـم التقـوا سرًّا لمـدة سـاعة كاملـة، وسـلمته تقريـرًا مفصـلا عـن المعلومـات التـي حصلـت عليهـا خـلال لقاءاتهـا. وعندمـا علمـت أن ناشـط «الهاغانـا» السـابق شـمعون عنتـابي ينـوي مغـادرة مـصر، أتـت إلى بيتـه وأحـضرت لـه أنبـوب معجـون أسـنان بداخلـه أوراق، وقالـت لـه: «عندمـا تصعـد عـلى ظهـر السـفينة، سـلم الأنبـوب للقبطـان، وهـو

سيعرف بالفعل لمن سيوصله».

استمر هذا الوضع الغريب حتى عام 1951م. أدركت يولاندا أخيرًا أن الفصل المصري من حياتها قد انتهى، وبدا كأن قلبها قد تنبأ بالمستقبل الذي ينتظرها. لذلك غادرت.

وفي إسرائيل (فلسطين المحتلة) لم يكن من الممكن لها استخدام مهاراتها. لقد حصلت على وظيفة طبعًا في وزارة الخارجية، لكن تم تعيينها في منصب هامشي في قسم المراسم. كان يتم من حين لآخر إرسالها إلى أوروبا في مهمات قصيرة لصالح «داعت»، الدائرة السياسية التي كانت عمليًّا هي منظمة الاستخبارات في وزارة الخارجية. في وقت لاحق تم تفكيك «داعت» وإنشاء «الموساد»، والذي ترأسه صديقها القديم رؤوفين شيلواح. لكن شيلواح نادرًا ما طلب خدماتها واكتفى بإرسالها في بعض المهمات السرية خلال فترات متباعدة.

لقد كانت سعيدة عندما زارت باريس. ففي أحد الأيام كانت تخرج لتناول الغداء مع صديقها رئيس الحكومة الفرنسية السابق بيير منديس فرانس، وفي يوم آخر مع السياسي رينيه ماير، وفي يوم ثالث مع مجموعة من الدبلوماسيين المصريين. لكن عندما عادت إلى إسرائيل، لم تندمج يولاندا بالحياة الاجتماعية لوزارة الخارجية. تقول إحدى زميلاتها في العمل: «الحقيقة أنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بها في الوزارة، فهي لم تكن من أولئك الموظفات اللواتي يمكنهن الجلوس على مكاتبهن من الساعة

7:30 صباحًا وحتى 4:00 عصرًا. كانوا يعرفون أنهم مدينون لها بالكثير، لكن لم يعرفوا ماذا يفعلون لها».

كان لباسها وسلوكها أيضًا يزعج عمال الوزارة، حيث قال الموظفون الذين لم يحبوها ساخرين من عاداتها الأوروبية: «إنها ليست مثلنا». ويقول عنها الدبلوماسي دان سيجري: «لقد كانت مغنجة بينما كانت الفتيات الإسرائيليات يرتدين السراويل القصيرة. وكانت أنيقة في دولة كانت تعتبر الأناقة انحطاطًا. كانت ناعمة ولطيفة في مكان كان أفراده يتسمون بالقسوة».

في غضون ذلك، تقاعد رؤوفين شيلواح من إدارة «الموساد» وعين مكانه إيسر هاريل (هالبرين)، والذي كان مقربوه يطلقون عليه «إيسر الصغير» بسبب قصر قامته. لم يكن إيسر من المجموعة التي زارت القاهرة وعرفت يولاندا جيدًا، وبذلك لم يعد بحاجةٍ إلى خدماتها. لقد عانت بشدة من وضعها جانبًا، وتلوع قلبها من الألم وخيبة الأمل بأصدقائها وقادتها من أيام القاهرة الذين يبدو أنهم قد نسوها. عاشت يولاندا وحيدةً مع ابنها وأمها في القدس، وكانت شقيقتها الوحيدة تعيش في أستراليا. كانت يولاندا تتوق للحصول على رتبة دبلوماسية على الأقل. لكن حتى هذه رفضت وزارة الخارجية منحها إياها. وحتى عندما مرضت ورقدت على فراش الموت في المستشفى، عارض المسؤولون منحها الرتبة بزعم أنها «قد تطالب بمعاش تقاعدي...»، لكن تدخل بعض الشخصيات البارزة جعل مسؤولي الوزارة يتنازلون ويمنحونها الرتبة.

أصيبت يولانـدا بمـرض السرطـان وتوفيـت عـام 1957م، بعمـر 44 فقـط.

أصبح ابـن يولانـدا، جيلبر مليونـيرًا، ورجـل أعـمال ناجـح، وقـد تـبرع بأمـوال كثيرةٍ للدولـة ولمؤسسـاتها. وأصبحـت حفيدتهـا ميـل مغنيةً مشـهورة، بينـما أصبـح حفيدهـا، آلان دي بوتـون، واحـدًا مـن كبـار الدبلوماسـيين في العـالم. تـم الاحتفـاء بشـخصية يولانـدا، الغامضـة والفاتنـة، وسُـمّيت إحـدى سـاحات حـي القطمـون في القـدس باسـمها. كـما قـام المخـرج دان فولمـان بصنـع فيلـم وثائقـي تخليـدًا لذكـرى يولانـدا، حمـل اسـم «البطلـة التـي لم تحـظ بالاعـتراف».

(5)

شولا: الاسم الرمزي «اللؤلؤة»

عـام 1947م، عندما جلبت يولانـدا خطـط الغـزو لديفيـد بـن جوريـون ورؤوفـين شـيلواح، أحسـت مـن خـلال الأسـئلة التـي طرحوهـا عليهـا أن لديهـم مصـدر معلومـاتٍ آخـر في لبنـان أو سـوريا. سـألتهم إن كان لديهـم مصـدر معلومـاتٍ آخـر، ولكنهـم صمتـوا، وبقـي سـؤال يولانـدا بـدون إجابـة.

نعم، كان لديهم.

* * *

شـابةٌ زرقـاء العينـين. وسـيمةٌ وأنيقـة، إضافـة إلى كونهـا أُمًّـا لخمسـة أولاد. هكـذا كانـت شـولا كوهـين، التـي وقفـت في متجـر زوجهـا «جوزيـف كشـك» وقـد اكتنفهـا الملـل. تتسـلى بالإنصـات للمحادثـة الصاخبـة التـي كانـت تـدور بـين تاجريـن عربيـين دخـلا للتـو. كان ذلـك عـام 1947م في العاصمـة اللبنانيـة بـيروت. كان إعـلان قيـام دولـة إسرائيل قد أصبح وشيكًا،

وقد تبادل التاجران معلوماتٍ مهمةً حول الاستعدادات لاقتحام أرض فلسطين من الشمال. تحدثا عن تجنيد مقاتلي عصاباتٍ من القرى القريبة من حدود إسرائيل المستقبلية، وعن خططٍ لاقتحام الجليل انطلاقًا من الأراضي اللبنانية والسورية. كان ما قالاه ذا أهمية كبيرة. ارتجفت شولا عند سماعها لتلك المحادثة، ورأت في مخيلتها النيران وهي تلتهم إسرائيل. كانت هذه هي المرة الأولى في حياتها التي تشعر فيها بقلق حقيقي على مصير إسرائيل. قالت لزوجها: «علينا أن نفعل شيئًا يا جوزيف. يجب تحذير رجال الأمن في إسرائيل». رضخ جوزيف، تاجر الأقمشة اللبناني الثري، وقال: «أنا أعرف مهرّبًا عربيًا من قرية العديسة، وهو صديق لنا. يمكن إرسال رسالة عن طريقه».

سارعت شولا بكتابة رسالة، شرحت فيها كل ما سمعته. وقد كتبت تقريرها بأسلوب سريّ كانت قد تعلمته عندما كانت منضمة لحركة الكشافة في إسرائيل. وأخفتها ضمن رسالة يفترض أنها بريئة، للاطمئنان على صحة قريبتها المريضة في القدس. وبحسب تعليمات زوجها، أوصل المهرب الرسالة إلى عنوان محدد في المطلة.

هل ستتلقى ردًّا؟ كان إرسال الرسالة خطوة مصيرية بالنسبة للمرأة الشابة. فجأة أصبح لديها هدف سامٍ هو مساعدة إسرائيل الوليدة. ورغم أنها كانت تعيش في لبنان، وكانت تسمى «أم إبراهيم» نسبة إلى ابنها البكر إبراهيم، إلا أنها شعرت بأنها إسرائيلية وملتزمة بشدة تجاه إسرائيل.

كانت شولاميت كوهين الابنة الرابعة من بين 12 ابنا لمئير وأليجرا أرزي كوهين. ولدت عام 1917م في الأرجنتين، حيث كانت أعمال والدها اليهودي المقدسي. لم تكن والدتها تحب الأرجنتين، فعادت العائلة إلى أرض فلسطين، لكن والدها كان يضطر لقضاء أشهرٍ عديدة كل عام في أمريكا الجنوبية لمتابعة أعماله. وفي كل مرة يسافر فيها كان يصطحب معه أحد أبنائه؛ ليمكث معه في بوينس آيرس ويؤنسه في وحدته. عادت شولا معه إلى الأرجنتين أيضًا لمدة عام، حيث تعلمت اللغة والأغاني وأسلوب الحياة الأرجنتيني الخاص، إضافة إلى رقصة «التانغو» الأرجنتينية التقليدية.

ومع ذلك، فقد نشأت في القدس، وتعلمت في المدرسة المرموقة إيفلينا دي روتشيلد للبنات. وبرزت في شبابها كامرأة شابة مميزة للغاية. جميلة وذكية وعملية، ولكن بروح الدعابة، إضافة إلى كونها دودة كتب. كانت تتكلم العبرية والعربية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية. شاركت في دروس الدراما وكانت تهوى غناء ألحان الحب الأرجنتينية التي اكتشفتها خلال السنة التي قضتها مع والدها في بوينس آيرس. وكان مظهرها الخارجي مهمًّا جدًّا بالنسبة لها – فساتين عصرية أنيقة ومجوهراتٌ باهظة الثمن، تصفيف الشعر وطلاء الأظافر، حقائب وأحذية متناسقة. كانت تتمتع أيضًا بقليل من حب المغامرة دون أن تدرك ذلك، كما كانت تلك الفتاة المشوقة القامة زرقاء العينين تمتلك سحرًا شخصيًّا فريدًا من نوعه. سحرٌ أثار إعجاب أبناء وبنات جيلها وأسفر عن علاقات صداقة

وثيقة. لقد كانت تقيم العلاقات بسهولة شديدة وحصلت على الكثير من الأصدقاء.

كانت الفتاة في القدس سعيدة للغاية، إلى أن تلقت صدمةً قوية. ففي سن السادسة عشر قرر والداها تزويجها لتاجرٍ يهوديّ لبناني ثري يدعى «جوزيف كشك». كان عمره ضعف عمرها. جاء كشك وعائلته من بيروت إلى القدس، وأعلن والداها خطبتها على الملأ. كانت مستاءة ومحطمة بسبب «بيعها» لقاء المهر، لكنها في تلك الأيام لم تكن تستطيع فعل شيء. وقد قالت لاحقًا: «لم أبك في حياتي كما بكيت في تلك الليلة، كنت في السادسة عشر من عمري، وكانت لدي أحلام الفتيات...». كانت القدس بالنسبة لها «سقف العالم، والمكان الأقرب إلى السماء»، وقد شعرت بأنها تسقط منه.

بقيت الفتاة بائسةً في مراسم زفافها وعند وصولها إلى بيروت، على الرغم من الحياة الجميلة التي كانت تنتظرها. منزل واسع جميل. خدم وجاريات. مكانة محترمة جدًّا وسط الطائفة اليهودية، التي كانت تتركز في منطقة وادي أبو جميل. لكن معاناتها خفّت مع مرور الزمن، عندما وجدت أن زوجها إنسانٌ محب وكريم، احترمها وعاملها كملكة. لقد فعل كل شيء ليجعلها سعيدة، وكان يدفع ثمن ملابسها الغالية دون أن يرف له جفن، حتى أنه اشترى لها أيضًا دبوسا جميلا من الألماس حسدتها عليه كل نساء عصرها - «غادة الكاميليا». ومع ذلك، كان منغمسًا في أعماله وشؤون الطائفة. أنجبت شولا سبعة أطفال على مدار

15 عامًا، لكن رعاية الأطفال لم تكن لترضي تلك الفتاة الذكية المتعلمة، بل حتى قراءة الكثير من الكتب لم تساعدها أيضًا. لقد كانت بحاجة إلى هدف في الحياة. تحد يمكن لروحها المضطربة أن تواجهه.

وصلت الرسالة التي سلمتها للمهرب العربي عام 1947م إلى قيادة «الهاغانا» في تل أبيب، ولم تمض بضعة أسابيع حتى زارها في بيتها شخصٌ عربيٌّ مجهول، قدم نفسه باسم «شكري موسى»، أبلغها بأنه تم استلام رسالتها وكلفها بالمهمة الأولى نيابة عن «أولئك الذين راسلتهم»: إنزال راكبٍ يدعى فينكلر من السفينة «ترانسيلفانيا» التي توشك أن ترسو في ميناء بيروت في اليوم التالي وتهريبه إلى فلسطين. انضمت إلى المهمة على الفور. وبناء على نصيحة زوجها، جندت لمساعدتها يهوديًّا ذو علاقات متشعبة يدعى أبو جاك. قام هذا الرجل باستخدام علاقاته المشبوهة في الميناء. ومقابل 800 ليرة لبنانية – دفعها جوزيف من جيبه – حدد أصدقاء أبو جاك مكان فينكلر على السفينة، وأنزلوه إلى الشاطئ دون أي معاناة، وخلال ساعات تم تهريبه إلى فلسطين. تكللت العملية الأولى لشولا بالنجاح وملأتها بالفخر والرضى وشعرت أنها أخيرًا تفعل شيئًا ذا قيمة، غير إنجاب الأولاد. في اليوم التالي جاء شكري موسى مرة أخرى إلى بيتها وهنأها على العملية الناجحة، وأضاف: «الأشخاص في البلاد يستفسرون فيما إذا كنت على استعداد لمواصلة العمل لصالحهم. إنهم يريدون مقابلتك في فلسطين. أنا سأهربك عبر الحدود».

وافقت بقلب خافق. وقررت الخروج في اليوم التالي، يوم الاثنين،

لأنها مضطرة للعودة يوم الأربعاء لتجهيز المنزل لعشاء السبت، فيما قامت جارتها المخلصة «ليندا بالانجا» بالعناية بالأطفال دون أن تطرح أي أسئلة. وكعادتها، مرت شولا أولا على صالون الحلاقة، ولبست حذاء مسطحًا لعبور التلال التي على الحدود، وارتدت معطفًا عريضًا يُخفي حَملها المتقدم. وفي المساء استقلت سيارة إلى نقطة اللقاء بالقرب من الحدود. ومع حلول الظلام ظهر بجانبها عدد من المهربين الذين كانت مهمتهم إيصالها إلى فلسطين. كان المسير مرهقًا، وتغلغل البرد القارس إلى عظامها. كانت هذه أول مرةٍ تشعر فيها بالخوف من الدوريات العسكرية في المنطقة، لكنها كانت مصممةً على الوصول إلى البلاد، فاجتازت الحدود بمساعدة المهربين. ووصلت إلى فندق «أرزيم» في المطلة، حيث قابلت جريشا، العضو في كيبوتس «كفار جلعادي»، والذي أجرى معها تحقيقًا أوليًّا سريعًا. ومباشرة بعد ذلك اصطحبها بعض العناصر الشابة من «الهاغانا» إلى «كريات حاييم»، وفي الطريق رأت بحيرة طبرية لأول مرة.

وصلت في وقتٍ متأخرٍ من الليل إلى مكتب صغير في مبنًى سكني في «كريات حاييم»، والتقت هناك بعنصري استخبارات من «الهاغانا»، أجريا معها تحقيقًا دقيقًا حول أعمالها وأسلوب حياتها في بيروت. كانا يسألانها بإسهاب عن خطط الغزو العسكري لقوات «القاوقجي» التي ذكرتها في رسالتها، وطلبا منها تكرار كل كلمة سمعتها عن الهجوم الوشيك. قال لها أحدهما أنهم قد أرسلوا بالفعل نسخة من الرسالة إلى هيئة الأركان العامة. وما إن انتهى الحديث عن عملية الغزو، حتى أخذا

يسألانها أسئلة شخصية: كيف تسير حياتها في بيروت، ومن هم أقرباؤها في أرض فلسطين، ومن هم أقرباؤها وأصدقاؤها في بيروت. كما أرادا معرفة طبيعة علاقاتها بالمجتمعات المسلمة والمسيحية في لبنان.

تحدثت بحماس عن توقها لمساعدة إسرائيل، فيما أكد محاوراها على خطورة العمل السري لصالح إسرائيل.

قال لها أحد المحققين، ويدعى تشيربينسكي: «هل من الواضح لك أنه إذا ما شاركت لبنان في الحرب ضدنا عند إعلان قيام الدولة، وألقوا القبض عليك، أنك ستحاكمين كخائنة؟».

«نعم».

«وهل ما زلت على استعداد للمساعدة؟».

«نعم».

بسط لها أهداف التجسس في لبنان - أخبار عن الجيش اللبناني، وعن العصابات التي تنوي مهاجمة إسرائيل. قواعدها ومعسكرات التدريب التابعة لها. كما اتفق معها على طرق التواصل السرية، ووعد بتغطية النفقات التي ستتكبدها في أنشطتها اليومية، وعرض عليها راتبًا.

أوقفته وقالت: «لا، زوجي يعطيني كل ما أحتاجه». ووافقت فقط على تغطية نفقاتها من خلال دفعات يتم تسليمها إلى عائلتها في القدس.

هكـذا انضمـت شـولا إلى الإطـار الاسـتخباراتي للدولـة، التـي لم تكـن قـد قامـت بعـد. دون تجنيـد رسـمي، ودون أي دورة، بـل ودون توجيهـاتٍ واضحـةٍ أو أهـدافٍ محـددة.

في صبـاح اليـوم التـالي عـادت شـولا إلى المطلـة، وقـام شـكري موسـى مـرة أخـرى بتأمـين عبورهـا للحـدود. وفي صبـاح يـوم الأربعـاء كانـت بالفعل في بـيروت، وفي طريقهـا إلى المنـزل قامـت بالتسـوق المعتـاد ليـوم السـبت. وفي غرفتهـا وجـدت هديـةً مـن زوجهـا - بدلـة كروشـيه مـن صـوف الأنجـورا (الموهـير) الفـضي، كانـت قـد اشـتهتها عندمـا رأتهـا في إحـدى واجهـات العـرض. كانـت هـذه طريقـة جوزيـف في تهنئتهـا عنـد عودتهـا إلى المنـزل.

سـخرت شـولا نفسـها لتنفيـذ مهمتـين: الأولى هـي الحصـول عـلى معلومـاتٍ اسـتخباراتيةٍ حيويـة ونقلهـا إلى إسرائيـل، والثانيـة هـي تهريـب اليهـود مـن لبنـان وسـوريا إلى أرض فلسـطين. لاحقًـا قالـت: «لم يجنـدني أحـد في أجهـزة الاسـتخبارات الإسرائيليـة. أنـا جنـدت نفسـي».

* * *

في 14 مايو/ أيـار مـن عـام 1948م، سـمعت شـولا عـبر الراديـو صـوت بـن جوريـون وهـو يتلـو إعـلان قيـام دولـة إسرائيـل. لقـد فعلـت كل مـا بوسـعها خـلال حـرب الاسـتقلال مـن أجـل تزويـد الإسرائيليـين بالمعلومـات الاسـتخباراتية الموثقـة، لكـن معظـم جهودهـا تركـزت عـلى تهريـب آلاف اليهـود إلى أرض فلسـطين. في السـنوات الأولى مـن أنشـطتها كان عليهـا أن

تبادر وتخطط بنفسها جزءًا كبيرًا من مهماتها وأساليب عملها، بدون أي منظمةٍ تقف وراءها. وبمساعدة شبكة من المهربين الذين عملوا معها مقابل مبالغ ماليةٍ ضخمة، نقلت شولا آلاف المهاجرين من دول الشرق الأوسط إلى أرض فلسطين. كما أرسلت مع المهربين أيضًا ابنيها الكبيرين، أفراهام ومئير. كانت أعمارهما عشرة وسبعة سنوات على التوالي. تحدثا وصرخا أثناء الرحلة، وكانا على وشك أن يُعرّضا عملية التهريب للخطر. سقاهما أحد المهربين العرب ملاعق من «العرق الزحلاوي»، فغرق كلاهما في النوم وانتهت العملية بسلام. كانت العملية مهمةً بالنسبة لشولا لكي ينشأ أبناؤها في البلاد، كما غادرت ابنتها الكبرى يافا في وقت لاحق إلى أرض فلسطين على متن رحلة جوية عبر تركيا.

* * *

بعد سنوات من التهريب عبر الحدود البرية، تغيّر الوضع. ففي منتصف الخمسينيات، مارس الرئيس المصري عبد الناصر ضغوطًا شديدةً على لبنان لتعزيز الحراسة وحماية الحدود من أجل منع عمليات التهريب إلى أرض فلسطين. بحثت شولا ووجدت طريقًا آخر - طريق البحر. كانت تُرسل عشرات المهاجرين في قوارب الصيد لتنقلهم إلى سفن إسرائيلية في عرض البحر، وبدورها كانت تلك السفن تشق طريقها إلى حيفا أو نهاريا. تم اعتقالها ذات مرة عندما نجح رجال الأمن في إلقاء القبض على أحد قوارب الصيد، ورصدوها أثناء قيامها بإدارة العملية على الشاطئ، حيث تمت محاكمتها وسجنها لمدة 38 يومًا، لكن

ما إن أطلق سراحها بمساعدة من أصدقائها في المناصب العليا، حتى عادت فورًا إلى سابق عهدها. ربما تكون هذه هي الميزة الفريدة التي كانت تمتلكها: على الرغم من اعتقالها لأكثر من مرة كانت دائما تستأنف أنشطتها.

وبالتزامن مع أنشطتها كمنسقةٍ للهجرة من لبنان، عملت شولا في جمع المعلومات الاستخباراتية. وقد بدأت شبكة العلاقات التي من شأنها أن تسمح لها بالحصول على المعلومات الاستخباراتية تتشكل بالصدفة تقريبًا. ففي أحد الأيام، بينما كانت تسير بجوار نادي «مكابي» في الحي، سمعت الأولاد يتعلمون غناء «شجرة الرمان» ويواجهون صعوبة في نطق الكلمات العبرية. فما كان منها إلا أن دخلت النادي وعلمت المكابيين الصياغة الصحيحة، وبدأت بعد ذلك تظهر بانتظام في النادي والمدرسة اليهودية، وساعدت في تعليم اللغة العبرية. ومع نهاية العام الدراسي، أرسلتها المدرسة إلى رئيس الحكومة رياض الصلح لتطلب منه رعاية حفل نهاية العام كما في السنوات السابقة. لبست شولا أفضل ملابسها وتوجّهت إلى مكتب رئيس الحكومة. إلا أن سكرتيره أوقفها بازدراء، وحاول طردها وإخراجها بخفي حنين. لكن في تلك اللحظة خرج الصلح من مكتبه ورآها، فدعاها للحديث ووافق على طلبها فورًا. لقد أعجب كثيرًا بمظهرها وحديثها، لدرجة أنه دعاها في نهاية المحادثة إلى منزله. حيث التقت بزوجته وبناته الثلاثة، وكانت أصغرهن هدى في نفس عمرها، فنشأت بينهما علاقةٌ دافئة. ومنذ ذلك اليوم بدأ الصلح

يدعوها إلى المراسم والاحتفالات الرسمية، وهناك احتكت بجميع القادة والنخب السياسية والعسكرية في لبنان. وهكذا فُتحت أمامها أبواب دوائر الحكم.

قالت شولا لاحقًا لابنها إسحاق (إيتسيك) لفنون: «لا يوجد أحد في العالم لا يمكن الوصول إليه». وهي حقًّا قد وصلت إلى الجميع – أعضاء برلمان، وزراء، ضباط كبار. ويذكر إيتسيك جيدًا باقة الورد الضخمة التي تلقاها في حفل «بار متسفا»[1] من قبل الرئيس اللبناني كميل شمعون، وكذلك زيارته إلى منزل رئيس الجمهورية. كما سحرت شولا صديقًا آخر، وهو بيير الجميل، رئيس «الكتائب»، الميليشيا المسيحية اللبنانية. كان بيير الجميل والد الرئيسين اللبنانيين المستقبليين بشير، الذي سيُقتل بعد أيام قليلة من انتخابه، وشقيقه أمين. ومع ذلك فقد طورت شولا إلى جانبهم أيضًا علاقاتٍ مع «ملك قطاع الطرق»، أو كما يلقبه آخرون «بارون العصابات»، بولس ياسين، الذي كان يسيطر على الكازينوهات والنوادي الليلية، والدعارة، وتهريب المخدرات والذهب. كان الكثير من العامة يكرهونه، والأكثر يخافون منه. لكن شولا لم تتردد في التواصل معه، أو الظهور إلى جانبه في المناسبات العامة في الكازينو، طالما أنه يساعدها في تهريب المهاجرين إلى فلسطين ويوفر لها درع حصانةٍ على أفعالها، وذلك ليس مقابل مالها فقط، بل أيضًا نظير قدراتها كمترجمة

(1) بار متسفا: طقس يهودي ديني حيث يجري إقامة حفل للطفل اليهودي عند بلوغه سن الثالثة عشر، ويعتبر حينها مكلفًا بجميع الفرائض الدينية اليهودية

ساعدته في الرسائل واستضافة الأجانب. وكثيرًا ما كان يدعو شولا إلى الحفلات الفاتنة التي كان يقيمها، حيث كانت تقف بجانبه وتستقبل الضيوف المهمين.

تشعبت علاقات شولا كوهين وأصبحت أقوى بعد حرب 48 وقيام دولة إسرائيل، وأضحت مصدر معلومات استخباراتية مُهـمًّا وقيـمًا. وفي عام 1950م وصل أحد أبرز جواسيس إسرائيل سامي موريه إلى بيروت في طريقه إلى دمشق. حيث وضع روحه على كفه وتوجه مباشرة إلى قيادة منظمة الأمن الداخلي - جهاز الأمن اللبناني. وقدم نفسه بهويته المستعارة - رجل أعمال إيراني، وطلب مقابلة رئيس الجهاز من أجل «مسألة بالغة الأهمية ومستعجلة جدًّا». فوافق رئيس الجهاز فريد شهاب على مقابلته. وما إن دخل موريه إلى مكتب شهاب الخاص حتى قال له: «أنا أحمل سلامًا خاصًا لك من روبيرت لوستيج». شحب وجه شهاب وبدأ يرتجف. كان موريه يعلم أن شهاب قد خدم سابقًا في لجنة الهدنة بين لبنان وإسرائيل، التي عقدت بعض جلساتها في تل أبيب. وهناك التقى شهاب بضابط الشرطة الإسرائيلي لوستيج، وكانا يخرجان معا لقضاء ليال جريئة ومشكوك فيها. قال لنا موريه: «لقد أمضوا أوقاتًا معًا في جميع أنواع الأماكن، وقاموا بأشياء لا يمكن نشرها».

يبدو أن شهاب كان يخشى من أن يؤدي نشر أي شيءٍ عن تلك الأوقات إلى نهاية مسيرته. سأله بقلق: «هل تعرف لوستيج؟ هل أنت

قـادم مـن تـل أبيـب؟ أأنـت إسرائيـلي؟» أجـاب موريـه بالإيجاب عـلى جميـع الأسـئلة، ثـم جـاء دوره ليسـأل: «أيـن الحـي اليهـودي هنـا؟»

«لماذا تسأل؟»

«لدي أقرباء في بيروت، من المؤكد أنهم يقطنون هناك».

ابتسم شهاب بتكلف: «هراء، أنت تريد الذهاب إلى شولا».

التزم موريه الصمت.

فنصحه شـهاب: «لا تذهـب إلى هنـاك في سـاعات النهـار. اذهـب إليهـا ليـلا، ذلـك أكثـر أمنًـا». ثـم قـدم لـه بعـض النصائـح العملية قبـل أن يفترقـا. وفي طريقـه إلى وادي أبـو جميـل كانـت هنـاك أفـكار كثـيرة تـدور في رأس موريـه، فرئيـس جهـاز الأمـن يعـرف شـولا كوهـين أيضًـا. لا يعرفهـا فقـط، بـل يحـاول أن يحميهـا هـي ورجـل الاسـتخبارات الإسرائيـلي. قـام موريـه بزيـارة شـولا وحصـل منهـا عـلى المعلومـات المطلوبـة ثـم غـادر لبنـان بهـدوء.

❊ ❊ ❊

كثـيرا مـا قامـت شـولا بزيـارات خاطفـة إلى إسرائيـل، فقـد كان مشـغلوها، عنـاصر الاسـتخبارات العسـكرية، يسـتدعونها إلى المطلـة، وكانـت تعـبر الحـدود بمسـاعدة بعـض المهربـين الموثوقـين الذيـن عملـوا معهـا طـوال الوقـت. وهنـاك كانـوا يوصلونهـا إلى «القشـلة» – السـجن التركـي القديـم في سـاحة السـاعة في يافـا، حيـث كان مقـر قيـادة الوحـدة 504 في الجيـش

الإسرائيلي، المسؤولة عن الجواسيس والعملاء في أراضي العدو. لم يشعر الأطفال بسفراتها، إذ كان يتم التستر عن غيابها لعدة ساعات بمساعدة صديقتها المقربة ليندا بالانجا. كان ابنها إيتسيك لفنون مستعدًا أن يقسم – في وقت لاحق – أن والدته لم تغب أو تسافر.

في إحدى الرحلات تم إحضارها إلى «البيت الأخضر» في يافا، وهو منزلٌ رائعٌ محاطٌ بسورٍ عال. كان سابقًا بيت تاجرٍ عربي ثري هرب أثناء الحرب. ويستخدم البناء حاليا كمقر قيادة الاستخبارات العسكرية. صعدت إلى الطابق الثاني، وقابلت في إحدى الغرف رئيس هيئة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي، بنيامين جيبلي شخصيًّا، حيث أجرى هو ومعاونه حديثًا مطولا معها. هنا شعرت ولأول مرة أنها تعمل ضمن منظمة رسمية، لكنها لم تكن تعلم أن ذلك كان لفترة قصيرة فقط. شكرها جيبلي على عملها، لكنه حذرها من أن إسرائيل رسميًّا في حالة حرب مع لبنان، وأنه إذا ما تم اكتشافها – فسيكون مصيرها الإعدام.

لم يكن الخطر ليوقفها. طلب منها جيبلي في هذه الرحلة جمع معلومات استخباراتية، وخصوصًا عن الشرطة والجيش السوريين، فقد كانوا يشكلون خطرًا أكبر من اللبنانيين. كما قام جيبلي ومعاونه بإعطاء شولا حبرًا سريًّا مع تعليمات حول كيفية الاستخدام، إضافة إلى شيفرة للمراسلة. كذلك مُنحت اسما رمزيًّا في تلك الرحلة: «اللؤلؤة».

أنشأت شولا في بيروت شبكةً حقيقية، مع العديد من المخبرين

في الأوساط العسكرية والمدنية، الذين كانوا يزودونها بالمعلومات الهامة مقابل المال. وكان مشغلوها الإسرائيليون يرسلون لها التعليمات بطرقٍ مختلفة. فقد أحضر لها شكري موسى أكثر من مرة رسائل بريئة المظهر مكتوبةً بالحبر السري تتضمن تعليمات واستفسارات. وفي كثير من الأحيان كانوا يتصلون بها من صيدلية الحي التابعة لشلومو عيدوت ويخبرونها بأن «الدواء جاهز»، فكانت شولا ترسل أحد الأولاد ليجلب لها الدواء الغالي الذي جاء لها من الخارج.

كانت الرسائل الواردة من إسرائيل تكتب بالحبر السري على بطاقة «تعليمات الاستخدام» الملصقة على عبوات الأدوية. وكانت هناك طريقةٌ أخرى: كانت عائلة كوهين-كشك بأكملها تجتمع ظهيرة كل يوم جمعة حول مائدة تزخر بما لذّ وطاب لتناول وجبة احتفالية، وكانت شولا تشغل الراديو ويستمع الجميع بصمتٍ تام لبرنامج «أغاني عبرية» على إذاعة «صوت إسرائيل»، حيث يمنع منعًا باتًّا النطق بكلمة أثناء البث. ولم يكتشف إيتسيك لفنون إلا بعد سنوات أن التعليمات كانت كثيرًا ما تذاع لوالدته في نفس البرنامج الغنائي على إذاعة «صوت إسرائيل».

كانت غالبًا ما تتشاور مع زوجها في عملياتها ونشاطاتها، وكثيرًا ما قدم لها المساعدة. فمثلا عندما كانت تبحث عن عذر للسفر إلى إسطنبول، اقترح عليها أن تذهب إلى التاجر المورد له في سوق إسطنبول وتطلب منه العينات الجديدة من التطريز والدانتيل التي أعدّها. لقد كان يعاملها باحترامٍ كبير، وعندما لم تكن تشاركه المعلومات كان يتجنب

سؤالها عن وجهتها ومع من ستلتقي. لكنه حاول أكثر من مرة أن يتمرد ويعيد «النظام» إلى بيته، أو يشتكي من عدم تواجدها في المنزل بما فيه الكفاية، وأن الأطفال لا يرون أمهم، وأن معظم الوجبات تعدها الجارة، وغير ذلك. في النهاية، هو كان أحد أعمدة الطائفة وكان يعلم أنهم يتحدثون عنه وعن زوجته من وراء ظهرهما. لكن شولا واجهته بحزم وأبلغته بصراحة أن هذه هي حياتها وأنها ستستمر على هذا المنوال. في نهاية الأمر استسلم جوزيف الطيب، وعندما كان يعود إلى المنزل في نهاية اليوم كان يسألها: «حسنًا، شولا، هل عليّ أن آخذ مهدئًّا قبل أن تروي لي ماذا فعلت اليوم؟»

* * *

حجزت شولا لنفسها تدريجيًّا مكانةً خاصةً وسط الطبقة الراقية في بيروت. كان المجتمع اللبناني، في معظمه، لا يزال مجتمعًا عربيًّا تقليديًّا، رغم كل التقدم والتحديث الذي اجتاح لبنان خلال فترة الانتداب الفرنسي. كان مكان المرأة في البيت وفي المطبخ ومع الأطفال. ولم يكن اللبنانيون معتادون على الوقوف أمام امرأة جميلة وأنيقة، تتحدث معهم بِحُرّيةٍ وتدخن السجائر علانية (!) ففتنتهم بسلوكها وبكلماتها. لقد تم أسرهم بسهولة من خلال سحرها ووقع بعضهم أيضًا في حبها، لكن لم الأمر يقتصر على ذلك، فقد كانت امرأةً ثرية أيضًا، وكانت على استعدادٍ لدفع الكثير من النقود مقابل المعلومات السياسية والعسكرية. انتشرت الشائعات سرًّا، وتم إغراء عدد غير قليل من كبار الضباط والمسؤولين ليصبحوا مخبرين وعملاء لشولا.

حتى بالنسبة لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية كانت شولا فريدةً من نوعها، فهي لم يتم إرسالها إلى البلد الهدف متخفية وبهوية مزورة، ولم تضطر للعب أدوارٍ مركبة لتناسب تخفيها. الجميع كان يعرفها، كما كانوا يعرفون أنها يهودية جاءت من القدس، وأن لها عائلةً هناك أيضًا. تعقبوها أكثر من مرة، واستجوبوها وحققوا معها، لكنها لم تنكسر واستمرت، بجرأة تقترب من الوقاحة والمخاطرة الذاتية.

ما بدأ بلاجئ وحيد أصبح عملا منظمًا ومكثفًا: تهريب اليهود إلى إسرائيل. لقد جاؤوا من تركيا وسوريا، ومن لبنان نفسها. حرصت دائمًا على إيواء المجموعات في الكنيس وفي بيوت أعضاء من الطائفة وحتى في بيتها. قامت بتجنيد حافلات لنقلهم إلى مقربة من الحدود، كما جنّدت العديد من المهربين ذوي الخبرة، والذين نقلوا المهاجرين عبر الحدود. كانت أحيانًا ترسل ابنتها كارميلا إلى الهاتف العمومي وتعطيها رقم هاتف وتطلب منها الاتصال وقراءة أرقام لمن هم على الطرف الآخر من الخط: 20... 15... 32... قالت كارميلا لاحقًا: «كانت دائمًا أرقام». كانت هذه بالطبع تقارير عن عدد اليهود الذين نقلتهم إلى إسرائيل في ذلك اليوم. أخبر إيتسيك والدته عبر الهاتف: «لقد وصلت البضاعة»، أي أن دفعةً من اليهود قد انطلقت. وقد انقض عليه رجال شرطة المباحث السريّة الذين كانوا يتنصتون على محادثاته باعتباره غنيمةً قيّمة، لكن الفتى برأ نفسه: «أنا أساعد والدي في المتجر، وأخبرت أمي أن البضاعة قد وصلت...».

في عـدة مناسبات، ألقـي القبـض عـلى اليهـود فتـم اللجـوء إلى أسـلوب الرشـوة، حيـث قـام مسـؤولو وضبـاط مراقبـة الحـدود لقـاء مبالـغ ماليـة طائلـة بإتـلاف تقاريرهـم، وتـم إطـلاق سراح المهاجريـن وتوجهـوا ثانيـة نحـو حـدود أرض فلسـطين، فيـما أصـدر مسـؤولون آخـرون جـوازات سـفر حقيقيّـةً تمامًـا للمهاجريـن.

وأحيانـا – كان يجـب الارتجـال. سـيظهر لاحقًـا في الخطـط العمليـة للموسـاد قسـم بعنـوان «حـالات وردود أفعـال». كان يتوجـب عـلى كل محـارب أو محاربـة خـرج في مهمـة أن يجيـب عـلى عـدد مـن الأسـئلة تبـدأ بصيغـة: «مـاذا سـيحدث لـو...؟» بمعنـى، كيـف سـيتصرف فيـما إذا حـدث عطـل كهـذا أو ذاك أو وقـع شيء لم يكـن بالحسـبان – مـاذا سـيفعل حينهـا؟ كيـف سيكون رد فعلـه؟ بالنسـبة لشـولا، يبـدو أن «الحـالات وردود الأفعال» كانـت محفـورة بالفعـل في وعيهـا، ولذلـك عرفـت كيـف ترتجـل حـلا بديـلا لـكل مشـكلة تظهـر فجـأة.

كان هـذا هـو الحـال عندمـا خططـت لتهريـب 70 طفـلا إلى إسرائيـل. كان الجميـع مسـتعدون، حيـث تـم جمـع الأطفـال في الكنيـس الواقـع في الحـي اليهـودي ببـيروت، وكانـت الحافلـة تنتظرهـم عنـد ناصيـة شـارع «جـورج بيكـو» في مدخـل وادي أبـو جميـل. وفجـأة جـاء إلى شـولا رسـولٌ منفعـل مـن «المكابـين»، وقـال لهـا: «اكتشـفوا أمرنـا، يبـدو أن بعـض المحققـين مـن المخابـرات (الأجهـزة الأمنيـة) شـعروا بحركـةٍ غـير عاديـة هنـا، وهـم ينتظـرون عنـد ناصيـة الشـارع بالقـرب مـن الكنيـس. لا يمكـن إرسـال الأطفـال».

كان يجب التصرف بسرعة. أمرت شولا سائق الحافلة بمغادرة المكان والانتظار عند شاطئ البحر، ثم أسرعت إلى محل بقالة حسن وطلبت شراء 75 شمعة ملونة. اندهش الرجل العربي: «من أجل ماذا هذه الكمية الكبيرة؟» فقالت وهي تغادر مسرعة: «للاحتفال بعيد الحانوكا».

ثم أمسكت بالحاخام حسكي الذي كان في طريقه إلى المسلخ للإشراف على الذبح، وأمرته قائلةً: «دع المسلخ وتعال معي، إنها مسألة إنقاذ حياة!»

أدخلته إلى الكنيس وجعلت الأطفال يصطفون في رتلين، ثم أنارت الشموع وأعطت كل طفلٍ شمعةً مضاءة. وقفت هي والحاخام على رأس الرتلين وكل منهما يمسك بشمعةٍ مضاءةٍ أيضًا. قالت للأطفال: «سنذهب في رحلة احتفالا بعيد الحانوكا القادم. نحن بحاجة إلى معجزة حانوكا أخرى. سنسير في الشارع ونغني أغاني الحانوكا التي تعلمناها».

وهذا ما كان. غادر الموكب الكنيس وانطلق على طول الشارع، بينما كان 70 طفلا واثنان كبيران ينشدون بصوت عال أبيات شعر «ماعوز تسور». وقف يهود الحي على النوافذ والشرفات وراقبوا الموكب بدهشة، فما زال هناك أسبوعان لموعد عيد الحانوكا. وبينما كان الأطفال يسيرون، اقترب عدد من المحققين من شولا وسألوها عن الموكب. أجابت شولا: «نقوم برحلة احتفالا بالحانوكا». لم يكن المحققون يعرفون الكثير عن الأعياد اليهودية، لكن عيد الميلاد المسيحي قد اقترب وهم يعرفون أن

العيد اليهودي والمسيحي قريبان من بعضهما. لقد مشوا بضع خطوات أخرى وراء الأطفال المغنين، لكن بعد فترة استداروا وغادروا. وعندما وصل الأطفال إلى الحافلة لم يكن هناك أي أثر لـ «المخابرات». كانت الحافلة تنتظرهم في المكان المحدد فصعد إليها الأطفال ومرت العملية بسلام.

* * *

في إحدى الليالي عند مدخل بيت كشك، ظهر رجلٌ يهوديٌّ مسنٌّ يدعى حاييم مولخو، كان قد ساعد شولا في عمليات التهريب. أخبرها أنّ أحد المهربين قد تم إلقاء القبض عليه من قبل كمين للجيش اللبناني وهو في طريق عودته من إسرائيل، وأن الجنود قد عثروا أثناء التفتيش في أدواته على ورقة كانت مخصصة لشولا. شعرت شولا بالخوف لكنها تظاهرت بالهدوء ورباطة الجأش، ونسقت معه الروايات التي سيقولانها للشرطة إذا ما تم اعتقالهما. وبالفعل تم اعتقال مولخو لدى عودته إلى بيته. ثم في صباح اليوم التالي توقفت أمام منزل عائلة كشك سيارة شرطة بداخلها ضابط وجنديان، ألقوا القبض على شولا واقتادوها إلى مقر التحقيق، وهناك كان بانتظارها ضابط مسيحي-ماروني اسمه جورج أنطون (اسم مستعار)، عاملها بلطف شديد وكان يخاطبها بـ «مدام كوهين». استجوبها لفترة وجيزة ثم أطلق سراحها بعد انقضاء ساعة واحدة، لكنه طلب منها أن تعود وتزوره باستمرار، حتى أصبحت لقاءاتهما عادةً منتظمة. كانت تأتي إليه مرتين أسبوعيًا وهي بكامل زينتها

وشـعرها مصفـف وترتـدي أجمـل الثيـاب، وبعـد أن يسـألها بعـض الأسـئلة العاديـة، كانـا يجلسـان لاحتسـاء القهـوة ويتحدثـان في مواضيـع شـتّى.

تبـين لشـولا تدريجيًّا أن أنطـون، الرجـل الوسـيم والراقـي، قـد هـام في حبهـا إلى أبعـد حـد. لقـد أسـقط عنهـا كل التهـم (حُكـم على مولخـو بالسـجن عـدة أشـهر ثـم تـم ترحيلـه إلى أرض فلسـطين)، ودعاهـا للعشـاء في مطعـمٍ فاخـر في بلـدة بحمـدون واعـترف لهـا بمشـاعره تجاههـا. قـال لهـا بصراحـة: «كلانـا منخـرط في نفـس الأمـر. لكـن أنـت لديـك جـرأةٌ أكثـر وأنـا لـديّ خبرةٌ أكـبر. يمكننـا أن نشـكل معـا زوجًـا مثاليًّـا»، كـما أن شـولا أصبحـت مفتونـة بـه أيضًـا. وقـد كشـف لهـا بـأن «المخابـرات» السـورية تقـوم بملاحقتهـا وبأنـه قـد وصـل إلى مكتبـه طلـبٌ بتتبعهـا والتحقيـق في أعمالهـا. قـال لهـا بفخـر أنـه قـد أجـاب السـوريين بأنهـم لم يجـدوا أي دليـلٍ مثـيرٍ للريبـة في تصرفاتهـا، لكنـه أضـاف أنـه يعلـم بأنهـا تعمـل لصالـح إسرائيـل. لم يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد – فقـد اصطحبهـا إلى الموقـع الـذي يتـم فيـه إنشـاء مسـتودع السـلاح الرئيـس للجيـش اللبنـاني، وأعـرب عـن موافقـةٍ مبدئيـة للقـاء مشـغليها. وعندمـا أعادهـا إلى منزلهـا في بـيروت، انحنـى نحوهـا وقبلهـا عـلى خدهـا. وقـال: «نحـن الزوجـان المثاليّـان».

لم تتباطـأ شـولا، ولم تسـمح لمشـاعرها بالتأثـير عـلى الهـدف الـذي وضعتـه لنفسـها. فأرسـلت فـورًا إلى إسرائيـل طلبًـا للقـاءٍ عاجـل. وفي غضـون بضعـة أيـام كانـت في البيـت الأخـضر مـرة أخـرى، حيـث اسـتقبلها جيبـلي بعنـاقٍ دافـئ. وعندمـا روت لجيبـلي ولممثـلي «الموسـاد» عـن لقاءاتهـا مـع

أنطـون، تحمسـوا فـورًا، وأوكلوهـا بمهمـة إحضـار الضابـط العاشـق للقـاء في إسـطنبول. وبالفعـل، بعـد عودتهـا إلى بـيروت أقنعـت أنطـون بالسـفر معهـا إلى إسـطنبول. سـافر الاثنـان جـوًّا إلى تركيـا ومنهـا إلى رومـا، وهنـاك التقـى أنطـون بممثـلي «الموسـاد». في الطريـق قضيـا ليلـة في فنـدق «بـالاس» بإسـطنبول. بعـد أن تنـاولا الطعـام سـويّةً وأعـرب لهـا عـن حبـه، رافقهـا إلى غرفتهـا، وسـاد بينهـما توتـر شـديد. مـاذا جـرى في تلـك الليلـة؟ وفقًـا لشـولا، فقـد نامـا في غرفتـين منفصلتـين.

عندمـا عـادا إلى بـيروت، اسـتمرت اللقـاءات بينهـما مـرة أسـبوعيًّا عـلى الأقـل، وبقيـا كذلـك لسـنوات طويلـة. في تلـك الأثنـاء تـم تفكيـك الوحـدة العسـكرية التـي تتبـع لهـا شـولا، فتـم نقلهـا إلى «الموسـاد» والـذي كان يترأسـه إيـسر هرئيـل. واصلـت شـولا أنشـطتها. ظـل أنطـون، الـذي ترقـى في الرتـب، يحميهـا ويقـف إلى جانبهـا في كل مـرة تصادفهـا مشـكلة في طريقهـا. كـما زوّدهـا أيضًـا بمعلومـاتٍ سياسـيةٍ هامـة، ولكنهـا شـعرت بأنـه بعـد لقائـه بعنـاصر «الموسـاد» في رومـا أصبـح لديـه قنـاة مبـاشرة أخـرى لإيصـال المعلومـات إليهـم. وأخـيرًا، في مطلـع السـتينيات، قـرر أنطـون أن يغـادر بـيروت مـع عائلتـه وأن يبحـث لنفسـه عـن وطـنٍ جديـد. لقـد اتخـذ قـراره بعـد أن بـدأ السـوريون الـذي يكرهونـه يسـيطرون عـلى لبنـان وعـلى منظومتـه الأمنيـة. كانـت شـولا منفعلـة جـدًّا. نصحهـا أنطـون أن تقـوم هـي وعائلتهـا أيضًـا بمغـادرة لبنـان، لأن الوضـع أصبـح خطـيرًا للغايـة. لكنهـا رفضـت. لقـد كانـت في ذروة نشـاطها، وجنّـدت لخدمـة «الموسـاد» ضبـاط

جيشٍ والعديد من المدنيين الذين يشغلون مناصب عليا، وقد أحضرت بعضهم إلى أرض فلسطين برحلات طيران غير مباشرة عبر إسطنبول. والتقى آخرون مع ضباط جمع المعلومات التابعين للموساد في روما أو في لوزيرن السويسرية. كان لها أصدقاء مؤثرون جدًّا في بيروت، بدءًا من رئيس الجمهورية، ومرورًا برئيس الحكومة ورجال المال والأعمال، ووصولا إلى رؤساء الكتائب المسيحية والميليشيات الإسلامية. وعندما ودعت أنطون أخبرته بأنها لن تغادر لبنان.

كانت تلك هي غلطتها الكبرى التي ستدفع ثمنها غاليًا.

* * *

شعرت شولا في أكثر من مناسبة أنها معرضة لخطر الموت. كما حدث في ذلك الصباح، مطلع العام 1953م.

لم يكن الفجر قد بزغ بعد، عندما بلغت شولا منزل صديقها اليهودي أبو جاك. هناك خطط للدفعات القادمة من المهاجرين إلى إسرائيل يجب الانتهاء منها بسرعة. كانوا مجموعةً جاءت من سوريا ومجموعة أخرى قد تم تنظيمها في لبنان. بعد المحادثة أسرعت إلى بيتها، حيث كان قد تم تحديد موعدٍ آخر لها. تمكنت من الاستحمام وإرضاع طفلها السابع ديفيد. وبالفعل بعد مرور ساعةٍ واحدة جاء المهرب الماهر سليمان مكليعة لكي يتسلم مجموعة المهاجرين ويقوم بتهريبهم إلى أرض فلسطين. حضّرت له القهوة وقدمت له أطباقًا من الكعك. وبينما هما

يتحدثان، سمعا طرقات على الباب. كان سليمان يعرف أنه لا ينبغي رؤيته هنا، فتسلل فورًا إلى داخل المنزل واختبأ في إحدى الغرف.

فتحت شولا الباب، فوجدت عند المدخل أحد عملائها المهمين، أبو علوان، وهو شخص معروف جيّدًا لدى السلطات وذو مكانةٍ مهمة. استقبلته شولا بحرارة وحضّرت له شرابه المفضل - شاي حلو مع أوراق المريمية - بينما أخرج من جيب مخبأ في ملابسه وثيقة استخباراتية سرية ذات أهميةٍ كبيرة، كان قد استطاع الحصول عليها من مكاتب الحكومة.

غادر أبو علوان، وفجأة سمعت في الخارج أصواتا عالية صادرة عن فتيان «مكابي»، الذين كانوا يقومون بحماية الحي اليهودي. فأدركت شولا أنهم قد رأوا عناصر «المخابرات» الذين عادوا مرة أخرى لتفتيش المنزل. شعرت بالذعر، لكن هذه لم تكن المرة الأولى. سارعت باتخاذ الاحتياطات. ركضت إلى الداخل، فوجدت سليمان في إحدى الغرف. أمرته بمغادرة المنزل على الفور، فركض إلى الخارج، بينما أسرعت شولا إلى غرفتها والوثيقة السرية في يدها.

فكرت جاهدة، أين ستخبئها. لقد كانت تعلم أنه إذا عثر عليها عناصر المباحث فسيكون مصيرها سيئًا ومريرًا. تلفتت حولها، ثم وضعت الوثيقة داخل كومة من حفاضات الأطفال كانت فوق الخزانة بالقرب من سريرها. وفجأة شعرت بشخص ما يلمس مرفقها. استدارت، فوجدت أمامها ضابط مباحث درزي تعرفه، كان قد تسلل

إلى المنزل بهدوء واقتحم غرفتها بدون إذن. ثم تبعه إلى الداخل ضابطان سوريان وسبعة جنود لبنانيين والمختار اليهودي للحي، ديب سعدية. دفعها ضابط المباحث جانبًا وانقض على كومة الحفاضات. دس يده بين الحفاضات بينما تجمدت هي في مكانها مذعورة. كانت تعرف أنها معرضةٌ لخطر الموت. إذا تم العثور على الوثيقة في حوزتها فسيكون ذلك دليلا على التجسس، والذي يعاقب عليه بالإعدام. رأت في مخيلتها الحبل المعلق ملتفًّا حول رقبتها، فبدأت في قلبها تصلي لله كي ينجيها.

أخرج الضابط يده من بين الحفاضات. كانت اليد فارغة! عادت لها ثقتها بنفسها، فنهضت وصفعت الضابط على وجهه وبدأت بالصراخ عليه. كيف تجرأ على فعل ذلك، كيف يقتحم بدون إذن غرفة امرأة حديثة الولادة، تحتاج لرعاية طفل، والعبث هكذا بأغراضها! بل ويقود أيضًا ضباطًا وجنودًا إلى غرفتها، كأنها مجرمة! لم يتأثر الضابط، وزأر بغضب: «أين أخفيت الوثيقة التي كانت بحوزتك الآن؟»

أنكرت بشدة: «أي وثيقة؟ ليس لديّ أية وثيقة».

قال الضابط بضع كلمات لجنوده، فتفرقوا في الغرفة وقلبوها رأسا على عقب. وقام أحد الجنود بجرف كل الأغراض التي على الرفوف، وأوقع كومة الحفاضات على الأرض. توقفت دقات قلبها، لكن لم يتم اكتشاف الوثيقة هذه المرة أيضًا.

تنفست الصعداء. لكن مصاعبها لم تنته، فقد ظهر التهديد الجديد

من الكلام اللطيف للمختار اليهودي على وجه التحديد، حيث خاطب أحد الجنود بكل أدب: «يا حبيبي، يا عيني، ألا ترى أن السيدة ضعيفةٌ ومنهكةٌ من رعاية الطفل؟ أرجوك أن تنظر في حالاها وتعيد الحفاضات إلى مكانها».

فكرت: يا الله، لماذا كان عليه أن يتدخل الآن بالتحديد؟ انحنى الجندي وجمع كومة الحفاضات، ثم ألقى بهم على الخزانة. عضت شولا شفتها. وللمرة الثالثة – لم يتم اكتشاف الوثيقة.

صرخ الضابط الدرزي في غضبٍ شديد: «أين أخفيت تلك الوثيقة اللعينة؟»

استجمعت شجاعتها مرة أخرى، وصرخت في وجهه: «ألا تخجلون من أنفسكم! أهكذا تتصرفون بوقاحة مع امرأةٍ بريئة؟ مع هذا العدد الكبير من الجنود وكل هذه المسدسات؟ أليس في قلوبكم خوف من الله؟»

تابع الضابط: «أنت قادمة معنا للاستجواب»، لكنها رفضت، قائلة: «لم تعثروا على شيءٍ لديّ وليس لكم الحق في اعتقالي كمجرمة. أنا على استعداد لأستقل سيارة أجرة وآتي إلى مقركم بمفردي، لكن عليّ قبل ذلك أن أستحم وأرضع الطفل». لم يكن لديهم خيار، فغادروا الغرفة وتركوها لوحدها مع الرضيع. وما إن بقيت وحيدة، حتى أدخلت يدها المرتجفة في كومة الحفاضات ووجدت الوثيقة على الفور! قامت بطيها ووضعتها في صدريتها، وعندما ذهبت لتغيير ملابسها في الحمام، وضعتها في فتحة مخفية أعلى النافذة.

وفي غضـون فـترةٍ وجيـزة، وصلـت شـولا بسـيارة أجـرةٍ إلى مكتـب التحقيقات، مرتدية فستانًا مبهجًا مزينًا بالأزهار أخضر اللون وذو أكمامٍ قصيرة. لم تكن تعلم ماذا ينتظرها. في البداية، تقربوا إليها بكلمات إطراء ماكرة. «أم ابراهيم، نحن نقدر ما تقومين به من أجل شعبك وبلدك. فقط أعطنا الوثيقة وسيكون بإمكانك العودة إلى منزلك ولن نضايقك بعد الآن. نحن نعلم أن الوثيقة بحوزتك، فقط قولي لنا أين خبأتها أو سلميها لنا باليد – وسوف نفترق كأصدقاء».

أنكرت شولا، فأعطى المحقق إشارة لأحد الجنود الذين كانوا يقفون في زاوية الغرفة، فقام بضربها على وجهها بكل قوته بعقب البندقية التي بيده. أحست شولا بالدوار وصرخت من الألم. وتكرر الأمر: سؤال مرة أخرى، ومرة أخرى ضربة، ثم أخرى، حتى أغمي عليها تقريبًا. لقد هاجمها الجنود بعنف وضربوها وأطفؤوا السجائر على ذراعيها ورجليها. وردت هي بالصراخ والشتائم، غير أنها لم تعترف.

استمر التحقيق 13 ساعة، قبل أن يضطروا لإطلاق سراحها نظرًا لعدم وجود أيّ دليلٍ ضدها. وفي الرابعة فجرًا، خرجت إلى بيتها وقد امتلأ جسدها بالجروح والكدمات. لقد نجت بحياتها، لكنها كلما تذكرت الضابط الذي دس يده في كومة الحفاضات، كانت ترتجف وترتعش. وقد علمت فيما بعد أنها اعتُقلت بأوامر من السوريين، الذين كان لهم نفوذٌ في لبنان ويبدو أنهم سمعوا عنها من أحدهم.

* * *

مـع ذلـك، وبعـد مـرور بضعـة أسـابيع، عـادت شـولا إلى يافـا مـرة أخـرى. لقـد حدثـت تغيـيراتٌ كبـيرةٌ هنـاك منـذ زيارتهـا الأخـيرة. لم يعـد بنيامـين جيبـلي رئيسًـا لهيئـة الاسـتخبارات (أمـان)، وتـم تفكيـك وحدتهـا، فيـما تـم نقـل شـولا للموسـاد. وهنـاك التقـت مشـغليها الجـدد ورئيـس الموسـاد بنفسـه. كان وقتهـا إيسر هرئيـل، الرجـل الأصلـع القصـير، الملقـب بـ «إيسر الصغـير». لقـد سـمعت شـائعات بـأن جيبـلي قـد طُـرد بسـبب فضيحـة سـقوط شـبكة كاملـة في مـصر، حيـث تـم إعـدام اثنـين مـن قادتهـا.

عندمـا عـادت إلى بـيروت، واصلـت أنشـطتها السريـة عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت تحـت أنظـار «المخابـرات». وقـد تركتهـا الشرطـة والأجهـزة السريـة لفـترةٍ مـن الزمـن. وفي غضـون ذلـك اندلعـت حـرب سـيناء (العـدوان الثلاثـي عـلى مـصر)، ولكنهـا لم تتعـرض للمضايقـة. غـير أنـه وبعـد مـرور عـدة سـنوات وجـدت نفسـها مـرة أخـرى معرضـة لخطـر المـوت.

كان ذلـك في شـهر مايو/ أيـار، عندمـا تـم اختطـاف 11 يهوديًـا، عـلى يـد أبي مصطفـى، الملقـب بـ «النمـر»، والـذي كان معروفًـا بأنـه قاتـلٌ ومجـرم، وأنـه العميـل الأبـرز لسـوريا في لبنـان. كانـوا يشـاركون وقتهـا في جنـازة صديقهـم، عندمـا بـرزت لهـم الميليشـيات الإسـلامية في بـيروت واقتادتهـم إلى جهـةٍ مجهولـة داخـل الجـزء الإسـلامي مـن المدينـة. كان ذلـك عـام 1958م، عندمـا اندلعـت حـرب أهليـة دمويـة في لبنـان بـين المسـلمين والمسـيحيين، وشـعرت كل الطائفـة اليهوديـة في وادي أبـو جميـل بأنهـا مهـددة مـن قبـل

الميلشيات الإسلامية التي كان يقودها الزعيم القاسي صاحب الكاريزما، أبو مصطفى.

عندها، جاءت مجموعة من النسوة إلى منزل شولا وتوسلن إليها أن تستخدم علاقاتها لإنقاذ المخطوفين. وافقت شولا وقامت بتفعيل علاقاتها. فحصلت على سيارة جيب مع سائق من الجيش، وتوجهت في عتمة الليل إلى مقر «النمر» في قلب الحي الإسلامي، بين الأنقاض والحواجز، وعلى وقع أصوات إطلاق النار والتهديدات. كان رجال الميليشيات المرعبون ينظرون مندهشين إلى المرأة الجميلة التي تجلس في سيارة الجيب ويلوحون بأسلحتهم أمام وجهها، لكنهم في النهاية سمحوا لها بالمرور. التقت بالنمر في مقره الرئيس، وهو عبارة عن صيدلية متعفنة تم تحويلها إلى مشفى ميداني. هناك انتصبت أمامه وقد تناثر حولها مصابون ينزفون وأطراف مبتورة إلى جانب جثث القتلى. كان النمر رجلا وسيمًا ومتسلطًا، وكان محاطًا بحراسٍ شخصيّين مسلحين، لم يصدق ما تراه عيناه: كيف بامرأة جذابة شابة، ترتدي ملابس أوروبية – ويهودية أيضًا – أن تجرؤ على المجيء إلى مقره وحدها!

سألها: «كيف تجرئت؟» وعندما أوضحت له أنها تريد تحرير المخطوفين، أضاف بإعجاب: «هل قمت بتعريض نفسك للخطر وجئت إلى هذا المكان لأنك خائفة على مصيرهم؟ أحسنت! لم أر الكثير من الرجال الذين يتجرؤون على فعل ما تفعلينه، وكما أرى، فأنت مجرد امرأة!»

وبرغـم أنهـا مجـرد امـرأة، فإنهـا لم تنجـح فقـط في إقناعـه بإطـلاق سراح المخطوفـين، بـل ورافقتـه أيضًـا في زيـارةٍ لوالدتـه، والتـي عاملتهـا بمـودةٍ ولطـف. وعندمـا عـادت إلى الحـي اليهـودي سـالمة بعـد إطـلاق سراح المخطوفـين، رفـض أصدقاؤهـا العـرب تصديـق أنهـا وصلـت إلى النمـر شـخصيًا، وقالـوا لهـا أن تلـك الرحلـة الليليـة كان يمكـن أن تنتهـي بالمـوت!

* * *

كان محمـد عـوض أحـد عملائهـا الرئيسـين في تلـك الفـترة، وكان موظفًـا كبـيرًا في وزارة الماليـة، يبلـغ مـن العمـر 55 عامًـا تقريبًـا، لكنـه يبـدو أصغـر مـن سنه. رجـل لطيـف وبشـوش وأنيـق. وقـد انتشرت شـائعاتٌ في بـيروت بأنـه مقـرب مـن المخابـرات السـورية، لكنـه يعمـل أيضًـا لصالـح الأجهـزة المصريـة. وحتـى نكـون أدق فإنـه كان يعمـل لـكل مـن يدفـع لـه. بـل كان هـو مـن بـادر بالعلاقـة مـع شـولا. في البدايـة اعترضـت عليـه ورفضـت طلباتـه، لكنـه عندمـا أحـضر لهـا قائمـةً سريّـة بجميـع العمـلاء المتخفـين في بـيروت، أدركـت أنـه يسـتحق أن يؤخـذ عـلى محمـل الجـد. بـدأ يزورهـا في بيتهـا، وكان محبوبـا جـدًّا مـن قبـل زوجهـا والأطفـال، كـما سـاعد إيتسـيك في دروس الرياضيـات وكان جاهـزًا للمسـاعدة دائـمًا. لم يُخـف طموحـه في العمـل لصالـح أجهـزة الأمـن الإسرائيليـة، فسـاعدته في السـفر سرًّا إلى إسرائيـل، حيـث التقـى بمسـؤولي الموسـاد وأثـار إعجابهـم أيضًـا. واتفقـوا معـه عـلى أجـر شـهري كان يتـم إيداعـه في حسـاب مـصرفي مرقـم في سـويسرًا. كـما كشـف لشـولا أن أجهـزة التجسـس المصريـة تتابعهـا ويريدونهـا أيضًـا أن

تعمـل لصالحهـم، لكنهـا رفضـت. وفي ذات ليلـة، ظهـر في منزلهـا شـخصان مجهـولان وعرضـا عليهـا علنـا التجسـس لصالـح مصـر، فطردتهـما مـن بيتهـا بغضـب وهددتهـما باسـتدعاء الشرطـة.

غـادر الرجـلان بالفعـل، لكـن بعـد بضـع ليـال، وبينـما كانـت شـولا عائـدة مـن كازينـو بولـس إلى منزلهـا في سـاعةٍ متأخـرة مـن الليـل، تـم إطـلاق النـار عليهـا عـبر بنـادق آليـة مـن سيارة متوقفـة. ولحسـن حظهـا، فقـد نجحـت في الهـروب إلى فنـاء أحـد المنـازل. أصيبـت شـولا بجـروحٍ طفيفـة جـراء تناثـر الحجـارة مـن سـور أحـد البيـوت. أمـا السـيارة التـي يبـدو أنهـا كانـت تنتظـر عودتهـا منـذ عـدة سـاعات، فقـد اختفـت مـن المكـان. قامـت شـولا بإخبـار أصدقائهـا في الحكومـة عـن محاولـة اغتيالهـا، حيـث أيـدوا نظريـة أن يكـون المهاجمـون منتمـين إلى عنـاصر الاسـتخبارات المصريـة، وقـد أرادوا الانتقـام منهـا لأنهـا رفضتهـم بوقاحـة.

* * *

في التاسـع مـن أغسـطس/ آب عـام 1961م. سُـمعت بعـد منتصـف الليـل طرقـاتٌ عـلى بـاب عائلـة كشـك في وادي أبـو جميـل. فتـح إيتسـيك البـاب، مرتديًـا قميصًـا داخليًّـا وسروالا قصـيرًا وسلسـلةً ذهبيـة تتـلألأ بنجمـة داود حـول عنقـه. فوجـد أمامـه مجموعـة مـن الجنـود والشرطـة. سـأله أحـد الضبـاط: «أيـن شـولا كوهـين؟» كانـت شـولا في المنـزل، ولم يكـن لديهـا مـكان لتهـرب منـه، كـما أنهـا لم تتمكـن مـن شـق طريـق للهـرب بالحديـث

والإقنـاع. وفي وقـت لاحـق، قالـت ابنتهـا أرليـت في مقابلـة إعلاميـة: «كان شـارعنا مغلقًـا بالكامـل بالجنـود والدبابـات. وكأن والـدتي كان لديهـا أجنحة ويمكنهـا أن تطـير وتهـرب». قـام الشرطـة بتقييـد يـدي شـولا ونقلوهـا إلى السـجن. وبعـد يومـين تـم اعتقـال زوجهـا جوزيـف أيضًـا. كان واضحًـا أنـه قـد تـم توقيفهـما بسـبب وشـاية.

سـيتضح فيـما بعـد أن الـواشي لم يكـن سـوى اللطيـف عـوض، والـذي امتـدت شـهادته عـلى 319 صفحـة. لقـد شـهد هـو وميـلاد ضـد شـولا كوهـين، وزعـما أن أجهـزة الاسـتخبارات اللبنانيـة هـي مـن زرعـت عـوض منـذ البدايـة لـدى شـولا وعائلتهـا، إلا أن هـذا الادعـاء لم يكـن مقنعًـا، إذ إن المـواد التـي نقلهـا للموسـاد في أرض فلسـطين كانـت ذات نوعيـةٍ جيـدة (لا بـد أن عـوض قـد نقـل نفـس المـواد إلى أجهـزة الاسـتخبارات الأخـرى التـي وظفتـه). وقـد روى أحـد ضبـاط الاسـتخبارات الذيـن اعتقلـوا شـولا، ويدعـى سـامي الخطيـب، أنـه تـم اكتشـاف مخالفـاتٍ خطـيرة في مكتـب عـوض بـوزارة الماليـة. وبعـد التنصـت عـلى هاتفـه، تـم الكشـف عـن مكالمات منتظمـة وحميمـة مـع امـرأة معينـة – شـولا كوهـين. وعندمـا واجـه المحققـون عـوض بالأدلـة المتراكمـة ضـده، أخبرهـم بـكل مـا يعرفـه عـن شـولا كوهـين. كان يأمـل أن يشـتري حريتـه بهـذه الطريقـة، لكـن الخطـأ الـذي ارتكبـه كان فادحًـا. هكـذا ألقـي بـه في السـجن وتـوفي هنـاك بنوبـةٍ قلبيـةٍ بعـد عـام واحـد.

قـال سـامي الخطيـب أن مكتـب التحقيقـات قـد اسـتأجر شـقة فـوق شـقة

شـولا كوهـين، وشـقة أخرى مقابلهـا. وتـم تركيـب أجهـزة تنصت عـلى خط هاتـف عائلـة كشـك، وهكـذا تـم جمـع مـواد الإدانة.

هــز خـبر اعتقـال «السـيدة شـولا» لبنـان، فتصـدر العناويـن الرئيسـة للصحـف، ووصـف مذيعـو الراديـو المتحمسـون أفعـال الجاسوسـة، بينـما ظهـرت مقـالاتٌ مثـيرة في الصحـف العالميـة عـن «ماتـا هـاري الـشرق الأوسـط»، ونـشرت الصحـف الإسرائيليـة أيضًـا مقـالات ضخمـة عـن اليهوديـة المتهمـة بالتجسـس، فيـما اختفـى معظـم أصدقـاء شـولا في لبنـان وكأن الأرض ابتلعتهـم.

بـدأ التحقيـق. لم يرحمهـا مـن كانـوا يحققـون معهـا، ولا حتـى أخـذوا بالحسـبان كونهـا امـرأة. لقـد ضربوهـا وعذّبوهـا بشـدة: اقتلعـوا أظافـر يديهـا الواحـد تلـو الآخـر، وعرّضوهـا للصعـق الكهربائـي، واسـتخدموا ضدهـا «الفلقـة»[1].

تتذكـر شـولا أن الألم كان رهيبًـا. في الجلـدة الأولى صرخـت، لكـن بعدهـا تألمـت بصمـت. لقـد قـررت في قلبهـا ألا تنكسر، وألا تمنـح معذبيهـا لـذة رؤيتهـا منهـارة. عضـت عـلى شـفتها حتـى لا تـصرخ، مـا تسـبب بتمـزق شـفتيها وامتـلاء فمهـا بالدمـاء. كان المحقـق يجلـس أمامهـا. كان رجـلا مثـيرا للاشـمئزاز يلقبـه الحـراس بـ «سـامي السـمين». انفجـر ضاحـكًا عـلى معانـاة

(1) الفلقـة: طريقـة تعذيـب يتـم فيهـا ربـط معصمـي وكاحـلي مـن يتـم التحقيـق معـه ببعضهـما البعـض وتعليقـه، فيـما يقـوم جنديـان بضربـه بالسـياط عـلى قدميـه العاريتـين واحـدًا تلـو الآخـر.

شولا. لكنها لم تفقد الأمل. تذكرت ما كان يقوله لها جدها دائمًا: «أنت مثل الدمية نومي كومي[1]. أنت دائماً تنهضين على قدميك».

تحسن وضع شولا قليلا فقط عندما تمكنت عائلتها من التواصل مع بيير الجميل، الذي أصبح وزير داخلية لبنان، فجاء إلى السجن وأمر الحراس بالتوقف عن استخدام العنف ضدها. كما ظهر «النمر» بشكل مفاجئ وتأكد من حصول شولا على طعام حلال (كوشر).

لم تسلم شولا من المعاملة السيئة، برغم انتهاء التحقيقات، بينما نأت السجينات العربيات بأنفسهن عنها. قالت شولا: «كنت اليهودية الوحيدة بين ألفي سجينة. وأردت أن أثبت للعالم كله بأني يهودية فخورة ولن أستسلم».

بذل إيتسيك وأخواته قصارى جهدهم من أجل إنقاذ والدتهم، وكانوا يأملون أن تساعدهم الأموال التي في حوزة الأسرة وكذلك علاقات شولا في الحصول على حكم معتدل لها. وبناء على نصيحة محاميها، اعترفت فقط بالمساعدة في تهريب اليهود إلى إسرائيل، وهو ما لا يعتبر جريمة بالغة الخطورة. إلا أن المدعين اتهموها بالخيانة، والتي يعاقب عليها الإعدام.

استخدم المحامون ذكاءهم ومكرهم، فادعوا بأنها على الرغم من امتلاكها جواز سفر لبناني، إلا أنها مولودة في الأرجنتين، وهي في الواقع

(1) نومي كومي: دمية مطاطية ما إن تطرحها أرضًا حتى تقفز فورًا إلى وضع الوقوف.

أرجنتينيـة. وبالفعـل وافقـت المحكمـة عـلى تبديـل التهمـة مـن «الخيانـة» إلى «التجســس».

بـدأت المحاكمـة في 5 نوفمبر/ تشريـن الثـاني عـام 1962م. مثّلـت شـولا أمـا القضـاة كعادتهـا مغتسـلة ومتزينـة وترتـدي فسـتانًا جميـلا. ثـم في طريقهـا إلى زنزانـة المتهمـين التقـت بإيتسـيك وإرليـت، اللذيـن همسـا لهـا بـأن كل شيءٍ سيكون عـلى مـا يـرام. لقـد اعتقـدت بالفعـل أن الأمـور سـتنجح عـن طريـق دفـع الرشـاوي، لكـن في الاسـتراحة التـي تسـبق النطـق بالحكـم قـال لهـا أحـد أفـراد الشرطـة الذيـن كانـوا يحرسـونها: «طلـب منـي ابنـك أن أخـبرك بأنـه لم يسـتطع الوفـاء بوعـده».

وبالفعـل كان الحكـم صادمًـا، لقـد أدينـت بتهمـة التجسـس الشـديد وحكـم عليهـا بالإعـدام شـنقًا. وحكـم عـلى زوجهـا جوزيـف بالسـجن عشر سـنوات. أغمـي عليهـا بعـد سـماعها للحكـم. وعندمـا تعافـت وغـادرت المحكمـة، مـرت مـن أمـام إيتسـيك ونظـرت إليـه نظـرة صامتـة كأنهـا تقـول: «هـل هـذا كل مـا نجحـت في فعلـه مـن أجـلي؟»

لاحقا قال إيتسيك: «هذه النظرة لا زالت تطاردني حتى اليوم».

* * *

لكـن شـولا لم تستسـلم. فبعـد نطـق الحكـم وعودتهـا للسـجن قـال لهـا رئيـس الحـرس: «لقـد غربـت الشـمس يـا شـولا كوهـين، أليـس كذلـك؟»

ذكرتها هذه الكلمات بطفولتها في القدس، عندما كان يعود والدها إلى المنزل ويطلب إضاءة جميع المصابيح في البيت. وكانت والدتها تقول له دائمًا تلك الجملة ذاتها. عندها ردت عليه شولا قائلة: «لا تضئ المصابيح. لم يحل الظلام بعد!»

قالت ذلك، ثم قبعت في زنزانتها، تنتظر تنفيذ الحكم.

(6)

مارسيل: الموت أفضل من التعذيب

بـدأ كابـوس مارسـيل في إحـدى ليـالي شـهر يوليو/ تموز عـام 1954م، عندما اقتحـم الشرطة شـقتها واقتادوهـا إلى مقـر مباحـث القاهـرة. مارسـيل، اليهوديـة ابنـة الـ 24 ربيعًا، أُدخلـت إلى غرفـة صغـيرة فارغـة، حيـث هاجمهـا عـدد مـن الرجـال وضربوهـا بوحشـية. وأثنـاء ذلـك، كانـوا يطرحـون عليهـا أسـئلةً حـول أسـماء وقنابـل وعناويـن. وعندمـا لم يحصلـوا عـلى أجوبـة، بـدأوا بتعذيبهـا. صفعـات، ضربـات عـلى مؤخـرة الـرأس، جلـدات عـلى باطـن القدمـين، نتـف الشـعر، وألـوان متعـددة مـن التعذيـب. أُغمـي عليهـا فأيقظوهـا واسـتأنفوا التعذيـب. ثـم أغمـي عليهـا مـرة أخـرى وعـادوا وهجمـوا عليهـا ثانيـة. كانـت تنـام بشـكلٍ متقطـع عـلى الأرضيـة الحجريـة، عندهـا ولسـبب مـا، تذكـرت جملـة جـان بـول سـارتر في مسرحيتـه «الأيـدي القـذرة»: «طوبـى للإنسـان الـذي ينـام عـلى سريـره». وضعهـا المحققـون في سيارة السـجناء ونقلوهـا إلى الإسـكندرية، إلى مقـر التحقيقـات هنـاك. وبـدأ الـضرب والتعذيـب مـرة أخـرى. كان الألم والإذلال فظيعـين. قالـت الفتـاة البائسـة في نفسـها: كفـى، لم يعـد بإمـكاني أكثـر، لا أريـد أن أعيـش!

وبمجرد أن حول معذبوها نظرهم عنها، قفزت من النافذة المفتوحة، من الطابق الثاني إلى الفناء المرصوف بالحجارة وتحطمت.

تحطمت لكنها لم تمت. عندما استفاقت في المشفى، أخبرها الأطباء أنها مصابة بكسور في ساقيها وذراعيها وحوضها، بالإضافة إلى 11 ضلعًا مكسورًا، ونزيفٍ داخلي وارتجاجٍ في الدماغ. لفوا نصف جسدها بالجبس، وعلقوا أثقالا على ساقيها من أجل تخفيف الضغط على حوضها المكسور. لقد بقيت مستلقية في السرير لثلاثة أشهر تتألم.

وفي سريرها، استعادت مارسيل محطات حياتها والأحداث التي أوصلتها إلى هنا. فقد ولدت مارسيل فيكتورين نينو في القاهرة لأبٍ من بلغاريا وأم تركية. كانوا يتحدثون الإسبانية اليهودية (لادينو) في بيتهم، اليهودية – اللغة الفرنسية في المدرسة. قبل أن تنتقل إلى مدرسة «سانت كلير» الثانوية الكاثوليكية للبنات حيث تعلمت اللغة الإنجليزية من الراهبات. كان والدها حريصًا على التقاليد، وكان يصطحب عائلته إلى الكنيس في أيام السبت. لكنه مات عندما بلغت مارسيل العاشرة من عمرها، فنشأت مع أخويها غير الشقيقين. ابنان لوالدها من زواج سابق. أثارت الصهيونية حماستها فانتسبت إلى حركة «هشومير هتسعير» (الحارس الصغير). وكان لديها صديق منتسب إلى الحركة نفسها أيضًا، لكنه هاجر إلى إسرائيل وانضم إلى كيبوتس عين شيمر. بعد المدرسة الثانوية، تعلمت مارسيل الكتابة المختزلة (ستينوغرافي) وعملت كسكرتيرة لمدير عام شركة تجارية كبيرة.

كانـت في الثانيـة والعشريـن مـن عمرهـا عندمـا جاءت إليها ميرا (اسـم مسـتعار)، صديقتهـا في «هشـومير هتسـعير»، وقالـت لهـا: «مارسـيل، إننـا نحتـاج لمـن تسـاعدنا». أدركـت أن الأمـر يتعلـق بإسرائيـل التـي كان قـد أُعلـن عـن قيامهـا كدولـة قبـل أربـع سـنوات مـن ذلـك الوقـت. لم تـتردد في الموافقـة، إذ كانــت مثــل صديقاتهــا تعشــق إسرائيــل. كانــت تريــد أن تفعــل أي شيء لحمايـة هـذا الكيـان الجديـد. كانـت تـسري شـائعاتٌ داخـل الطائفـة اليهوديـة عـن امـرأة تدعـى يولانـدا، اختفـت مؤخـرًا مـن القاهـرة. وقـد أفـادت هـذه الشـائعات بـأن يولانـدا كانـت جاسوسـة هامـة لإسرائيـل، عرّضـت حياتهـا للخطـر، وتمكنـت مـن الهـرب إلى القـدس في اللحظـة الأخـيرة قبـل أن يتمكنـوا مـن اعتقالهـا. كانـت مارسيل تعتـبر يولانـدا رمـزًا للنضـال، وقـدوةً يحتـذى بهـا.

ربطتهــا مــيرا بطبيــبٍ يهــودي شــاب، هــو الدكتــور فيكتــور سـعدية، والــذي رتــب لهــا لقــاءً مــع مبعــوثٍ سري مــن إسرائيــل يدعــى «مارتــين» (الاســم المســتعار للمســؤول الكبــير في الموســاد شــلومو هيلــل). لم تكــن مارسـيل تعلـم أن تاريخـه زاخـر بالعمليـات الجريئـة، بـما في ذلـك نشـاطه في بغـداد بهويـة مـزورة وتنظيـم الهجـرة الضخمـة للطائفـة اليهوديـة مـن العـراق إلى أرض فلسـطين، لكنـه بـدا لهـا رجـلا ذا سـلطةٍ ومعرفـة، ومـع ذلـك فهـو متواضــعٌ وهــادئ. أخبرهــا هيلــل أن عليهــا القيــام بــأدوار محــددة، «نقــل رسـائل ومعـدات»، لكنـه حذرهـا: «الأمـر خطـير، ربـما تدخلـين السـجن». سـجن؟ حسـنًا، هـذا لم يُخِفْهـا. كان الملـك فـاروق ودودًا جـدًّا مـع اليهـود ولم

يكـن هنـاك مـا يدعـو إلى الخـوف، فصديقتهـا مـيرا، التـي جندتهـا، كانـت قـد اعتُقلـت سـابقًا وبقيـت في السـجن لثلاثـة أشـهر. لم يكـن الأمـر بالـغ السـوء. كان طلـب مارسـيل الوحيـد مـن هيلـل في حـال اعتقالهـا، أن يحـرص عـلى الاعتنـاء بوالدتهـا المريضـة بالسرطـان. وقـد وعدهـا شـلومو هيلـل بذلـك.

هكـذا تـم تجنيـد مارسـيل في أجهـزة الاسـتخبارات الإسرائيليـة غـير الناضجـة بعـد. دون أن تخضـع لأي تدريـبٍ مسـبق. لكـن الأسـوأ مـن ذلـك – أنهـا لم يكـن لديهـا أي طريـق للهـروب مـن مـصر في حالـة الطـوارئ. لم تكـن تملـك جـوازًا أو حتـى وثيقـة سـفر، بـل ولا حتـى أي وسـيلة أو طريقـة أخـرى تمكنهـا مـن الفـرار مـن مـصر في حـال كشـف أمرهـا.

وسرعـان مـا التقـت مارسـيل بوكيـل أجهـزة كهربائيـة إنجليـزي مـن جبـل طـارق اسـمه جـون دارلينـج، إذ كشـف لهـا عـن هويتـه الحقيقيـة: أبراهـام دار، عضـو سـابق في البلـماح وعضـو موشـاف كفـار يهوشـع في إسرائيـل وعميـل استخبارات إسرائيـلي. أثـار دار إعجـاب مارسـيل بشـدة. قـال لهـا أنهـا سـتعمل معـه في شـقته. وحتـى لا تثـير علاقتهـما الشـبهات لـدى السـلطات، قـام بنشر إعـلان أنـه يبحـث عـن سـكرتيرة بـدوام جزئـي للعمـل في وكالتـه لـلأدوات الكهربائيـة. وبعـد الإعـلان، «فـازت مارسـيل بالوظيفـة» وبـدأت بالعمـل معـه. كانـت تطبـع مـن حـين لآخـر رسـائل عـن شـؤون عملـه، لكنهـا ركـزت بشـكلٍ رئيـس عـلى الأنشـطة السريـة. وقـد اتضـح لهـا أن دار قـد أنشـأ تنظيـمًا غـير معلـن مـن الشـباب اليهـود لأغـراضٍ سريـة، وكل مـا عرفتـه أن التنظيـم سـيعمل لصالـح إسرائيـل. كان التنظيـم يتألـف مـن

خليّتين، إحداهما في القاهرة والأخرى في الإسكندرية، وقد تم تكليفها بتأمين التواصل بينهما، ونقل الطرود والرسائل وإدارة الشؤون المالية والإدارية. كما علّمها دار كيفية استخدام الرموز والحبر السري، وكلّفها بكتابة التقارير عن عملهم في مصر وإرسالها إلى عنوانٍ محدّد في فرنسا. تم إعطاؤها الاسم الحركي «كلود». كما وعدها دار بتأمين جواز سفر لها؛ لتستخدمه في حال اضطرت لمغادرة مصر بشكلٍ عاجل. لكن ذلك لم يحدث.

قامت مارسيل في إطار أنشطتها بزيارة الشقق الآمنة في القاهرة والإسكندرية، وعرفت أين توجد «المخابئ السرية» التي تم تخزين المواد والوثائق السرية فيها. وقد التقت بأعضاء خلية القاهرة، ثم لاحقًا بأعضاء خلية الإسكندرية أيضًا. أراد دار أن يلتقوا جميعًا ويتعرفوا على بعضهم البعض لكي يعملوا سوية. ولاحقًا، جعل هذا الأمر دم مارسيل يغلي من الغضب: «ما هذا، محادثة جماعية؟ الجميع يعرفون بعضهم؟ لا يوجد أي تقسيم أو فصل بين الأعضاء؟ أهكذا يبنون تنظيمًا سريًّا؟» وبقيت طيلة حياتها تزعم أن هذه «الصداقة» كانت خطأً فادحًا.

غادر الشبان في كلتا الخليتين إلى فرنسا، ومن هناك تم تهريبهم إلى إسرائيل. حيث نُقلوا إلى قواعد عسكرية، خضعوا فيها لدورات مكثفة تضمنت أيضًا تدريبًا على العمل السري والأنشطة الاستخباراتية والعمليات التخريبية. لقد تلقوا تدريبات أساسية، وتعلموا استخدام أجهزة الإرسال، وتشفير وفك تشفير الإرسال، وتحضير الحبر السري.

وفي ختـام الـدورة عـادوا إلى مـصر، عـبر أوروبـا مـرة أخـرى. لم تذهـب مارسيل إلى هـذه الـدورة لسببين، فمـن ناحيـة كان عليهـا أن تعتني بوالدتها التـي أخـذت حالتهـا تـزداد سـوءًا، ومـن ناحيـة أخـرى لم تكـن تملـك جـواز سـفر، كـما أن عمليـة الحصـول عـلى «ليسـيه باسـيه» (وثيقـة سـفر). كانـت عمليـة طويلـة ومعقـدة.

حدثـت في غضـون ذلـك تغيـيرات جذريـة مـن حولهـا. ففـي 23 يوليـو/ تمـوز عـام 1952م، وقـع انقـلاب عسـكري في مـصر وتـم نفـي الملـك فـاروق، وتربـع عـلى عـرش الدولـة مجلـس عسـكري مـن «الضبـاط الأحـرار» بقيـادة الجنـرال محمـد نجيـب، والـذي سرعـان مـا حـل محلـه الكولونيـل جمـال عبـد النـاصر. كان نجيـب رجـلا منضبطًـا ومعتـدلا، وبـدا كأنـه محـاور محتمـل مـن أجـل السـلام مـع إسرائيـل، أمـا عبـد النـاصر الـذي أطـاح بـه وتـولى السـلطة، فقـد كان صارمًـا وطموحًـا وعدوانيًّـا.

في عـام 1953م، عـاد أبراهـام دار إلى أرض فلسـطين، فيـما تلقـت مارسـيل رسـالة بأنـه سـيتواصل معهـا قريبًـا شـخص يدعـى «إميـل». وكان الأمـر كذلـك، حيـث التقـت مـع «إميـل» في محـل حلويـاتٍ شـهيرٍ في القاهـرة. وهنـاك علمـت أن «إميـل» هـو في الواقـع ماكـس بينيـت، مبعـوث الموسـاد الـذي جـاء إلى مـصر كمسـتورد للأطـراف الصناعيـة. لقـد التقـت بـه عـدة مـرات بعـد ذلـك واسـتمرت في إيصـال الطـرود إلى الإسـكندرية، دون أن تعلـم مـاذا يوجـد بداخلهـا، إذ كان محظـورًا عليهـا فتحهـا. وبعـد فـترة تـم نقـل بينيـت إلى وظيفـةٍ جديـدة في مـصر، وجـاء مـن أرض فلسـطين قائـد جديـد للشـبكة، هـو

أفـري إلعـاد. انتحـل إلعـاد شـخصية ألماني اسـمه بول فرانـك. لكن مارسـيل لم تلتـق بـه مطلقًـا. لقـد كانـت تتخـذ كافـة الاحتياطـات في المكتـب وفي الشـارع، حسـب التعليـمات، ولم تلحـظ أيـة مراقبـة. واتضـح أن أجهـزة الأمـن المصريـة كانـت في الواقـع تتعقـب شـقيقها الشـيوعي، الـذي كانـت أنشـطته مشـبوهة. قالـت مارسـيل بخفـة دم: «كان لديـه في المنـزل آلـة استنسـل (ميموغـراف) لنسـخ المنشـورات، وقـد أراد إنقـاذ مـصر بهـذه الآلـة».

في عـام 1954م، قـررت إنجلـترا تقليـص تواجدهـا العسـكري في بعـض المناطـق الرئيسـة في العـالم، وضمـن هـذا الإطـار - إجـلاء 80 ألـف جنـدي مـن القواعـد التـي كانـت تسـيطر عليهـا في مـصر، معظمهـم عـلى طـول قنـاة السـويس. وكانـت هـذه الخطـوة تعنـي أن الجيـش المـصري سـيحصل عـلى الكثـير مـن القواعـد والمنشـآت، إلى جانـب الكثـير مـن المعـدات مختلفـة الأنـواع. شـعرت إسرائيـل بقلـقٍ بالـغ مـن دفعـة القـوة هـذه للجيـش المصري. لقـد كانـت مغـادرة إنجلـترا تعنـي أيضًـا زوال الاسـتقرار في المنطقـة وإزالـة القيـود عـن كاهـل مـصر.

كان موعـد إجـلاء القـوات البريطانيـة يقـترب، وقـد توصلـت حكومتـا إنجلـترا ومـصر إلى اتفـاق يسـمح لإنجلـترا بالعـودة إلى قواعدهـا في مـصر في حـالات الطـوارئ الأمنيـة والسياسـية.

كانـت إسرائيـل تبحـث عـن أي طريقـة لمنـع إنجلـترا مـن الخـروج مـن مـصر. لكـن كيـف؟ قبـل بضعـة أشـهر مـن ذلـك، اسـتقال ديفيـد بـن

جوريون من منصبه كرئيس حكومة ووزير دفاع، وعين مكانه موشيه شاريت رئيسًا للحكومة وبنحاس لافون وزيرًا للدفاع. أجرى لافون محادثاتٍ مع رئيس هيئة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي العقيد بنيامين جيبلي، تم خلالها صياغة خطة خطيرة وحمقاء: القيام بعدد من العمليات التخريبية في عدد من المواقع بمصر، بحيث تتركز بشكل أساسي (ولكن ليس حصريا) على مؤسساتٍ بريطانية وأمريكية. ستنسب وسائل الإعلام العالمية هذه الهجمات إلى حركةٍ سريّةٍ قوية تعمل في مصر - ربما «الإخوان المسلمين» - وهكذا ستدرك إنجلترا أن مصر غير مستقرةٍ ولا يمكن الوثوق بها في الالتزام باتفاقياتها. اعتقد لافون وجيبلي أن البريطانيين بهذه الطريقة سيلغون الاتفاقية وسيبقون في مصر. إلى جانب هذه الحماقة، فإن من سيقوم بتنفيذ الأعمال التخريبية هم يهود محليون، وقد يدفعون حياتهم ثمنًا لذلك في حال تم إلقاء القبض عليهم، ناهيك عن الفضيحة التي ستلحق بالحكومة الإسرائيلية.

في 2 و14 يوليو/ تموز، تم تفعيل الخليتين بناءً على أمر من إسرائيل. قام الشبان اليهود بصنع «قنابل» صغيرة من علب النظارات. حيث كانت توضع داخل العلب واقيات ذكرية تحتوي على حمض معين. وفي غضون بضع دقائق، كان الحمض اللاذع يتسبب في تآكل المطاط الرقيق للواقي الذكري ويُحدث ثقبًا فيه ليصبح على تماسٍ مع حمض آخر موضوع في العلبة. والنتيجة - اشتعال وانفجار لهب صغير يصيب العلبة ومحيطها. كانت هذه هي «القنابل الحارقة» التي أرادت إسرائيل عن طريقها أن تمنع انسحاب الإمبراطورية البريطانية من مصر.

في البدايـة، زرع أعضـاء الحركـة السريـة قنابـل حارقـة في مركـز البريـد وفي المكتبـات الأمريكيـة والإنجليزيـة في الإسـكندرية. ثـم واصلـوا عملياتهـم بعدهـا، ففـي 18 يوليو/ تمـوز بثـت إذاعـة «صـوت إسرائيـل» وصفـة تحضـير كعكـة «السـيدة شـولا زارحـي» - كان هـذا أمـرًا متفقًـا عليـه مـع الحركـة السريـة لاسـتئناف عمليـات الحـرق. وهكـذا قـام أفـري إلعـاد في 23 يوليـو/ تمـوز بإرسـال المجموعـات إلى خمسـة أهـداف: داري سـينما في الإسـكندرية، وداري سـينما في القاهـرة، ومسـتودع التخزيـن في محطـة قطـار القاهـرة. وفي المسـاء، ومـع تدفـق حشـدٍ كبـير عـلى سـينما «ريـو» في الإسـكندرية، لاحـظ أحـد عنـاصر الشرطـة رجـلا يتلـوى مـن الألم عنـد مدخـل السـينما، مـع تصاعـد دخـانٍ كثيـف مـن جيبـه. كان هـذا فيليـب ناتاسـون مـن خليـة الإسـكندرية، وقـد اشـتعلت القنبلـة في العلبـة التـي في جيبـه قبـل أوانهـا. فتـم اعتقـال فيليـب ناتاسـون، وخـلال بضعـة أيـام سـقطت الشـبكة بالكامـل.

لم تكـن مارسـيل تعـرف أي شيءٍ عـن تلـك العمليـات التخريبيـة. في نهايـة الأسـبوع، كانـت تقيـم عنـد أصدقـاء لهـا خـارج القاهـرة حينـما ظهـرت أولى الاعتقـالات. وعندمـا تكشـفت لهـا الأمـور، عـادت إلى القاهـرة وكتبـت رسـالةً بالحـبر السـري، ثـم سـارعت بإرسـالها إلى ذات العنـوان في فرنسـا، حيـث كتبـت: «الأولاد مريضـون جـدًا. إنـه مـرض معـدٍ ولا يمكـن التحـدث معهـم». كانـت الرسـالة واضحـة - لقـد تـم اعتقـال الشـبان. ومـا هـي إلا بضـع سـاعات حتـى تـم إلقـاء القبـض عليهـا أيضًـا. ورغـم أنهـا لم تكـن تعـرف شـيئًا عـن نشـاطات الحركـة السريـة، إلا أن أحـد الشـبان الذيـن

تـم استجوابهم تحدث أمام المحققين أو قدم لهم قائمةً بأسماء جميع أفراد الشبكة. كان من الواضح أنه لا يمكن مقاومة التعذيب. لم تعرف مارسيل أبدًا من هو الشخص الذي أبلغ عن اسمها وعنوانها، لكن الجميع قد عرفوها بسبب سياسة «التجمع في مجموعة واحدة»، التي اتبعها دار في وقت سابق.

ثم بدأ الكابوس.

تم اعتقال مارسيل وضربها وتعذيبها. ثم تبين لها لاحقًا أنه إلى جانب أعضاء الشبكة، تم أيضًا اعتقال ماكس بينيت، والذي كان قد أنشأ في الوقت نفسه شبكة استخباراتٍ منفصلة. وقد قام بينيت وشخصٌ يهوديٌّ آخر يدعى كارمونا بالانتحار في زنزاناتهم، فيما تقول رواية أخرى أنهم قُتلوا على يد المصريين.

وفي 11 ديسمبر/ كانون الأول من عام 1954م، بدأت محاكمة «الجواسيس الصهاينة» في القاهرة. كان يترأس المحكمة العسكرية الجنرال فؤاد (يوسف) الدجوي. وعندما اقتيدت مارسيل إلى قاعة المحكمة، شعرت بالوحدة أكثر من أي وقتٍ مضى. كان جميع الشبان سوية في «قفص» المتهمين، بينما كانت هي وحيدة في زاويةٍ أخرى يحيط بها شرطيان اثنان. كان الجميع يراقبونها ويتوترون كلما تحركت، فقد كانوا يخشون أن تحاول الانتحار مرة أخرى.

تذكر مارسيل لحظات الخوف والرعب أثناء المحاكمة، وخاصة

اللحظة التي اعترف فيها الدكتور مرزوق قائلا: «أنا المسؤول عن كل ما حدث!» ظهر التوتر على رئيس المحكمة، فيما أكدوا في المحضر ما قاله: «هل سمعتم؟ أنا المسؤول!» وعندها أدركت مارسيل أن موشيه مرزوق هالكٌ لا محالة.

تصدرت المحاكمة عناوين الصحف في جميع أنحاء العالم. وقد انتهت في 27 يناير/ كانون الثاني عام 1955م، فبرّأت المحكمة اثنين من المتهمين نظرًا لعدم كفاية الأدلة، بينما حكمت على ستةٍ آخرين بالسجن لفترات تراوحت ما بين سبع سنوات والمؤبد، وحكم على مارسيل بالسجن 15 عامًا، بينما حكم على زعيمي الحركة السرية - شموئيل عازار والدكتور موشيه مرزوق - بالإعدام. لم تفلح الالتماسات التي قدمتها إسرائيل عن طريق رؤساء دول وشخصيات بارزة وقادة دينيين في التأثير على الحكومة المصرية للعفو عن المحكوم عليهم بالإعدام. وفي 31 يناير/ كانون الثاني تم شنق عازار ومرزوق في باحة سجن القاهرة المركزي.

لم تعرف مارسيل أن تنفيذ حكم الإعدام قد أثار في إسرائيل موجة احتجاجات شعبية غير مسبوقة، الأمر الذي أدى إلى استقالة وزير الحرب لافون، وإلى أزمة سياسية وعسكرية حول السؤال - من أعطى الأمر لـ «قضية العار» في مصر؟ فعاد بن جوريون وزيرًا للحرب. كما لم تعلم مارسيل أيضًا أن المصريين لم يضايقوا مبعوث الاستخبارات الإسرائيلية «بول فرانك» أبدًا، إذ حزم أمتعته وباع سيارته، ثم غادر مصر دون أن يقف أحد في طريقه.

بعد المحاكمة تم نقل مارسيل إلى السجن، فوجدت نفسها وسط مجموعة من العاهرات، والقاتلات، ومهربات المخدرات، والسارقات. أمرتها حارسة السجن: «اجلسي على الأرض، معهن جميعًا!»

لكنها لم تكن مستعدةً لمشاركة سنواتها في السجن مع العاهرات والمجرمات. قالت: «أنا لن أبقى هنا. انقلوني من هنا، وإلا سأبدأ إضرابًا عن الطعام». أصر الحراس، وجادلوا، وهددوا، لكنها كانت عازمة.

تقرر في النهاية نقلها إلى سجن القناطر خارج القاهرة. وبعد أن مرت بعدد من الأجنحة، تم نقلها أخيرًا إلى جناح الأحداث الجانحات، وأُودعت وحيدةً في زنزانةٍ كبيرة ضمن بناء المستشفى.

في سنتها الأولى لم يكن لها أي اتصالٍ بالخارج. ولفترة طويلة لم يتمكن شقيقها الشيوعي من المجيء لزيارتها. ولم تحصل حتى على كتب أو جرائد. وفي النهاية تمكن شقيقها وعائلته من الحصول على تأشيراتٍ لفرنسا، وقبل المغادرة زارها وقدم لها هدية خيالية: مغسلة، مغسلة حقيقية تم تثبيتها في الزنزانة. وبعد فترة، تم تخفيف النظام في السجن، وأرسل لها «الشبان»، أعضاء الحركة السرية الذين كانوا في سجن آخر، كتبا ومجلات من العالم.

لم تمض الأيام حتى اندلعت حرب سيناء (العدوان الثلاثي على مصر) في أكتوبر/ تشرين الأول عام 1956م. لم يصل إلى مسامع مارسيل إلا مقتطفات من الأخبار، وعند انتهاء الحرب، جاء إلى زنزانتها مدير

السـجن شـخصيًّا، وكان متألقًـا بزيـه العسـكري الكامـل وفي جعبتـه أخبـارٌ سـارة لهـا. قـال لهـا مبتسـمًا: «مارسـيل، سـيتم تحريـرك قريبًـا. سيُجرى قريبًـا تبـادل أسرى مـع إسرائيـل، وسـيطلبون تحريركـم طبعًـا». كان لـدى إسرائيـل أكثـر مـن 5000 أسـيرٍ مـصري، وكان الجنـرال الدجـوي، الحاكـم العسـكري لقطـاع غـزة، ورئيـس المحكمـة التـي حكمـت عليهـا بالسـجن 15 عامًـا ضمـن الأسرى.

قالـت إن «موجـة مـن السـعادة» قـد جرفتهـا، وإن الكوابيـس قـد انتهـت، وقريبـا سـتكون في إسرائيـل، غـير أنـه ومـع مـرور الأيـام، والأسـابيع، والشـهور لم يحـدث شيء. لقـد قـرأت في الصحـف أن أسرى الحـرب عائـدون، وشـاهدت صـورًا للجنـرال الدجـوي في إسرائيـل يصعـد عـلى متـن طائـرةٍ تابعـةٍ للأمـم المتحـدة متوجّهًـا إلى القاهـرة، وسـيحظى باسـتقبال حافـل عنـد عودتـه إلى مـصر. ثـم في النهايـة، عـاد آخـر أسـيرٍ مـصري إلى مـصر، كـما أن الطيـار الإسرائيـلي الـذي أسره المصريـون - عـاد إلى إسرائيـل.

كان حجـم خيبـة أملهـا كبـيرًا. كل عالمهـا، وكل إعجابهـا بإسرائيـل انهـار بـين عشـية وضحاهـا. لقـد اتضـح لهـا أن إسرائيـل لم تطالـب خـلال مفاوضـات تبـادل الأسرى بالإفـراج عـن سـجناء «قضيـة العـار». لم تعـرف مارسـيل عـلى الإطـلاق أنـه خـلال عمليـة قـادش (العـدوان الثلاثـي عـلى مـصر)، خطـط أبراهـام دار لعمليـةٍ مشـتركةٍ مـع المظليـين الفرنسـيين الذيـن هبطـوا في مـصر. جـاء الإنـزال الفرنـسي في إطـار «عمليـة السـويس»، التـي بدأوهـا مـع البريطانيـين، بالتـوازي مـع «عمليـة قـادش» الإسرائيليـة. لقـد كان الفرنسـيون

حلفاء لإسرائيل، وكانوا يعتزمون مساعدة أبراهام دار في تحرير سجناء «قضية العار» أثناء احتلال القاهرة. إلا أن الحملة الفرنسية-البريطانية فشلت، وتم إلغاء عملية أبراهام دار. ومع ذلك، نجح دار وصديقه أرييه (لوفا) إلياف، وكلاهما كان يرتدي الزي العسكري الفرنسي، في تحميل 67 شخصًا من يهود بور سعيد على متن زورقَي صيد وإيصالهم بأمان إلى أرض فلسطين.

لكن عندما عاد أبراهام دار إلى إسرائيل، تبين له أن إسرائيل لم تحرك ساكنًا من أجل محكومي القاهرة. فطلب محاضر محادثات تبادل الأسرى، وتفاجأ لما اكتشف أن إسرائيل لم تتطرق البتّة إلى أسرى القضية. لم يكن هناك أي تفسيرٍ لهذا التجاهل الفظيع.

الواقع أن عاصفةً سريّةً غير مسبوقةٍ قد هزت الحكومة الإسرائيلية. حيث لم يكتشف رئيس الحكومة شاريت ووزراؤه أن تلك الأعمال التخريبية قد نُفذت بأوامر صادرة من إسرائيل إلا من خلال محاكمات القاهرة. وقد تلخّص هذا الفشل الذي حدث في مصر بسؤالٍ واحد: من أعطى الأوامر لهذه العملية المثيرة للسخرية؟ تبادل لافون وجيبلي الاتهامات، ولم تتمكن لجنة التحقيق السرية من تحديد المذنب. ويبقى سؤال: «من أعطى الأوامر؟» يؤثر سلبًا على الحياة السياسية في إسرائيل لسنوات، كما سيقود أيضًا إلى العملية التي ستنتهي باستقالة بن جوريون من منصبه في نهاية المطاف.

* * *

مرضـت مارسـيل عـدة مـرات، وفي إحـدى الحـالات تـم نقلهـا إلى مشـفى في القاهـرة، ومـن هنـاك تمكنـت مـن تهريـب رسـائل إلى شـقيقها في باريـس. فكتبـت: «لا تقلقـوا، سـأصمد». وأضافـت في رسـالة أخـرى: «إن كان لديكـم كتـبٌ جيـدة حافظـوا عليهـا جيـدًا، فأنـا أنـوي قراءتهـا جميعًـا». لم تسـمح مارسـيل للسـوداوية والكآبـة بالسـيطرة عـلى أفعالهـا. لقـد قـررت أن تعمـل ونظمـت الأسـيرات الأخريـات في مجموعـة خياطـة وتطريـز، وقـد حصلـن عـلى راتـب أيضًـا مقابـل عملهـن.

هكـذا سـارت الأمـور سـنةً بعـد أخـرى. حتـى أكملـت مارسـيل 13 عامًـا في سـجنها، فقطعـت إحداهـن عليهـا وحدتهـا مارسـيل، إذ فتـح بـاب الزنزانـة، وأدخـل حـراس السـجن فتـاةً شـقراء جميلـة.

قال أحد الحراس: «ستكون شريكتك في الزنزانة».

التفتـت الشـقراء إلى مارسـيل وابتسـمت، ثـم قالـت: «اسـمي فالـتراود، لكـن أصدقائـي يدعوننـي تيـدي».

(7)

فالتراود: السيدة لوتز الغامضة

يونيو/ حزيران عام 1961م، بعد الظهر.

كان «أورينت إكسبريس» (قطار الشرق السريع)، القطار الأكثر فخامة في أوروبا، يشق طريقه عبر المناظر الطبيعية الخلابة في بافاريا. خرجت تيدي من مقصورتها، منزعجةً من العجوز الجالس على المقعد المقابل لها والذي كان يحدق فيها بوقاحة. اقتربت من النافذة التي في الممر. كان يقف هناك رجلان يتحدثان بالإنجليزية.

سأل أحدهم: «متى سنصل إلى ميونخ؟» لكن الآخر لم يعرف الإجابة.

تدخلت تيدي في المحادثة: «سيصل القطار إلى ميونخ في الساعة السادسة».

التفتا إليها، فابتسم الأقرب لها وقال: «أنت مسافرة إلى ميونخ؟» كان نحيلا، أشقر، وسيمًا، يرتدي بدلة وربطة عنق. وقد فتنتها عيناه الزرقاوان.

أجابت: «لا، سأنزل في شتوتغارت».

سألها: «ماذا تفعلين هناك؟» فيما ابتعد الرجل الآخر الذي كان يقف بجواره.

«والداي يعيشان في هايلبرون، بالقرب من شتوتغارت، وأنا آتية لزيارتهما. ثم سأذهب لزيارة صديقة لي في فيشباخاو».

«أنا لا أعرف هذا المكان».

«إنها بلدة صغيرة، تبعد حوالي 60 كيلومترًا عن ميونخ. لم أذهب إلى هناك منذ سنوات».

«من أين أنت قادمة الآن؟»

ابتسمت. «من كاليفورنيا المشمسة».

تبادلا بعض الجمل العشوائية الأخرى بينما كان ينظر إليها. «بدلا من التحدث هنا، في الممر، لم لا ندخل إلى مقصورتي؟ يمكننا التحدث هناك بهدوء».

فكرت في العجوز الجشع الذي في مقصورتها. «لم لا؟»

جلسا في مقصورته، وسارت المحادثة من تلقاء نفسها. لقد أخبرته عن حياتها، وشبابها في سيليزيا في ألمانيا الشرقية، والهروب إلى الغرب، والسفر إلى أمريكا. حيث قضت أيامها الأولى في جورجيا قبل أن تنتقل إلى

كاليفورنيا، حيث عملت هناك كخادمة ثم مسؤولة عن الغرف في فندق كبير في سان فرانسيسكو. وهو؟

كشف لها أنه يعيش حاليًّا في القاهرة ويدير هناك مزرعة خيول. لقد تحدث عن مصر، والأهرامات، والصحراء، وعن مزرعة الخيول الأصيلة، وعن علية القوم في مصر من الجيش والسياسيين الذين يأتون إلى مزرعته لركوب الخيل وإلى منزله لحضور حفلات الكوكتيل. أعجبها هذا العالم الغريب والمتألق على حد سواء، وقد سألته بعض الأسئلة وأثنى هو على ذكائها.

دخل مفتش التذاكر إلى المقصورة وخاطبهم بالألمانية. فوجئت به يرد بالألمانية بطلاقة. فسألته بدهشة: «هل تعرف الألمانية؟»

أجابها: «بالتأكيد، أنا ألماني. آسف لأنني لم أقدم نفسي من قبل. اسمي فولفغانغ لوتز، لكن أصدقائي يدعونني راستي».

«أنا فالتراود نيومان، ولكن باختصار تيدي».

أطلقت القاطرة صافرة إنذارٍ قصيرة. «حسنا، أنا سأنزل في المحطة القادمة. سررت بلقائك».

بدا مترددًا للحظة، ثم قال: «ربما نتقابل في ميونخ؟» أخرج دفترًا من جيب سترته، ونزع منه صفحة وخربش عليها بعض الأرقام. «هذا رقم هاتفي في ميونخ، اتصلي بي إذا أردت الخروج ذات مساء وسآتي لاصطحابك، لدي سيارة هناك».

هــزت رأســها بالرفــض. «مســتحيل، ســأكون مشــغولة مــع والــدي وصديقتــي». كانــت تيــدي تعلــم أنــه لــن يكــون لديهــا الوقــت أو الرغبــة بالخــروج مــع شــخصٍ غريــبٍ في ميونــخ، لكنهــا مــع ذلــك أخــذت الورقــة التــي عليهــا رقــم الهاتــف.

* * *

اســتقبلتها صديقتهــا في فيشــباخاو كالعــادة، بالعنــاق والقبــلات. لقــد شــعرت بســعادة غامــرة مــن الاســتقبال ومــن هــدوء القريــة الصغــيرة والمناظــر الطبيعيــة الخلابــة المحيطــة بهــا، ولكــن سرعــان مــا تلاشــت حماســتها وحــل محلهــا الملــل الــذي كان يــزداد مــن ســاعة إلى أخــرى. لم يكــن لديهــا مــا تفعلــه، وليــس في القريــة مــكانٌ تذهــب إليــه، ولم يكــن الترفيــه واردًا عــلى الإطــلاق. لقــد ســئمت مــن الهــدوء الرائــع في أحضــان الطبيعــة. أخــبرت صديقتهــا أنهــا التقــت بـــ «فــارس أحلامهــا» في القطــار، ثــم رفعــت ســماعة الهاتــف واتصلــت بالرقــم الــذي أعطاهــا إيــاه «راســتي».

في نفــس اليــوم، جــاء بســيارته الجميلــة واصطحبهــا إلى ميونــخ. عشــاءٌ في مطعــمٍ فاخــر، ثــم جولــة في الحانــات والنــوادي الليليــة. بــدا أنــه يســتمتع بصحبتهــا أيضًــا. خــلال المســاء، تجــرأ واقــترح عليهــا أن تذهــب معــه في «إجــازة». قــال إنــه عــلى وشــك أن يبحــر مــن إيطاليــا إلى مــصر في غضــون عــشرة أيــام تقريبًــا، لكــن في هــذه الأثنــاء كان مــن الممكــن الســفر إلى النمســا، وبعدهــا إلى إيطاليــا. كان إغــراء قضــاء أســبوعين مــع هــذا الرجــل الســاحر

عظيـمًا. وعندمـا أوصلهـا، بعـد منتصـف الليـل، إلى غرفـة الفنـدق التـي حجزها لها، رافقها راستي إلى المدخل وانحنى ليقبلها على خدها ويتمنى لها ليلة سعيدة. في تلك اللحظة تحرك شيء بداخلها، فحضنته بحرارة. وهمست له: «سأسافر معك، راستي».

* * *

لم يفترقا منذ ذلك المساء، وسرعان ما تطورت العلاقة بينهما إلى علاقة حبٍ، فاجأت الاثنين معًا. وفي غضون يومين، فاجأ نفسه - كما كشف لها فيما بعد - وعرض عليها الزواج. وما هي إلا بضعة أيام حتى كشف لها راستي سره: قال لها أنه لا يمتلك مزرعة خيول في القاهرة وحسب، بل هو موجود هناك أيضًا في مهمة سرية لجمع المعلومات الاستخباراتية - باختصار، كان جاسوسًا. هذا الاعتراف ألهب خيالها فقط، وبدا لها مثل فيلم بوليسي! لكن ما أزعجها هو سؤال واحد: يتجسس لصالح من؟ لقد كانت تكره الشيوعيين ودول الكتلة الشرقية، كما أنها لم تكن متحمسةً لبلدها، ألمانيا. تردد راستي قليلا، قبل أن يكشف لها أنه يتجسس لصالح إسرائيل.

«إسرائيل؟» أحبت ذلك بالفعل. لقد سمعت الكثير من الأشياء الجيدة عن إسرائيل.

وهكذا وافقت على الزواج منه.

كانت تيدي تعلم بالطبع أن «فولفغانغ لوتز» قد ولد في مانهايم

بألمانيـا، كـما قـال لهـا، ولكـن مـا لم تكـن تعرفـه هـو أنـه لم يكـن ألمانيـا عـلى الإطـلاق، بـل كان إسرائيليـا يدعـى زئيـف جـور آري، وهـو ضابـط في الجيـش الإسرائيـلي مـن الوحـدة 131 المشـتركة لهيئـة الاسـتخبارات و»الموسـاد». (أصبحـت هـذه الوحـدة في وقـت لاحـق وحـدة قيسـاريا، الوحـدة العملياتيـة للموسـاد). لم تعـرف فالـتراود أيضًـا أنـه ولـد لأب ألمـاني وأم يهوديـة، فـرت معـه إلى فلسـطين بعـد وصـول هتلـر إلى الحكـم. هـو نفسـه نشـأ في فلسـطين، وشـارك في الحـرب العالميـة كجنـدي في الجيـش البريطـاني، ثـم خـاض حـرب 48، وسُرّح برتبـة نقيـب. عمـل بعـد الحـرب في عـدد مـن المهـن لكنـه لم ينجـح، وفي النهايـة عـرض نفسـه عـلى هيئـة الاسـتخبارات؛ وطلـب الذهـاب إلى دولـة معاديـة لفـترةٍ طويلـة. لاحـظ مسـؤولو الوحـدة ضعفـه تجـاه النسـاء والكحـول، وشـعروا بأنـه لم يكـن مسـتقرًا تمامًـا، لكنهـم أعجبـوا بشـدة بهـدوء أعصابـه وثقتـه بنفسـه. تـم تدريبـه في فيـلا منعزلـةٍ في رمـات حـين، وتعليمـه طـرق الاتصـال، وإرسـال الإشـارة. الحـبر السـري، التشـفير، المراقبـة والتعقـب، وصياغـة التقاريـر الاسـتخباراتية. كان رؤسـاؤه يلقبونـه «فولفـي»، لكـن اسـمه الحركـي كان «شمشـون». وبعـد انتهـاء فـترة تدريبـه، قـرر مسـؤولو الوحـدة إرسـاله إلى مـصر متخفيًـا بشـخصية ألمـاني.

لم يخبر فالـتراود بـكل ذلـك، كـما أنهـا لم تكـن تعـرف أيضًـا سره الكبـير: فحبيبهـا الـذي احتفـل ذلـك العـام، 1961م، بعيـد ميـلاده الأربعـين، كان متزوجًـا مـن ريفـكا جـور آري، ولهـما ابـن اسـمه عوديـد، وكانـت عائلتـه تعيـش مؤقتًـا في باريـس، التـي كانـت في ذلـك الوقـت تشـكل القاعـدة

الأمامية للموساد في الخارج. عندما التقى بفالتراود في القطار كان عائدًا من اجتماع مع مشغّله في باريس، أريه سيفان، وكان قد فارق عائلته قبل ذلك ببضع ساعات فقط.

لكن وسط كل هذه الستارة من الأكاذيب المنسوجة حول هويته ومهمته، كان هناك جزء حقيقي واحد: لقد أحب فالتراود حقًّا، حبًّا مجنونًا، كاملا. وكما قالت صديقة تعرفهما كليهما: إنه «يموت عليها»، وقد أراد حقًّا أن يمحو من ماضيه أي علاقة بعشيقةٍ أخرى هنا أو هناك وأي امرأةٍ شاركها حياته من قبل.

بعد مرور عدة أسابيع، وصلت فالتراود على متن سفينة إلى الإسكندرية. لم يكن بانتظارها في المرفأ إلا قائد الشرطة المحلية، الذي حرص على نقلها إلى القاهرة. لقد أحبت كل شيء – المناظر الطبيعية في مصر، الشقة في الزمالك، الحي القاهري الفاخر الساحر، الحفلة التي نظمها لها فولفغانغ بمناسبة وصولها. وبعد بضعة أسابيع انتقلا للسكن في فيلا جميلة في حي الجيزة، ليس بعيدًا عن الأهرامات. تفاجأت فالتراود من شبكة المعارف التي نسجها لوتز مع كبار المسؤولين وضباط الجيش، بما في ذلك رؤساء الأجهزة السرية. كان من بين أصدقائه أيضًا أفراد الجالية الألمانية في القاهرة، وكان بعضهم ضباطًا سابقين في جيش هتلر، تماما «مثل» لوتز الذي كان يفاخر برتبة نقيب مزعومة في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية. لقد كانت تكره النازيين، لكنها فهمت أنه كان يجب على راستي أن يتظاهر بأنه واحد منهم.

أثـارت مزرعـة الخيـول أيضًـا حماسـتها، وبـدأت في ركـوب الخيـل كل يـوم. وكانـت تقـضي الليـالي مـع حبيبهـا في المطاعـم والنـوادي الليليـة المرموقـة في العاصمـة المصريـة. كـما أنهـا كانـت تقـدم لـه أيضًـا مسـاعدة كبـيرة في عملـه الـسري – فقـد اسـتضافت أفـرادًا عسـكريين وكبـار المسـؤولين في منزلهـم أو في حفـلات أخـرى، وعرفـت كيـف تسـحرهم وتجرُّهـم إلى الكلام، وسـاهمت بشـكل كبـير في أعـمال التجسـس التـي قـام بهـا راسـتي. في الواقـع، أصبحـت تيـدي ابنـة الــ 29 ربيعًـا شريكـة كاملـة معـه. كانـت تجلـس بجانبـه عندمـا كان يشـفر ويبـث تقاريـره إلى إسرائيـل، وسـاعدت في إخفـاء جهـاز الإرسـال والوثائـق التـي تدينـه، وحرصـت عـلى عـدم ظهـور ضيـوفٍ غـير مدعوّيـن في أثنـاء انشـغاله بأعمالـه السريـة. لقـد أصبحـت اليـد اليمنـى لفولفغانـغ لوتـز.

* * *

بعـد عـام، سـافر الاثنـان لقضـاء إجـازة في أوروبـا، حيـث تزوجـا دينيًّـا وقانونيًّـا. والتقـط الزوجـان الشـابان السـعيدان الصـور بالقـرب مـن منـزل والـدي فالـتراود في هايلـبرون، ثـم ذهبـا في شـهر عسـل طويـل قبـل أن يعـودا إلى مـصر.

لم تكـن تيـدي تعلـم أن زوجهـا لم يبلـغ رؤسـاءه في الموسـاد بزواجـه بهـا، ممـا جعلـه في الواقـع متعـدد الزوجـات، حيـث كان متزوجًـا مـن امرأتـين في نفـس الوقـت. كان الجميـع في قيـادة الموسـاد في تـل أبيـب مقتنعـين أن لوتـز يعمـل في القاهـرة لوحـده. لكـن في أحـد الأيـام، عندمـا أرسـل مظروفًـا

يحوي إيصالات مختلفة حول نفقاته في مصر، اكتشف الضابط إيتان بن عامي شيئًا غريبًا. في تلك الأيام، كان من المعتاد تصنيع مظاريف باهظة الثمن مبطنة من الداخل بورق من الحرير البني. كان مكتوبًا على ورق الحرير الذي يبطن مظروف إيصالات لوتز بالإنجليزية: «السيد والسيدة فولفغانغ لوتز». وبعد فحص سريع تكشفت الحقيقة. تم استدعاء لوتز إلى إسرائيل وتوبيخه بشدة، وبدا أنه ستتم إعادته أخيرًا من مصر وطرده من الموساد، أو إجباره على قطع علاقته مع «الألمانية»، حيث إن اللوائح الصارمة في الموساد تنص على أن مثل هذه الأعمال محظورة تمامًا. غير أن رئيس الوحدة العملياتية يوسكا ياريف غير رأيه في اللحظة الأخيرة قبل أن تنفجر القضية، وقد قال زميله موتي كفير: «لقد أدرك ياريف مبكرًا ميزة إدارة وكالة». لقد بات مقتنعًا بأن زوجة لوتز الجديدة ستساعده كثيرًا في أنشطته وتخدمه كشريكٍ موهوبٍ ومخلص وتدعمه بثبات. هكذا أصدر ياريف حكمه بأن تبقى فالتراود في القاهرة ويواصل «السيد والسيدة فولفغانغ لوتز» نشاطاتهما كما هو الحال في السابق. كان قرارًا صعبًا وغير مسبوق، ولم يتم ذكر أي كلمة حول هذا الموضوع لزوجته ريفكا وابنهما.

استمرت حياة الزوجين لوتز في القاهرة بنفس الروتين - ركوب خيل، حفلات، الحصول على معلوماتٍ استخباراتيةٍ مهمة، نشاط تحت غطاء مثالي. اعتاد لوتز أن يقوم بالبث إلى إسرائيل واستقبال الإرسال من هناك في الصباح الباكر، دائمًا من غرفة النوم في الطابق الثاني، حيث

كان يقـوم بفـك شـيفرة الإرسـال المشـفر، ويحـرق الورقـة في مرحـاض الحـمام ويخفـي جهـاز الإرسـال والميكروفـون وسـماعات الـرأس في ميـزان «مراقبـة الـوزن» الـذي جلبـه معـه مـن أوروبـا. كان ذلـك الميـزان مفخخـا بعبـوة ناسـفة، وإذا حـاول أحـد مـا فتحـه بغـير طريقتـه الخاصـة السريـة، فسـوف يصـاب مـن انفجـار العبـوة. وقـد اعتـادت فالـتراود عـلى هـذا الإجـراء وسـاعدت زوجهـا أثنـاء البـث.

لكن عاصفةً ما حدثت فجأة!

* * *

في 21 يوليو/ تمـوز عـام 1962م، أجـرى الجيـش المـصري تجربـةً مفاجئـةً لإطـلاق صواريـخ يصـل مداهـا إلى مئـات الكيلومـترات.

وفي 23 يوليو/ تمـوز عـام 1962م، عيـد الثـورة في مـصر، أُقيـم العـرض العسـكري التقليـدي في شـوارع القاهـرة. وكانـت المفاجـأة، إذ تـم الكشـف لأول مـرة عـن صاروخـين ضخمـين، يغطيهـما العلـم المـصري، وكانـت تجرّهمـا شـاحنتان ثقيلتـان. وألقـى الرئيـس عبـد النـاصر كلمـة، أعلـن فيهـا أن صاروخـي «الظافـر» و «القاهـر» يمكنهـما إصابـة أيّ هـدفٍ «جنـوب بـيروت». كان مـدى صـاروخ الظافـر 280 كيلومـترًا، بينـما القاهـر يصـل إلى 560 كيلومـتر.

أصيبـت إسرائيـل بالصدمـة والقلـق. لقـد كانـت معرضـةً بالكامـل لخطـر هجـوم صاروخـي. ولم يكـن لـدى الموسـاد أي معلومـاتٍ مسـبقة عـن

الصاروخين المصريين. أصبح رئيس الموساد إيسر هاريل هدفًا لانتقاداتٍ لاذعة من قبل مسؤولي الأمن بسبب عدم معرفته شيئًا عن برنامج الصواريخ المصري، فأصدر أوامره على الفور إلى جميع عملائه في مصر بالحصول على تفاصيل عن البرنامج.

تم استدعاء لوتز بشكل عاجل إلى أوروبا، والتقى بمشغّله في ميونخ. ثم سافر إلى باريس لمقابلة رئيس الوحدة يوسكا ياريف، الذي أجرى معه تحقيقًا عميقًا. وقبل عودته إلى مصر، طلب منه ياريف جمع معلومات من الخبراء الألمان الذين يستضيفهم كثيرًا في منزله بالقاهرة.

راجع الموساد تدريجيًّا القصة التي وراء التجربة الصاروخية. اتضح أن مصر منذ سنوات قد جندت سرًّا المئات من العلماء والمهندسين والفنيين الألمان الذين عملوا سابقًا في مصانع الصواريخ والطائرات التابعة لهتلر. وقد أنشأوا في مصر ثلاثة مصانع سرية: مصنع «36» الذي صمم فيه مهندسون ألمان طائراتٍ نفاثةٍ مصرية بناءً على أوامر من ويلي ماسرشميت، مصمم ومُصنّع طائرات ماسرشميت في سلاح الجو النازي؛ مصنع «135» الذي سيصنع فيه المهندس فرديناند براندنر محركات نفاثة للطائرة الجديدة؛ وأكثر المصانع سرية، «333»، الذي صنع فيه العلماء الألمان صواريخ متوسطة المدى. كما اكتشف ضباط الموساد أيضًا عددًا من الشركات في ألمانيا وسويسرا، كانت تربطها علاقات بالمصانع المصرية وساعدتهم في الأبحاث وتوريد العتاد وقطع الغيار. قسم بعض العلماء وقتهم بين المصانع التي في مصر ومختبرات ومعاهد الأبحاث التي كانت

بخدمتهم في أوروبا. انتشرت في إسرائيل شائعات مروعة: يريد الألمان في مصر أن يسلحوا الرؤوس الحربية لصواريخهم برؤوس متفجرة نووية أو مشعة أو كيميائية؛ إنهم يشترون كمياتٍ هائلة من غازَيْ الكوبالت والسترونتيوم، واللذين يمكن أن يسمما الهواء فوق إسرائيل لسنوات عديدة؛ كما أنهم يطورون أشعة الموت التي يمكن أن تقضي على أي كائن حي. بدا أن إبادة اليهود على يد الألمان مستمرة، وتم إعادة إحياء الصليب المعقوف، لكن هذه المرة في صحاري مصر.

كان بعض الخبراء الألمان يحضرون الحفلات التي يقيمها راستي وتيدي في منزلهما، أو يزورون نادي ركوب الخيل الخاص بهما. واستمد الاثنان منهم الكثير من المعلومات عن برنامج الصواريخ. وقد اكتشفا مع محاربي الموساد الآخرين في مصر موقع مصنع «333» في قلب الصحراء شمال القاهرة. لكن في ربيع العام 1963م، وصلت إليهما معلومات عن تجربة صاروخية في قاعدة سرية جديدة، أنشئت في منطقة شالوفا القريبة من قناة السويس، بالقرب من البحيرة المرة الكبرى. كان لوتز وزوجته قد فتشا سابقًا في هذه المنطقة، لكنهما لم يعثرا على أي أثر لقاعدة سرية. إلا أن لوتز تلقى أوامر مشفرة وعاجلة باكتشاف هذه القاعدة بأي ثمن.

بعد أن فك لوتز شيفرة الإرسال، قال لزوجته: «يجب عليَّ الذهاب مرة أخرى إلى تلك المنطقة».

«ألا يمكنك الحصول على معلوماتٍ عن ذلك من أحد جنرالاتك؟ ربما من أحد الخبراء الألمان؟»

فأجاب بالنفي. وكرر بأنه يجب عليه الذهاب إلى هناك.

قاطعته فالتراود: «حسنًا، سآتي معك!»

انحنى الاثنان على خريطة المنطقة، كانا قد تجولا فيها عدة مرات في الماضي. علّق لوتز بأنه إذا كانت هناك قاعدة في تلك المنطقة، فيجب أن يكون هناك أيضًا طريق للوصول إليها. وهكذا ركزا على الطريق الصحراوي.

قالت فالتراود: «أنا أذكر طريقين جانبيين متفرعين من الطريق الصحراوي. أحدهما طريقٌ ترابي، يبدو غير مهم، والآخر عليه حرس. توجد هناك أيضًا لافتة «ممنوع الدخول. ممنوع التصوير».

تحدث الاثنان عن خطر التسلل إلى منطقةٍ عسكريةٍ مغلقة، وأصر فولفغانغ أن يذهب إلى هناك بمفرده. لكنها ثارت: «أوه، لا! مستحيل! في حالات الطوارئ، الاثنان أفضل من واحد!» ثم اقترحت فالتراود فورًا قصةً للتمويه: يستقل الاثنان سيارتهما الفولكس فاغن، ويأخذان معهما المناشف وملابس السباحة، بالإضافة إلى سلّةٍ مليئةٍ بالمأكولات الشهية، ويخرجان في «نزهة في أحضان الطبيعة»، على ضفة البحيرة المرة.

انطلق الاثنان. كانت فالتراود تقود ولوتز يوجّهها معتمدًا على الخرائط التي بحوزته. وبعد حوالي ساعة، وصلا إلى مفترقٍ يتفرع منه طريقٌ إسفلتي حالته جيدة. وكان على جانب الطريق نقطة حراسة ولافتة مكتوب عليه «ممنوع الدخول». وإلى جانب النقطة كان يقف حارس يشعر

بالملل. اجتازت سيارة الفولكس فاغن التقاطع، ثم نفذت استدارة كاملة وعادت إلى المفترق. ولحسن حظ الزوجين، كان الحارس قد ترك نقطته في هذه الأثناء وذهب لقضاء حاجة في الصحراء. كانت هذه فرصتهما. تجاوزت الفولكس فاغن نقطة الحراسة الفارغة، وأسرعت منطلقةً على الطريق المحظور. طاردهما الحارس بالصراخ، لكنهما كانا قد أصبحا بعيدين بالفعل. وبعد أن قطعا بضع مئات من الأمتار، تجاوزتهما سيارة جيب عسكرية، فتوقفت ثم استدارت وبدأت بمطاردتهما. بحث لوتز عن أي طريقة للبقاء في المنطقة بالرغم من المطاردة، فاقترح على فالتراود أن تخرج من الطريق وتعلق في الرمال. ففعلت ذلك بمهارة كبيرة.

وصلت الجيب العسكرية إليهما، تظاهر الزوجان لوتز بالبراءة وطلبا بالإنجليزية والألمانية مساعدة الجنود في إنقاذ السيارة العالقة في الرمال العميقة. سحب الجنود بنادقهم وألقوا القبض على الاثنين وأخذوا جوازي سفرهما واقتادوهما بسيارة الجيب إلى القاعدة. وما إن اجتازوا الحاجز على مدخل القاعدة، حتى شاهد الاثنان ما كانا يبحثان عنه: منصات إطلاق صواريخ مجهزة وسط حقل مرتفع، وتحصينات عسكرية، ومستودعات ومبان إدارية. لقد كانت هذه بالفعل قاعدة الصواريخ السرية!

اقتيد الاثنان إلى مكتب قائد القاعدة. كان ضابطًا برتبة عقيد طويل القامة وذو شارب. وقد هددهم بالسجن وبالمزيد من المتاعب، لكن فولفغانغ لوتز أقنعه بالاتصال بعدد من الجنرالات والعقداء في

القاهرة الذين كانوا أصدقاءه المقربين. وبعد أن سمعوا من لوتز تبريراته عن «النزهة على ضفاف البحيرة المرة»، أمر المسؤولون قائد قاعدة الصواريخ بإطلاق سراح الزوجين المحتجزين فورًا. وفعلا قام العقيد المحرج بإطلاق سراح الاثنين، وأرسل جنوده لإنقاذ سيارتهم العالقة، بل وأيضًا... دعاهم لتناول الغداء في القاعدة. وعند عودتهم إلى القاهرة، سارع لوتز بإرسال تقرير إلى إسرائيل عن النتائج التي توصلا إليها.

لكن رئيس الموساد إيسر هاريل لم يكتف بذلك. فقد قرر إطلاق سلسلة من الهجمات والاغتيالات ضد العلماء الألمان. في البداية، اختفى مدير شركة «إنترا» الدكتور هاينز كروج من مكاتب الشركة في ميونخ؛ حيث كانت إنترا مرتبطةً بمشروع العلماء في مصر. وانتشرت إشاعات في القاهرة بأن كروج قُتل على يد الموساد. وتم تنفيذ محاولة اغتيالٍ أخرى في لوراخ بألمانيا ضد خبير الصواريخ الدكتور هانز كلاينفختر. كما تم إرسال طرودٍ مفخخة ورسائل تهديد إلى العديد من كبار العلماء في مصر. وقد كلف الزوجان لوتز بالجزء الأكبر من هذه العملية – إرسال الطرود المفخخة.

كان فولفغانغ لوتز يتلقى المواد المتفجرة مخبأة في صابون ماركة «ياردلي» وآليات تشغيل صغيرة، فكان يحزمها في المظاريف والطرود ويكتب عليها العناوين، ثم يضع عليها طوابع مصرية ويرسلها إلى العلماء. لكن النتائج كانت كئيبة: أدى انفجار أحد الطرود إلى مقتل خمسة عمال مصريين في مصنع «333»، وفي انفجار آخر، أصيبت هانلورا

واندا سكرتيرة البروفيسور فيلتز، أحد كبار العلماء في مصر إصابة خطيرة وفقدت بصرها، كما أصيب مدير مكتب بريدٍ في القاهرة بعد أن فتح طردًا شك في أمره. وفي وقت لاحق، تم تغيير التعليمات الواردة من إسرائيل، فأرسل لوتز إلى العلماء رسائل تهديد تحذرهم بأن مصيرهم سيكون سيئًا للغاية إذا لم يتوقفوا عن أعمالهم الشيطانية على الفور. وكانت الرسائل تحمل توقيع «الجدعونيم». كان العديد من العلماء من رواد منزل الزوجين لوتز، ولكن أحدًا لم يشك بالزوجين الساحرين، اللذان ارتبط اسمهما بكل حفلةٍ ونشاطٍ ترفيهي في القاهرة.

وهكذا مرّ عامان إضافيان من النشاط المكثف والسفر إلى أوروبا والعمل ضد العلماء الألمان. الذين غادر الكثير منهم مصر، إما بسبب القلق أو لأن حكومة ألمانيا الغربية، التي عارضت أنشطتهم في مصر، عرضت عليهم وظائف برواتب أفضل في ألمانيا نفسها. وفي 16 فبراير/ شباط عام 1965م، أقام لوتز حفلة مبهجة بمناسبة عيد ميلاد فالتراود. طار والداها إلى القاهرة لحضور الحفلة، وقام فولفغانغ العاشق بإهداء من اختارها قلبه خاتمًا ألماسيا مذهلا! وألبسها إياه في إصبعها. وقد حضر تلك الحفلة عالمان ألمانيان، ستانغل وفوجلزانغ، واللذين لم يكونا يعرفان أن رسائل التهديد التي وصلتهما منذ بضعة أيام كانت قد أُرسلت من قبل مضيفَيْهما المفضلين. لكن وبعد ثلاثة أيام، خرج الزوجان لوتز، إلى جانب والدي فالتراود وزوج آخر من الأصدقاء، في رحلة في صحراء مصر الغربية. ولدى عودتهما، في 22 فبراير/ شباط، فوجئا بمنزلهما محاطًا

بعناصر الشرطة والجيش. انقض عليهما ضباط المباحث واعتقلوهما وقيدوا أيديهما. تم اتهامهما بأعمال التجسس والتخريب لصالح إسرائيل ضد الجمهورية العربية المتحدة (مصر). كما تم إلقاء القبض أيضًا على والدي فالتراود، لكن أُطلق سراحهما بعد بضعة أيام. فُصلت فالتراود عن زوجها ونقلت إلى جناح النساء في السجن.

صَدم خبر اعتقال الزوجين لوتز كل من كان يعرفهما في مصر. وتم اتهامهما بالتجسس والتخريب لصالح إسرائيل، أما أصدقاؤهما في الجيش والمناصب العليا فقد أداروا ظهورهم لهما. تصدر خبر اعتقالهما العناوين الرئيسة للصحف، وأسفرت التحقيقات معهما عن نتائج خطيرة. تم استجواب فالتراود بعنف وتجريدها من ملابسها وتعذيبها. لقد لكمها السجانون على بطنها وركلوها على ظهرها وأبقوها ليلة كاملة في حوض مملوء بالماء البارد، لكنها لم تعترف بشيء.

وفي قسم تحقيق آخر، اعترف زوجها بأنه يتجسس لصالح إسرائيل وأنه أرسل أيضًا طرودًا مفخخةً ورسائل تهديد للعلماء الألمان بناءً على أوامر من الاستخبارات الإسرائيلية. ووفقًا لإحدى الروايات، فإن لوتز لم يتم كشفه على الإطلاق من قبل المخابرات المصرية، بل جاء اعتقاله لسبب آخر. ففي تلك الأيام، كانت مصر تستعد لاستقبال فالتر أولبريشت، زعيم ألمانيا الشرقية، الشيوعية؛ فأوقفت السلطات المصرية - توقيفًا احتياطيًّا - حوالي 40 مواطنًا ألمانيا في القاهرة، قد يحتجون ضد زيارته. وكان من بين هؤلاء أيضًا لوتز وفالتراود، حيث كان القصد هو

توقيفهم أثناء فترة الزيارة فقط. على أن يتم إطلاق سراحهم عند مغادرة «أولبريشت» إلى بلاده.

لم يكن لوتز يعرف كل هذا واعتقد أنه وزوجته قد تم كشفهما بالفعل من قبل «المخابرات»، ولذلك قرر أن يقول كل شيء. وقاد عناصر الشرطة السرية إلى بيته، وفكك الميزان الذي في الحمام وسحب من داخله جهاز الاتصال اللاسلكي. كما وافق على الكشف عن كل ما فعله في مقابلة على التلفزيون المصري. لكنه عاد وأكد بشدة على أنه ألماني وأنه عمل جاسوسا لصالح إسرائيل من أجل المال فقط. وقد جاء محامٍ من ألمانيا للانضمام إلى فريق المحامين المصريين الذين كانوا على وشك الدفاع عن الاثنين في المحكمة.

لم يعرف الزوجان لوتز أن رئيس الموساد الجديد مئير عميت قد سافر بشكل عاجل إلى ألمانيا والتقى بالجنرال راينهارد غيلين رئيس المخابرات الألمانية الغربية. لقد طلب منه «أن يأخذ هذين الاثنين إليه»، ووافق غيلين على الفور. أبلغ مبعوثوه نظراءهم المصريين أن الاثنين، وهما ألمانيان خالصان، مرتبطان بالمخابرات الألمانية. كان تدخل غيلين مفيدًا؛ فقد قبل المصريون التفسير بشأن هوية لوتز الألمانية، بل وتجاهلوا أيضًا التقارير المفصلة التي نشرت في ألمانيا حول كون لوتز ضابطًا إسرائيليًّا، يعمل لصالح الموساد.

لم يتمالك لوتز أعصابه عندما علم، في أول لقاء لهما بعد الاعتقال، أن

فالـتراود تعرضـت للـضرب والتعذيـب مـن قبـل سـجانيها. كانـت هـذه هـي اللحظـة الأصعـب بالنسـبة لفالـتراود. لقـد أدركـت أنهـما تنتظرهمـا محاكمـة صوريـة سيتم في نهايتهـا إمـا إعدامهـما شـنقًا أو سـجنهما مـدى الحيـاة. سـألت زوجهـا: «لمـاذا نمنحهـم هـذه المتعـة؟ مـن الأفضـل أن ننهـي كل هـذا!»

كشـفت لراسـتي المذهـول أنهـا وجـدت شـفرة حلاقـة في الحـمام وخبأتهـا في نعـل حذائهـا. اقترحـت عليـه: «سـأعطيك نصفـه. سـنقوم كلانـا هـذه الليلـة في نفـس التوقيـت بقطـع عـروق أيدينـا، إنـه مـوت سـهل».

كان لوتـز مصدومًـا. لقـد عرضـت عليـه فالـتراود الانتحـار! حشـد كل قـوة الإقنـاع التـي لديـه وتمكّـن مـن ثنيهـا - مؤقتًـا - عـن هـذه الخطـة. لقـد وعدهـا بـأن تتحسـن حالتهـما وأنهـما قـد يطلـق سراحهـما مـن السـجن في غضـون بضعـة أشـهر. ووعدتـه بـأن لا تفعـل شـيئًا إلا بموافقتـه.

بالفعـل، تحسـنت حالتهـما. حيـث سـمح للزوجـين لوتـز رؤيـة بعضهـما البعـض يوميًـا تقريبًـا خـلال فـترة اعتقالهـما وطلـب وجبـات الطعـام مـن أحـد مطاعـم القاهـرة؛ كـما دُعـي الاثنـان إلى مكتـب رئيـس السـجن الجنـرال منـير كورولـوس، الـذي اسـتضافهما لاحتسـاء القهـوة أمـام الكامـيرات. وللتخفيـف عـن معاناتهـا في السـجن، كتـب راسـتي قصائـد بالإنجليزيـة لتيـدي، حتـى أنـه وضـح بعضهـا برسـوم كاريكاتوريـة مسـلية. لقـد كتـب لهـا عـن حبـه لهـا، وعـن الحيـاة الرائعـة التـي سـيحصلان عليهـا مسـتقبلا في منزلهـما، في مـكان مـا في أحضـان الطبيعـة، ووعدهـا رسـميًّا: «أبنـاء لوتـز السـعداء سـيركبون معنـا أيضًـا!»

وصـل الاثنـان إلى محاكمتهـما، التـي بـدأت في 27 يوليو/ تموز عـام 1965م، يمسكان بأيدي بعضهما البعض. كانـت هـي ترتـدي فستانًا أبيض بينما كان يرتـدي هـو بدلـةً رياضيـة. وُجّهـت لهـما تهمـة التجسـس لصالـح إسرائيـل، بـما في ذلـك تعقـب العلـماء الألمـان وإرسـال مظاريـف مفخخـة. وقـد أعجـب الحـاضرون في المحكمـة كثـيرًا بمظهـر فالـتراود الجميلـة، التـي كانـت ترتـدي ملابـس أنيقـة ونظـارات سـوداء. لقـد عـادت وتحدثـت عـن حبهـا الشـديد لزوجهـا وعـن حُلْمهـا بـأن تتمكـن في يـوم مـن الأيـام مـن إعـادة بنـاء حياتهـما معًـا. وفي شـهادتها، التـي تـم ترتيبهـا مسـبقًا مـع زوجهـا، قالـت فالـتراود: «كنـت مجـرد ربـة منـزل عاديـة. لم أقـم بالتجسـس لصالـح إسرائيـل ولم أرسـل ظروفًـا مفخخـة للعلـماء الألمـان في مـصر. كنـا أنـا وفولفغانـغ زوجـان متحابـان نرغـب حقًّـا في مواصلـة حياتنـا معًـا بسـلام وهـدوء». ونفـت أي علـم لهـا بعمـل زوجهـا، وادعـت أنهـا كانـت تعـرف فقـط أنـه يشـغل وظيفـة سريـة في الناتـو.

طالـب الادعـاء بإعـدام كلا الزوجـين. أصيبـت فالـتراود بالرعـب. ومـع ذلـك، في الحكـم الصـادر في 21 أغسـطس/ آب عـام 1965م، حكمـت المحكمـة عـلى فولفغانـغ لوتـز بالسـجن المؤبـد مـدى الحيـاة، بينـما حكمـت عـلى زوجتـه فالـتراود بالسـجن ثـلاث سـنوات.

(8)

الثلاثة اللواتي نلن حُرّيتهن

مـرت السـنوات، وبقيـت الجاسوسـات الإسرائيليـات الثلاثـة شـولا كوهـين ومارسـيل نينـو وفالـتراود لوتـز في سـجونهن، في القاهـرة وبـيروت. وقـد تحسـن وضعهـن بمـرو الوقـت، لكـن تزايـد الشـعور لديهـن بأنـه ليس هنـاك مـن يكـترث لأمرهـن.

أُودعـت فالـتراود في سـجن القناطـر. وقـد حظيـت هـي وزوجهـا بمعاملـة خاصـة وكانـا يتبـادلان الرسـائل عـدة مـرات في الأسـبوع، كـما كان يسـمح لهـما بالالتقـاء ببعضهـما البعـض لمـدة سـاعة كل يـوم. طلبـت فالـتراود الإذن بالاسـتحمام، فنُقلـت إلى زنزانـة سـجينة أخـرى، والتـي لم تكـن سـوى مارسيل نينـو. قالـت مارسـيل لاحقًـا: «في أحـد الأيـام عـام 1967م، ظهـرت فجـأة في مدخـل زنزانتـي امـرأةٌ شـابة، طويلـة القامـة، شـقراء وجميلـة. قالـت بلغـة إنجليزيـة تشـوبها لكنـة ألمانيـة مميـزة: «اسـمي فالـتراود، لكـن الجميـع ينادوننـي تيـدي».

تعلمـت مارسـيل تقديـر فالـتراود، وقالـت لاحقًـا: «كنـا مختلفتـين جدًّا

عـن بعضنـا البعـض. لقـد اسـتطعت التعـرف عليهـا. كانـت امـرأةً قويـة ورائعـة، أحبـت زوجهـا وشـدّت مـن أزره». كانتـا تسـتمعان معًـا إلى الراديـو الصغـير الـذي كانـت تحملـه مارسـيل، حيـث سـمعتا عـن تهديـدات عبـد النـاصر بالقضـاء عـلى إسرائيـل، وحالـة القلـق التـي سـادت البـلاد.

وبالفعـل، اندلعـت في 15 مايو/ أيـار عـام 1967م أزمـة غـير متوقعـة في الـشرق الأوسـط. حيـث قـام الرئيـس المـصري عبـد النـاصر، معتمـدًا عـلى معلومـات كاذبـة نقلتهـا لـه أذرع الاسـتخبارات السـوفياتية، بإدخـال جيشـه إلى صحـراء سـيناء؛ وطـرد مراقبـي الأمـم المتحـدة الذيـن كانـوا منتشريـن عـلى طـول الحـدود مـع إسرائيـل وعـلى شـاطئ مضيـق تـيران، كـما أغلـق المضائـق في وجـه الرحـلات البحريـة الإسرائيلية؛ ووقـع معاهـدات عسـكرية مـع كل مـن الأردن وسـوريا والعـراق. شـعرت إسرائيـل أنهـا تواجـه خطـرًا وجوديًّـا. وأخـيرًا، في 5 يونيو/ حزيـران، هاجمـت إسرائيـل الجيـوش العربيـة المتمركـزة عـلى حدودهـا. سـمعت مارسـيل عـن تفـشي الحقـد والغضـب تجـاه اليهـود وإسرائيـل في شـوارع القاهـرة، وكانـت ترتجـف خوفًـا لـدى سـماعها الإعلانـات الكاذبـة عـن الانتصـارات العظيمـة للجيـش المـصري الـذي يزحـف باتجـاه تـل أبيـب، لكـن سرعـان مـا كشـف لهـا الترانزسـتور عـن الحقيقـة المعاكسـة. لقـد هزمـت إسرائيـل في غضـون سـتة أيـام الجيـوش المصريـة والسـورية والأردنيـة، واسـتولت عـلى مسـاحات واسـعة - سـيناء، وقطـاع غـزة، وهضبـة الجـولان، والضفـة الغربيـة، والقـدس. كان ذلـك انتصـارًا عظيـمًا غـيّر وجـه الـشرق الأوسـط. كـما سـقط بيـد إسرائيـل آلاف الأسرى.

سمعت مارسيل وفالتراود عن تبادل الأسرى بين إسرائيل ومصر، وانتعش لديهما الأمل بأن تتم مبادلتهما قريبًا مقابل حشود الجنود المصريين الذين بيد إسرائيل، وتعودا بالتالي إلى البلاد. تخيّلتا في استمتاع تفاصيل إطلاق سراحهما: ها هما تنقلان بسيارة إلى القنطرة، على ضفة قناة السويس، وهناك تصعدان على متن عبارة وتعبران القناة، والعلم الإسرائيلي يرفرف أمامهما!

لكن ذلك لم يحدث. وضعت الحرب أوزارها وعاد الصمت مجددًا. تمت إعادة الأسير الإسرائيلي الأخير الطيار يائير باراك إلى إسرائيل، وانتهى تبادل الأسرى. كانت السجينتان تتابعان مقابلةً مع باراك على إذاعة «صوت إسرائيل». قالت مارسيل لنفسها: «هذا كل شيء. لن نخرج». أما تيدي، التي كانت متماسكة جدًا حتى الآن، فقد انهارت وانفجرت بالبكاء.

لم تصدق مارسيل هذه المرة أنها سيتم إطلاق سراحها وسراح أصدقائها وتقبلت ذلك. ما كانت تعرفه أيضًا أنها قد تبقى لها سنة وربع في السجن.

لم تكن مارسيل تعلم أن رئيس الموساد اللواء (احتياط) مئير عميت قد ذهب إلى وزير الحرب موشيه دايان واقترح عليه التوجه إلى الرئيس المصري عبد الناصر ومناشدته إطلاق سراح سجناء القضية في إطار تبادل الأسرى المتوقع. رد دايان بتشككٍ كبير، وعاد وقال لعميت أن عبد

النـاصر لـن يوافـق. لكـن عميـت كان مُـصرًّا. كانـت تربـط الاثنـين علاقـة صداقـة متينـة، حتـى أن دايـان قـال ذات مـرة أن مئـير عميـت كان صديقـه الوحيـد. وفي نهايـة المحادثـة، استسـلم دايـان لضغـوط صديقـه. وقـال: «حسـنًا إذًا. فلتكتـب لـه، لكـن تذكـر مـا قلتـه لـك، لـن يوافـق».

لكنه وافق.

كتـب مئـير عميـت رسـالة إلى عبـد النـاصر «كجنـدي إلى جنـدي»، وطلـب منـه إطـلاق سراح السـجناء في إطـار صفقـة تبـادل الأسرى، وتعهـد بإبقـاء الأمـر سريًّـا للغايـة. بحيـث يصلـون إلى إسرائيـل دون أن يتسرب شيء لوسـائل الإعـلام، ولـن يجـد عبـد النـاصر نفسـه في موقـف غـير مريـح.

لقـد طلـب عميـت الإفـراج عـن المزيـد مـن السـجناء الإسرائيليـين في مـصر ولبنـان. وتـم إيصـال الرسـالة عـن طريـق ضابـطٍ مـصري كبـير كان قـد أُطلـق سراحـه أيضًـا في إطـار تبـادل الأسرى.

هـذه المـرة، لم يتـم نسـيان سـجناء «قضيـة العـار» ولا حتـى الزوجـين لوتز. وفي مطلـع العـام 1968م، تـم إطـلاق سراح الجميـع، وإن لم يكـن في وقـت واحـد. هكـذا نُقلـوا سرًّا إلى أوروبـا وإسرائيـل. نالـت مارسـيل أيضًـا حريتها. أمـا الزوجـان لوتـز فنُقـلا، إلى مطـار القاهـرة ليسـافرا عـلى متـن طائـرة ركاب. كانـت محطتهـم الأولى أثينـا، والثانيـة فرانكفـورت، ثـم كانـت الوجهـة النهائيـة إلى ميونـخ. ولكـن وبينـما كان الزوجـان لوتـز في الجـو، خـاف أفـراد الموسـاد الذيـن كانـوا ينتظرونهـما مـن تعرضهـما لخطـر جديـد: فقـد كان مـن الممكـن أن

يتم اعتقال الزوجين في ميونخ ومحاكمتهما بتهمة محاولات القتل! حيث تقدمت إلى النيابة العامة الألمانية دعاوى ضدهما بشأن الطرود المفخخة التي أرسلاها إلى مواطنين ألمان في القاهرة! إلا أن المسؤول عنهما موتي كفير وأصدقاءه وجدوا حلا. حيث تواصلوا مع المحامي الألماني، الذي مثل الزوجين عند محاكمتهما في القاهرة بتوجيهات من غيلين، والذي بدأ باتخاذ الإجراءات على الفور. وعندما هبطت طائرة فولفغانغ وفالتراود للتوقف مؤقتًا في فرانكفورت، قام الإسرائيليون والألمان بتهريب الزوجين من الطائرة دون تفريغ أمتعتهما، حيث استبدلا جوازي سفرهما بجوازي سفر آخرين وفرهما المحامي الألماني، وصعد الاثنان على متن طائرة متوجهة إلى بروكسل.

طار الزوجان من أوروبا إلى إسرائيل. وعلى متن الطائرة، قدم راستي إلى تيدي رسالة حب، لم يسبق له أن كتب مثيلا لها. لكنه كشف لها في نفس الرسالة أيضًا الحقيقة عن نفسه – لديه زوجة وابن. وكتب أنه على وشك الانفصال عن زوجته، لأنه ربط حياته بتيدي إلى الأبد. وقد قالت تيدي لمارسيل لاحقًا: «عندما علمت أن لديه ابنًا، أصبت بالصدمة!»

* * *

عندما هبطت الطائرة في إسرائيل، كان هناك شخص واحد غائب عن الاستقبال: زوجة زئيف، ريفكا جور أري.

كم انتظرت ريفكا وتمنت هذه اللحظة! بعد غيابه لسنوات، كان زوجها على وشك العودة إلى البيت. ومثلها كان ابنهما، عوديد، الذي كان يعشق والده. لقد استعدت واشترت ثيابًا جديدةً وتزينت وجهزت المنزل لوصول «زئيفيك». لكن قبل ساعة واحدة من هبوط الطائرة، وصل إلى منزل عائلة جور أري أحد الأقارب، رجل الشاباك أفراهام شالوم، ومعه زوجته. لقد كشفا لريفكا السر الرهيب، وأخبراها بلطف أنه من الأفضل أن لا تأتي إلى المطار.

وفي وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، التقى زئيف جور أري بابنه. قال عوديد بعد سنوات: «كان لقاء مروعًا».

هل يمكن للكلمات أن تصف الألم والعار والإذلال الذي شعرت به ريفكا جور أري في تلك اللحظات - والتي بالتأكيد عادت إليها مرارًا وتكرارًا فيما تبقى من حياتها؟ لقد شعرت بأنها تعرضت للخيانة والغش - ليس من جانب زوجها فحسب، بل أيضًا من جانب الموساد وقادته ومسؤوليه وأصدقاء زئيف. فهؤلاء أخفوا عنها الحقيقة لسنوات، بل وتبنوها أيضًا، وقبلوها كما هي واستغلوها لحاجاتهم الخاصة. وعلى الرغم من أن الموساد قد اهتم باحتياجاتها وسيهتم بها في المستقبل، وسيؤمن لها وظيفة في وزارة السياحة، وسيوصل إليها راتب زئيف، لكنه لن يعالج الألم، وهي لن تغفر لهم أبدًا ما فعلوه بحقها، فقد تمت التضحية بها، كزوجة وأم، على مذبح الإنجاز الاستخباراتي. لقد كانوا عن قصد شركاء في المأساة الرهيبة التي حلّت بها.

أعـاد زئيـف جـور أري بنـاء حياتـه مـع فالـتراود. لقـد أقامـا مزرعـة خيـولٍ بالقـرب مـن مسـتوطنة جنـوت، وعـادت فالـتراود لتكـون الصديقـة المفضلـة لمارسيل، التي عـادت إلى إسرائيـل أيضًـا. وعندمـا تزوجت مارسيل كان زئيـف جـور أري أحـد أولئـك الذيـن يمسـكون بأعمـدة المظلـة، بينـما لم تحضر فالـتراود حفـل الزفـاف. لقـد مرضـت عـلى أثـر التعذيـب والـضرب الـذي تعرضـت لـه في القاهـرة، وماتـت بعـد ذلـك بوقـت قصـير.

لم يجـد جـور أري لنفسـه مكانًـا في الحيـاة. بعـد وفـاة فالـتراود، تـزوج للمـرة الثالثـة وهـذه المـرة مـن ناعومـي التـي تركتـه بعـد أن خانهـا مـع المـرأة التـي سـتكون زوجتـه الرابعـة، وهـي صحفيـة ألمانيـة. لقـد سـافر بـين إسرائيـل والولايـات المتحـدة وألمانيـا، كـما ألّـف كتابًـا، وعمـل في مهـن مختلفـة، قبـل أن يُتـوفى مفلسـا.

كان الضـوء في حياتـه هـو قصـة الحـب الكاسـحة مـع فالـتراود. أمـا الظـل فهـما المأسـاة والألم اللذيـن ألحقهـما بزوجتـه وابنه.

❊ ❊ ❊

في منتصـف فبراير/ شـباط عـام 1968م، وبعـد 5000 يـوم في السـجن المـصري، وصلـت مارسـيل إلى إسرائيـل. تعلمـت مارسـيل اللغـة العبريـة في معهـد تدريـس اللغـة العبريـة، ودرسـت الآداب والفنـون في جامعـة تـل أبيـب، كـما حصلـت عـلى رتبـة مقـدم في الجيـش الإسرائيـلي. وقـد حصلـت أيضًـا عـلى مـا هـو أثمـن مـن كل شيء – الحـب. ففـي سـن الـ 42، التقـت بإيـلي بوجـير، ووقـع الاثنـان في حـب بعضهـما البعـض وقـررا الـزواج.

اتخـذت حياتهـما شـكلا طبيعيًّـا، وفي بعـض الأحيـان ممتعًـا أيضًـا. لقـد سـافرا في مهـمات لصالـح شركـة اقتصاديـة في ألمانيـا لمـدة خمـس سـنوات. كـما استضافت مارسـيل صديقتهـا المحبوبـة مـاري بابادوبولـوس في أرض فلسـطين عـدة مـرات، حيـث كانتـا تجلسـان وتسـترجعان ذكريـات فـترة سـجنهما. لم تشـعر مارسـيل بالتحـرر والاسـترخاء إلا مـع مـاري، لأنهـا كانـت إلى جانبهـا عندمـا كانـت محبوسـةً في السـجن، وعاشـت معهـا عـلى نفـس «الكوكـب الآخـر»، السـجن المـصري، الـذي لا يعرفـه الكثـيرون ولا يسـتطيعون التعـرف عليـه.

توفيـت مارسـيل في أكتوبر/ تشريـن الأول عـام 2019م. اشـتكت قبلهـا مـن ألمٍ شـديدٍ بعـد أن سـقطت وكـسرت عظمـةً في جسـدها. ألقـى رئيـس الموسـاد يـوسي كوهـين كلمـة رثـاءٍ لهـا عنـد قبرهـا، قـال فيهـا: «مارسـيل كانـت بطلـة، لقـد عرفـت كيـف تنهـض كلبـؤة مـن معانـاة السـجن الرهيبـة».

* * *

بعـد سلسـلة طويلـة مـن المعانـاة والتعذيـب والانتهـاكات مـن قبـل السـجانين اللبنانيـين، خَفَّفـت المحكمـة عقوبـة شـولا، بوصفهـا زوجـة وأم، إلى السـجن لمـدة 20 عامًـا، بينـما تـم تخفيـف سـجن جوزيـف إلى سـنتين. وفي جلسـة الاسـتئناف، في يوليو/ تمـوز عـام 1963م، حُكـم عـلى شـولا بالسـجن لسـبع سـنوات، في حـين أُطلـق سراح جوزيـف مـن السـجن. عـاد الـزوج المخلـص الـوفي إلى منزلـه وهـو في حالـة مزريـة. في السـجن حُلـق رأسـه،

وأساء إليه السجناء والحراس - وعند عودته إلى بيته لم يكن هو نفس الشخص الذي خرج منه. لقد انهارت مكانته المشرفة في المجتمع، وسلبت منه زوجته وفقد كل ممتلكاته.

بيد أن الزلزال الذي هز الشرق الأوسط خلال حرب الأيام الستة، كان تأثيره قويًّا على بيروت أيضًا.

أُطلق سراح شولا كوهين، اللؤلؤة، بعد حرب الأيام الستة في إطار صفقة تبادل أسرى بين الجيش الإسرائيلي والجيش اللبناني. حيث تمت مبادلة شولا وطيار من سلاح الجو مقابل 496 جنديًّا ومواطنًا لبنانيًّا. وتم اصطحاب شولا في سيارة شقّت طريقها عبر الحدود. وفي غضون ذلك، غادر أفراد عائلتها أرليت وإيتسيك وكارميلا وديفيد وجوزيف على متن رحلةٍ جويّةٍ إلى قبرص، ومن هناك إلى إسرائيل.

أوصلت السيارة شولا إلى رأس الناقورة. وكانت هذه أول مرة تجتاز فيها الحدود بطريقة قانونية ورسمية. وقد رافقها ضابط الاستخبارات الذي اعتقلها قبل سبع سنوات إلى نقطة التفتيش الحدودية. وقال لها: «شولا، أنت الآن لديك قدم في إسرائيل وقدم في لبنان. قولي لي، هل كل ما قيل عنك وكل ما أظهرته التحقيقات، كان صحيحا أم لا؟ ألم تفعلي شيئًا من أجل إسرائيل؟ ماذا سيتغير إن أخبرتني الآن؟»

قالت شولا فيما بعد: «قلت لنفسي، لقد بقيت صامتة طوال سبع سنوات، وبعد سبع أو ثماني دقائق ستكون كلتا قدماي في إسرائيل، وعندها سنرى».

كانت شولا كوهين في الخمسين من عمرها عندما عادت إلى إسرائيل. وبعد عملٍ جراحيّ وعلاجٍ طويل، تعافت وحصلت على شقةٍ في حي رحافيا بالقدس. وبعد فترة، عملت مديرة لمتجر تحف بالقرب من فندق الملك داود.

توفيت «السيدة شولا» بعمر المئة عام، وقد تهاطلت عليها خلال حياتها شهادات التقدير والأوسمة مثل المطر – وسام العزيزة السرية لمجتمع الاستخبارات، «محاربة خفية خاطرت بحياتها وساهمت بكل قوتها في الأنشطة السرية لدولة إسرائيل»، وسام عزيزة القدس، جائزة بيجن، ميدالية دونا جراسيا، وسام معهد فيزنتال.

(9)

يهوديت: «فلامنكو» في بوينس آيرس، و«الفتاة» المقدسية

8 مايو/ أيار عام 1960م.

دخلت يهوديت إلى مكتب رئيس الموساد، حيث كانت تنتظرها سكرتيرة إيسر الأسطورية، مالكا برافرمان. أعطتها مالكا تذكرة طيران إلى مدريد باسمها الحقيقي، حيث غادرت في اليوم التالي، 9 مايو/ أيار. وفي مطار مدريد، قابلها عنصر الموساد روني (اسم مستعار)، الذي كانت تعرفه معرفةً سطحية. أخذ روني جواز سفرها الإسرائيلي وسلمها جواز سفر هولندي باسم مزور وبصورتها الحقيقية، وتذكرة طيران على متن الخطوط الجوية الأيبيرية إلى بوينس آيرس عاصمة الأرجنتين. لقد كانت متحمسة. حيث كانت في الـ 35 من عمرها، وكانت هذه هي أول مهمة لها في الخارج كمحاربة موساد. لم تكن تعرف سبب اختيارها من قبل رئيس الموساد للمشاركة في مهمةٍ غامضة، على بعد آلاف الكيلومترات من البلاد.

كان من المقرر لها أن تصل إلى الأرجنتين في العاشر من مايو/ أيار، لكن تأخر بعض الرحلات الجوية، جعلها تصل متأخرة 24 ساعة، قضت فيه وقتها داخل أروقة المطارات. لم تعلم أن هذا التأخير كان مصيريًّا بالنسبة لها، إذ أنها فوتت على نفسها تجربةً كانت ستبقى تذكرها طيلة حياتها. كان الوقت متأخرًا من الليل، وقد قضت بقية الليلة في الفندق. في تلك الساعات بالذات، حدثت عملية مذهلة في جزء آخر من بوينس آيرس. ثم في صباح اليوم التالي، جاء إلى الفندق الذي كانت تنزل فيه يهوديت، رجلٌ مجهولٌ أعطاها ورقة بأسماء مقاهي في مركز المدينة، وبجانب اسم كل مقهى تم تسجيل ساعات بأرقام صغيرة: 09:00 – 09:30، 10:00 – 10:30، وهكذا طوال اليوم. قال لها ذلك المجهول: «تم تحديد موعدك في 11:00 صباحًا». نظرت في ساعة اليد الخاصة بها. كانت تشير إلى 10:30. أودعت حقيبتها لدى الرجل وذهبت إلى مقهى «لاس فيوليتاس»، الذي كان بجوار اسمه محدد الساعات 10:30 – 11:30.

هناك، وعلى طاولةٍ صغيرة، جلس رجل أصلع يرتدي بدلةً رمادية، وظهره إلى الحائط. كان هذا رئيس الموساد إيسر هاريل. لقد كان بالفعل في حياته شخصية أسطورية. وقد سرت في الموساد شائعاتٌ عن حواسه القوية وعقله المبدع. كان أمامه فنجان قهوة. لقد صمم «أسلوب المقاهي» بنفسه. حيث كان مساعدوه يكتبون كل صباح أسماء المقاهي التي سيزورها والساعات التي سيقضيها في كل منها. وهكذا يمكن لرجاله،

الذيـن حصلـوا عـلى جـدول المواعيـد، مـن العثـور عليـه في أي وقـت، دون الحاجـة إلى الاتصـال بالهاتـف.

* * *

كان إيـسر هاريـل، الرجـل الصلـب اليقـظ والقصـير (ولذلـك أطلـق عليـه «إيـسر الصغـير»)، هـو سـيد الأجهـزة الأمنية بـلا منـازع. ولـد في بولندا، وجـاء إلى إسرائيـل في سـن السـابعة عـشر، وبحوزتـه حقيبـةٌ فيهـا رغيـف خبـز ومخبـأٌ بداخلهـا مسـدس. عـاش لفـترة في الكيبوتـس، وتـزوج مـن ريفـكا، ثـم انضـم بعدهـا إلى «شـاي»، جهـاز الاسـتخبارات في «الهاغانـا»، وتـدرج في سـلم الرتـب حتـى أصبـح رئيـس جهـاز الأمـن (الشـاباك). وعندمـا اسـتقال رؤوفـين شـيلواح مـن رئاسـة الموسـاد، عقـب إصابتـه في حـادث سـير، كلفـه بـن جوريـون بمنصـب رئيـس الموسـاد أيضًـا. وبموقعـه الجديـد كـ «مسـؤول عـن الأجهـزة الأمنيـة»، تركـزت في يـد إيـسر قـوةٌ هائلـةٌ عـلى كلا الجبهتـين، الداخليـة والخارجيـة. لقـد كان يتمتـع بثقـةٍ لا محـدودةٍ مـن جانـب بـن جوريـون.

في ربيـع العـام 1960م، حصـل إيـسر عـلى الاسـم المسـتعار لأدولـف أيخـمان وعنوانـه. كان أيخـمان، الكولونيـل السـابق في وحـدات «إس إس»، مـن كبـار المجرمـين النازيـين، وهـو الشـخص المسؤول بشـكلٍ مباشر عـن تنفيـذ «الحـل الأخـير»، الـذي أدى إلى إبـادة الكثـير مـن اليهـود إبـان الحكـم النـازي لألمانيـا. اختبـأ أيخـمان في الأرجنتـين تحـت اسـم ريـكاردو كليمنـت،

وقـد ذهـب إيسر إلى هنـاك عـلى رأس وحـدة عملياتيـة، مـن أجـل اختطـاف أيخـمان. كانـت هـذه أكـبر عمليـات الموسـاد وأكثرهـا تعقيـدًا حتـى الآن.

اسـتقبل إيـسر يهوديـت بابتسـامةٍ جافـة، وشرح لهـا باختصـار ماهيـة العمليـة ومـا هـي مهمتهـا. لقـد قـام إيـسر بالفعـل بتوظيـف نسـاءٍ في أدوار هامـة، مثـل ياعيـل بوسـنر والمصـورة سـارة إيـال، التـي أُرسـلت إلى باريـس مـن أجـل تصويـر شـخصياتٍ مهمـةٍ مـن البلـدان العربيـة أثـارت اهتـمام الموسـاد. لكـن مهمـة يهوديـت كانـت هـي المـرة الأولى التـي تشـارك فيهـا كمحاربـة موسـاد في عمليـةٍ إلى جانـب رجـال. وبذلـك فُتـح فصـلٌ جديـدٌ في كل مـن تاريـخ الموسـاد وقصـص النسـاء اللـواتي أصبحـن «محاربـات» وعملـن في طليعـة عمليـات المنظمـة.

* * *

صدمـت يهوديـت عندمـا سـمعت مـن إيـسر عـن طبيعـة العمليـة التـي كانـت تشـارك فيهـا. وقـد كتبـت لاحقًـا: «عندمـا غـادرت البـلاد، لم أكـن أعـرف إلى أيـن أنـا ذاهبـة. قالـوا لي إن إيـسر هاريـل طلـب إرسـالي إلى أمريـكا الجنوبيـة في مهمـة كان هـو شـخصيًّا مسـؤولا عنهـا بشـكلٍ مبـاشر. لم يكـن مـن المعتـاد طـرح الأسـئلة، وعندمـا قيـل لي أن إيـسر يطلـب منـي الحضـور، سـألت فقـط متـى عـليَّ أن أذهـب». والآن، في مقهـى لاس فيوليتـاس، كشـف لهـا سر «العمليـة الأخـيرة». أمرهـا إيـسر أن تسـتقل السـيارة التـي تنتظرهـا في الخـارج إلى فيـلا منعزلـة في طـرف المدينـة، عـلى طريـق المطـار.

وصلت إلى هناك بعد نصف ساعة تقريبًا. لم يتحدث معها السائق إطلاقًا على الطريق. كانت الفيلا جميلة وحديثة، وقد امتدت أمامها حديقة أنيقة. وكان يوجد بجانب الحائط كرسيا استلقاء وطاولة مشروبات منخفضة. قامت بالتعريف عن نفسها للشاب الإسرائيلي الذي فتح لها الباب، ثم دخلت. كان يجلس في غرفة المعيشة مجموعةٌ كبيرةٌ من الشبان. لم تتعرف على أي منهم للوهلة الأولى. ثم لاحظت «ميو» ميداد وتسفي ملحين ومحارب آخر أو اثنين كانت تعرفهم. وقد نظر إليها الجميع بدهشة ممزوجة بخيبة أمل.

كتب أحد كبار مسؤولي الموساد تسفي ملحين في كتابه حول ذلك: «كيف اختار العجوز (إيسر هاريل) هذه المرأة بالتحديد من بين كل سرايا النساء الجميلات اللواتي تحت تصرفه؟ ﴿هي﴾ كانت ترتدي نظاراتٍ ذات عدسات سميكة زادت من حجم حدقات عينيها. وقد جعلتها هذه النظارات تتخطى السلالم دون أن تنتبه، وتقفز إلى غرفة المعيشة كما لو أنها تقفز في حوض سباحة. ها قد وصلت! هدية العجوز الخاصة، «ماتا هاري الإسرائيلية». وعند وصولها، تحطمت بعض الأحلام. قامت بترتيب ملابسها على كامل جسمها، ثم قالت: «أوصاني العجوز أن أعتني بكم، يا أولاد. سوف أعد لكم أشهى أطباق الطعام. أين المطبخ؟»

لاحقًا قال أحد المحاربين، وهو عضو في الوحدة العملياتية المشتركة

للشـاباك والموسـاد: «كنا نعرف أنها ستأتي. لكننا توقعنا امرأة مذهلة، مثل «ماتا هـاري».

تابـع المحـارب: «وهاهنـا. تظهـر أمامنـا امـرأةٌ ممتلئـة الجسـم، ليسـت طويلـة ولا جميلـة، ترتـدي نظـاراتٍ بإطـار ذهبـي... لم نكـن لننظـر إليهـا في الشـارع...»

هل هذه ماتا هاري؟

❋ ❋ ❋

بالتأكيد.

لقـد ولـدت يهوديـت مثـل ماتـا هـاري في هولنـدا، لكـن التشـابه ينتهـي هنـا.

ولـدت يهوديـت ناسياهو عـام 1925م لعائلـةٍ صهيونيـة متدينـة. وعندمـا بلغـت الثالثـة مـن عمرهـا، انتقلـت العائلـة إلى بلجيـكا. كان والدهـا تاجـر المجوهـرات مسـؤولا بالنيابـة عـن المؤسسـات الصهيونيـة عـن توزيـع «شـهادات سـيرتيفيكا» - شـهادات الهجـرة إلى أرض فلسـطين - كـما جمـع أموالا واشـترى أسـلحة لـ «الهاغانا». تمكّنت الأسرة من الهجرة إلى إسرائيل في اللحظـة الأخـيرة فعـلا، مـع انـدلاع الحـرب العالميـة عـام 1939م. فقـد أبحـروا عـلى متـن آخـر سـفينةٍ انطلقـت مـن مارسـيليا في فرنسـا.

كانـت يهوديـت في الرابعـة عشرة مـن عمرهـا، وكفتـاة متدينـة، انضمـت

إلى حركة بني عكيفا. وقد أنشأت بنفسها معهدًا تعليميًّا فريدًا للفتيات، لدراسة التوراة على مستوى عالٍ مثل الأولاد، كانت مؤسسةً ثوريّةً بحق، لكن المعهد لم يستمر سوى عام واحد فقط. وبعد أن خدمت في الجيش الإسرائيلي خلال حرب الاستقلال، درست يهوديت الفلسفة والتاريخ في الجامعة. وقد حدث التغيير في حياتها في 25 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1955م. عندما تلقت رسالة سرية من أخيها أفرايم.

«عزيزتي يهوديت، أنا الآن في مهمةٍ خارجيةٍ بالغة الأهمية لصالح الوكالة في دولة معادية، وقد طُلب مني أن يكون لديّ قوة مساعدة لتعينني في مهمةٍ مصيريةٍ لشعب إسرائيل. أحتاج إلى شخص يمكن الوثوق به بنسبة 100 ٪، ولذلك اخترتك أنت. خلال الأيام القليلة القادمة، سيأتي إليك رجل من الوكالة ليهتم بكل شيء. لا تخبري والدتنا بأي شيء، وأنا سأُعْلمها بكلّ شيءٍ عندما يحين الوقت المناسب. اعتني بنفسك. أفرايم».

غادر شقيقها إلى المغرب من أجل تنظيم الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، حيث كانت الهجرة منظمة من قبل «ميسغيريت»، وهي حركةٌ سريّةٌ كان أحد قادتها شلومو يحزكيلي. وافقت يهوديت على الفور. لقد تلقّت تعليمات بالذهاب إلى المغرب، وقامت بتهريب أسلحة وأوراق في أمتعتها. كانت المهمة مصيريّةً حقًّا لشعب إسرائيل - إنقاذ وجلب يهود المغرب إلى أرض فلسطين!

ثـم، ولأول مـرة في حياتهـا، كانـت تنتحـل شـخصية. حيـث لم تعـد الآن يهوديـت ناسـياهو مـن إسرائيـل، بـل هولنديـة ثريـة مـن إندونيسـيا[1]. كانـت تقيـم في الـدار البيضـاء لأنهـا تكـره المنـاخ الهولنـدي. في أحـد مقاهـي المدينـة، التقـت بيحزكيـلي، الـذي توجـه إليهـا عـلى طريقـة الفرسـان وضرب بكعـب حذائـه وأعطاهـا لقـب «جولييـت». وفي عـام 1956م، نـال المغـرب اسـتقلاله، وقـام الملـك بحظـر جميـع الأنشـطة الصهيونيـة. فـكان الـرد الإسرائيـلي بتفعيـل حركـة «ميسـغيريت» السريـة، ومنظمـة «غونـين»، وهـي منظمـة تتألـف الشـباب اليهـود، ومهمتهـا الدفـاع عـن النفـس.

بقيـت يهوديـت نيسـايهو في المغـرب لمـدة عامـين ونصـف، شـاركت خلالهـا في أنشـطة ميسـغيريت وغونـين. كان الحاخـام إسـحاق ليفـي، الـذي أصبـح لاحقًـا عضـوًا في الكنيسـت ووزيـرًا في إسرائيـل، طفـلا في الـدار البيضـاء في تلـك الأيـام. قـال إنـه في كل يـوم جمعـة كانـت «تاتـا (العمـة) جولييـت» تـأتي لتنـاول عشـاء السـبت في منزلهـم. لقـد كانـت يهوديـة ملتزمـة صادقـة. لكـن والـدَيْ إسـحاق فرضًـا عليـه حظـرًا صارمًـا عـلى التحـدث عـن زياراتهـا، ومنعـاه مـن إلقـاء التحيـة عليهـا إذا مـا صادفهـا في الطريـق. كانـت في بعـض الأحيـان تنظـم اجتماعـاتٍ في منـزل عائلـة ليفـي، وعندهـا كان يضطـر جميـع أفـراد الأسرة لمغـادرة المنـزل. كان والـد إسـحاق يعلـن: «سـنذهب اليـوم لزيـارة الجـدة عنـد السـاعة الثالثـة!» وكانـت تاتـا جولييـت تـأتي إلى البيـت مـع أشـخاص مختلفـين.

(1) ظلت إندونيسيا مستعمرةً هولندية حتى عام 1949م.

في تلك السنوات، تم اكتشاف المواهب المذهلة التي تتمتع بها يهوديت نيسايهو. لقد استطاعت الإلمام بالكثير من اللغات - الهولندية والعبرية والإنجليزية والفرنسية والألمانية. لكنها لم تكن تعرف اللغات فقط، بل أثارت أيضًا إعجاب الجميع بذكائها وحكمتها ومعرفتها بقوانين العالم، وبالتاريخ والسياسة والثقافة. وقد نظر لها زملاؤها على أنها «المرأة ذات الآلاف من الهويات». حيث كان باستطاعتها، وفقا لحاجة العملية التي تشارك فيها، أن تبدل الهوية واللغة والمظهر والسلوك، وكل ذلك في غضون دقائق. قال عنها رجل الموساد أفراهام برزيلي: «إنها تنهض في الصباح بصفتها إنجليزية، وتنهي النهار كهولندية، وفي منتصف الليل ألمانية». لقد أثارت إعجاب الناشط في تنظيم الهجرة مئير كنفو وتركت لديه انطباعًا بأنها ممثلة ممتازة، وكثيرًا ما كانت تُكيّف نفسها مع سلوك امرأة غريبة الأطوار أو غير عاقلة تمامًا حتى لا يأخذوها على محمل الجد. وقال إن الشرطة أطلقوا عليها لقب «المجنونة».

عملت يهوديت بين غير اليهود، وكان عليها أن تخفي معتقداتها وممارساتها جيدًا. كانت في بعض الأحيان لا تأكل لأيام كاملة وتكتفي بالبرتقال. وأحيانًا، عندما كانت تُدعى لتناول الطعام في مطاعم أو بيوتٍ خاصة، كانت تدّعي أنها تتبع نظامًا غذائيًّا ويمكنها تناول السلطة فقط. ومع ذلك، بحسب ابنة أختها تيرتسا بن حاييم، كانت هناك حالات اضطرت فيها لتناول طعام غير كوشر، بل وحتى لحم خنزير.

نسجت في المغرب علاقات مع الشرطة، وكثيرًا ما حصلت من

ضبـاطٍ في الشرطـة عـلى وثائـق هامـة، كانـت تصورهـا وتعيدهـا في سـلة تسـوق تحـت كومـة مـن الخضروات والفاكهـة. كان لديهـا في منزلهـا حـوالي 3000 جـواز سـفر مـزور وصلتهـا مـن إسرائيـل. أقـام شـقيقها أفرايـم علاقـة وثيقـة مـع مفـوض ولايـة كولومـب في الجزائـر (الفرنسـية)، بينـما أقامـت يهوديـت علاقـة خاصـة مـع القنصـل الفرنـسي في مدينـة وجـدة المغربيـة، الواقعـة بالقـرب مـن الحـدود مع الجزائـر. كان القنصـل رجـل فكـرٍ وثقافـة، وكان مـن أشـد المعجبـين بالبروفسـور مارتـن بوبـر[1] مـن الجامعـة العبريـة. حيـث كان بوبـر فيلسـوفًا ذا شـهرةٍ عالميـة، ولديـه عـشرات الآلاف مـن المعجبـين حـول العـالم. وحسـب مئـير كنفـو، عندمـا سـمع القنصـل مـن يهوديـت أنهـا درسـت الفلسـفة عـلى يـد بوبـر، كاد «يفقـد وعيـه». وكشـف لهـا أن حلـم حياتـه كان مقابلـة مارتـن بوبـر، أو عـلى الأقـل شـخصٌ يعـرف بوبـر. لقـد جلـس مـع يهوديـت في مكتبـه وتحدّثـا عـن بوبـر - وفي الوقـت نفسـه، ختـما معًـا المئـات مـن جـوازات السـفر مـع تأشـيرات دخـول إلى الجزائـر، التـي كانـت بدايـة الطريـق إلى إسرائيـل. في تلـك السـنوات، عَـبَرَ حـوالي 25 ألـف يهـودي متبعـين ذلـك الطريـق الـذي عملـت يهوديـت عـلى إيجـاده.

---

(1) مارتـن بوبـر (1878-1965): فيلسـوفٌ نمسـاوي، اشـتهر بـ «فلسـفة الحـوار»، وهـي صـورة مـن صـور الوجوديـة، تـدور حـول التفريـق بـين علاقـة «أنـا وأنـت» وعلاقـة «أنـا والـشيء». وُلـد في فيينـا، لأسرة يهوديـة ملتزمـة، غـير أنـه خـرج عـن العـرف اليهـودي ليتابـع الدراسـات الفلسـفية العلمانية. في عـام 1902م صـار محـررًا في صحيفـة «دي فِلـت» الأسـبوعية، التـي عـلى أساسـها نشـأت الحركـة الصهيونيـة، لكنـه انسـحب لاحقًـا مـن العمـل الصهيـوني التنظيمـي، ثـم في عـام 1925 بـدأ ترجمة التوراة إلى اللغـة الألمانيـة.

في غضـون ذلـك، تـم إلغـاء «ميسـغيرت» كمنظمـة ودمـج أذرعهـا في الموسـاد. عـادت يهوديت إلى إسرائيـل وانتسـبت إلى الموسـاد وشـقّت طريقهـا إلى شـعبة التحصـين، التـي كان يترأسـها شـموئيل توليدانـو. وهنـاك، رأت في عملهـا في هـذه الشـعبة هدفًـا مُلْهِـمًا، تمثـل في إنقـاذ اليهـود حـول العـالم. لقـد كانـت عاطفيـة، كـما اختـارت لنفسـها لقبًـا، مثـل جميـع موظفـي الموسـاد. كان اللقـب الـذي اختارتـه يعـبر عـن مشـاعرها: «فلامنكـو» – نـار ملتهبـة.

شَـغَلها الهولوكوسـت، ومـا صنعـه النازيـون باليهـود، فركـزت عـلى قضيـة مطـاردة المجرمـين النازيـين. كانـت تعـرف تقريبًـا جميـع أسـمائهم وجميـع التفاصيـل المتعلقـة بهـم، لكنهـا لم تعلـم أنهـا قـد تـم اسـتدعاؤها إلى بوينـس آيـرس، حيـث الطـرف الآخـر مـن العـالم، مـن أجـل المشـاركة في «العمليـة الأخـيرة». كان الهـدف مـن هـذه العمليـة – الأكـبر في تاريـخ الموسـاد حتـى ذلـك الوقـت – هـو تقديـم كبـير المجرمـين النازيـين، العقيـد في «إس إس» أدولـف أيخـمان، إلى المحاكمـة في إسرائيـل.

* * *

12 مايو/ أيار عام 1960م.

عرفـت يهوديـت التفاصيـل السريـة تدريجيًّـا، الواحـدة تلـو الأخـرى. لقـد التقـت في الفيـلا المنعزلـة في ضواحـي بوينـس آيـرس بحـوالي عشرةٍ مـن محاربي الموسـاد، جميعهـم رجـال. أخبروهـا أن مصـدرًا مجهـولا قـد أعطـى الموسـاد عنـوان أدولـف أيخـمان واسـمه المسـتعار. وستكتشـف لاحقًـا أن «المصـدر

المجهـول» كان المدعـي العـام لولايـة هيسـن في ألمانيـا الغربيـة فريتـز بـاور، وهـو يهـوديٌّ كـرس حياتـه لملاحقـة المجرمـين النازيـين. وفي مرحلـة لاحقـة، نَقَـل بـاور أيضًـا للموسـاد الاسـم المسـتعار لأيخـمان – «ريـكاردو كليمنـت».

في غضـون ذلـك، غـيرت عائلـة أيخمان–كليمنـت عنوانهـا، لكـن تسـفي أهـاروني، أفضـل الباحثـين في الموسـاد، اكتشـف العنـوان الجديـد: شـارع غاريبالـدي في ضواحـي بوينـس آيـرس. نقـل إيسر الخبر إلى رئيـس الـوزراء بـن جوريـون، فقـال لـه: «أحـضروه حيًّـا أو ميتًـا». وبعـد تأمـل أضـاف: «مـن الأفضـل أن يكـون حيًّـا، سـيكون ذلـك مهـمًّا للغايـة بالنسـبة لشـبابنا».

غـادر إيـسر عـلى رأس الوحـدة العملياتيـة للموسـاد إلى بوينـس آيـرس. كان قائـد الوحـدة هـو رافي إيتـان، ضابـط موسـاد مخضرم وذو خـبرة. وقـد قـام أفـراد الموسـاد بـشراء معـداتٍ واسـتئجار سـياراتٍ وبيـوت تأمـين. تـم التخطيـط للعمليـة بـأدق تفاصيلهـا، بـما في ذلـك طريقـة إحضـار أيخـمان إلى إسرائيـل. وأدار إيـسر العمليـة مـن مقاهـي المدينـة.

كانـت الأرجنتـين في تلـك الأيـام تحتفـل بمـرو 150 عامًـا عـلى الاسـتقلال، وقـد وصلـت وفـودٌ مـن جميـع أنحاء العـالم للمشـاركة في المراسـم والاحتفـالات. كـما وصـل وفـد كبـير مـن إسرائيـل أيضًـا، كان يترأسـه الوزيـر أبـا إيبـان، عـلى متـن طائـرة «بريطانيـا» التابعـة لشركـة إل عـال. كان مـن المقـرر أن تصـل الطائـرة يـوم 11 مايو/ أيـار، وكانـت خطـة إيـسر هـي اختطـاف أيخـمان وإصعـاده سرًّا إلى الطائـرة والسـفر معـه إلى أرض فلسـطين. لم يكـن أبـا

إيبان أو أي من أعضاء الوفد يعرفون شيئًا عن القصد الخفي وراء إرسال الطائرة إلى الأرجنتين. ولكن في اللحظة الأخيرة، حدث خلل. فبسبب كثرة الوفود والعبء الملقى على كاهل المستضيفين الأرجنتينيين، طُلب من إسرائيل تأجيل إرسال وفدها لمدة عشرة أيام.

عقد إيسر اجتماعًا مع رجاله في أحد بيوت التأمين لإجراء مناقشة مصيرية – ما العمل؟ كان على رئيس الموساد أن يتخذ قرارًا حاسمًا. وقد كان أمامه خياران: الأول، أن يلتزم بالخطة الأصلية، اختطاف أيخمان هذا المساء، واحتجازه في حبسٍ سريّ في بيت تأمين طوال عشرة أيامٍ كاملة، مع احتمال التعرض لخطر قيام الشرطة أو المنظمات الفاشية في بوينس آيرس بقلب كل شجرةٍ وحجر للعثور عليه. والخيار الثاني، تأجيل اختطاف أيخمان لمدة عشرة أيام، والمخاطرة عندها بحدوث أي خلل أو الاختفاء المفاجئ لأيخمان. اختار إيسر الخيار الأول. التنفيذ على الفور.

في ذلك المساء، نجح تسفي ملحين ورافي إيتان في القبض على أيخمان وهو في طريقه إلى منزله، وألقياه في أرضية المقعد الخلفي لسيارة العملية ثم انطلقا بالسيارة نحو بيت التأمين. وفي الطريق، وضع رافي يده تحت قميص المختطف وتحسس جسده ليكتشف الندبتين اللتين كان يعلم على وجه اليقين أنهما تميزان عقيد الـ «إس إس» أيخمان. ثم صافح يد صديقه تسفي ملحين كدليل على إتمام العملية بنجاح، وبقي طوال الطريق الطويل إلى الفيلا يدمدم «نشيد البارتيزان». نحن هنا! كان يكرر لنفسه، نحن هنا! حتى وصلت السيارة إلى الفيلا دون عوائق.

وهنا، في اليوم التالي، ظهرت «فلامنكو» في الصورة.

فبسبب التأخير في رحلات الطيران، وصلت يهوديت إلى بوينس آيرس بعد أن كان قد تم خطف أيخمان بالفعل. وفي هذه الأثناء، تم سجنه في زنزانةٍ مؤقتةٍ في إحدى غرف الفيلا. ولإخفاء الغرض الحقيقي للفيلا، قرر إيسر إظهارها أمام الجيران والمارة كمنزل اصطياف، قد استأجره زوجان يقضيان إجازة. وقام إيسر بإعطاء دور الزوجين المصطافين لكل من: يعقوب ميداد (ميو) ويهوديت ناسياهو. كان الاثنان يخرجان يوميًّا، وأحيانًا عدة مرات في اليوم، إلى الحديقة الأمامية للمنزل، محمّلَيْن بالصحف والكتب والمشروبات الغازية. كانا يسحبان كراسي الاستلقاء إلى وسط الحديقة ويسترخيان عليها أو يطالعان الصحف أو يُجريان محادثةً فارغة، كما يفعل أي زوجين يقضيان إجازة.

كان مطلوبًا من يهوديت أيضًا أن تُعد الطعام - ولكن ليس فقط لمجموعة الرجال وإنما بشكل خاص لشخص واحد - أدولف أيخمان. لقد كانت تطبخ له وجباته، وتعطيه الحبوب التي وصفها الطبيب المصاحب للفريق. ومع ذلك، رفضت بشدة غسل الأطباق التي لمسها. كتب تسفي ملحين: «أحضرت الإفطار على صينية. بيضة مسلوقة مع البسكويت. لقد وقفت متوترة للغاية عندما رأت أيخمان لأول مرة. ولم تتحرك من مكانها بينما كانوا يطعمونه كما يطعمون طفلا (كان أيخمان مقيدًا ولا يستطيع استعمال يديه). من نظرتها كان من الممكن تخمين أنها لا تفهم كيف يستطيع يهوديٌّ أن يطعم مخلوقًا كهذا. وعندما انتهت

الوجبـة، أخـذت الصينيـة وقالـت: «يـداي لـن تلمسـا هـذه الأدوات. لا أستطيع غسـلها. لقـد أصابنـي الاشـمئزاز والغثيـان». كـما طلـب منهـا إيسر مـرة أن تحلـق لأيخـمان، وفعلـت ذلـك. لكـن عندمـا مـررت شـفرة الحلاقـة الحـادة عـلى جلـد وجهـه، تملكتهـا الرغبـة في غـرز الشـفرة في حلقـه والقضـاء عـلى هـذا المخلـوق «المتوحـش». قالـت لأحـد أصدقائهـا: «كان لـدي شـفرة حلاقـة هنـا عـلى رقبتـه. لقـد تطلـب الأمـر منـي الكثـير مـن الإرادة حتـى لا أقـوم بضغطـة كهـذه...».

هكـذا مـرت عـلى يهوديـت وأصدقائهـا عـشرة أيـام مـن التوتـر والقلـق. عـشرة أيـام طويلـة ومصيريـة أيضًـا، فقـد كانـوا معرضـين خلالهـا لأن يتـم كشـفهم أو اعتقالهـم أو حتـى مـا هـو أسـوأ مـن ذلـك. خـلال تلـك الأيـام، قـام تسـفي أهـاروني باسـتجواب أيخـمان، الـذي أجـاب عـلى أسـئلته باستسـلام. قـال رافي إيتـان لاحقًـا: «لقـد أدرك عـلى الفـور أنـه بـين يـدي الإسرائيلـين». وعـن طريـق أهـاروني، علمـت يهوديـت ناسـياهو بالأحـداث والتجـارب التـي مـرّ بهـا أيخـمان منـذ انهيـار الرايـخ الثالـث. لقـد اختبـأ في أماكـن مختلفـةً في ألمانيـا طـوال خمـس سـنوات، غـيّر خلالهـا هويتـه ثـلاث مـرات. وفي عـام 1950م، هـرب مـن ألمانيـا عـبر أحـد طـرق فـرار المجرمـين النازيـين ووصـل إلى إيطاليـا، ثـم أبحـر مـن هنـاك إلى الأرجنتـين. وبعـد فـترة اتصـل بزوجتـه فـيرا في منزلهـم في لينـز بالنمسـا، فتسـللت مـن منزلهـا وجـاءت إلى الأرجنتـين مـع أبنائهـم الثلاثـة. وهكـذا التـم شـمل عائلـة أيخـمان في بوينـس آيـرس تحـت اسـم «كليمنـت». وعـلى الرغـم مـن الشـائعات عـن الكنـوز الأسـطورية التـي

قـام القـادة النازيـون بتهريبهـا إلى الأرجنتـين، حيـث كان مـن المفـترض أن يعيشـوا هنـاك حيـاة الملـوك، إلا أن عائلـة كليمنـت كانـت فقـيرة جدًّا. وعمـل أيخـمان كعامـل في مصانـع مختلفـة لكسـب أجـر معيـشي ضئيـل لأسرتـه.

*   *   *

أخـبر أيخـمان خاطفيـه بـكل ذلـك خـلال الأيـام والليـالي الطويلـة التـي مـرت عليهـم في الفيـلا، والتـي أطلـق عليهـا اسـم «القاعـدة». في غضـون ذلـك، اتضـح أن أبنـاء أيخـمان قـد جنـدوا الكثـير مـن الأصدقـاء للبحـث عنـه، كـما انضـم أعضـاء المنظمـة الفاشـية «تاكـوارا» إلى عمليـات البحـث أيضًـا. ومـع ذلـك، لم يكتشـف أحـدٌ مـكان اختبـاء الخاطفـين والمختطَـف. أمـا يهوديـت، فقـد أدّت دورهـا بشـكل جيـد، لكنهـا واجهـت مشـكلة واحـدة. فلكونهـا يهوديـة محافظـة، واجهـت صعوبـات كبـيرة في مسـائل الطعـام. هـي نفسـها لم تتـذوق الطعـام الـذي أعدّتـه، وفي معظـم الأوقـات كانـت تـأكل بيضًـا مسـلوقًا وخبـزًا جافًـا، وتـشرب كـوكا كـولا.

مـع انقضـاء الأيـام العـشرة، وصلـت الطائـرة بالفعـل مـن أرض فلسـطين، وتـم اسـتقبال الوفـد الـشرفي مـن قبـل السـلطات الأرجنتينيـة. وفي اليـوم التـالي، قـام الفريـق بإصعـاد أيخـمان إلى الطائـرة في زي الطاقـم الجـوي لشركـة إل عـال. كـما صعـد إيسر والفريـق أيضًـا عـلى متـن الطائـرة، وجلبـوا أيخـمان إلى أرض فلسـطين. وقـد لعبـت يهوديـت دورًا مهـمًّا في عمليـة إصعـاد أيخـمان المخـدر إلى الطائـرة. ثـم عـادت بعدهـا عـبر رحلـة جويـة أخـرى إلى

أرض فلسطين، ورجعت إلى إخفاء هويتها. وقد سُمح لها بزيارة محاكمة أيخمان كمتفرج من الجمهور، بمفردها، دون أي صلة بأصدقائها في العملية.

كانت مشاركة يهوديت ناسياهو في «العملية الأخيرة» لاختطاف أيخمان، حدثًا ثوريًّا في تاريخ الموساد. فحتى ذلك الحين، كانت النساء يشاركن في العمليات بشكل رئيسي كـ «مرافقات». لكن في «العملية الأخيرة»، لم تقتصر مشاركة يهوديت ناسياهو على أداء أدوارٍ بحثية أو إداريةٍ أو حتى لعب دور ثانوي كمرافقة، بل تم إرسالها إلى الخطوط الأمامية في واحدةٍ من أكثر عمليات الموساد تعقيدًا وخطورة.

*   *   *

كانت هناك امرأة أخرى شاركت أيضًا في «العملية الأخيرة»، وإن كان في دور «إداري» لكنه مهم جدًّا، وهي ياعيل بوسنر.

في أحد أيام السبت، في مايو/ أيار عام 1960م، رن جرس الهاتف في منزل عائلة بوسنر بالقدس. فذهبت ياعيل بوسنر للرد على المكالمة في الغرفة المجاورة. وعند عودتها، قالت لزوجها نحمان: «إنه على متن الطائرة».

«من؟» سألت ابنتها روتي المتزوجة حديثًا، والتي تصادف وجودها في المنزل.

لكـن ياعيـل لم تجب، فأجاب الأب بـدلا عنهـا: «والدتـك تنتظر ضيفًا». دون أن يضيـف شـيئًا آخر.

ثـم بعـد يومـين، اعتـلى بـن جوريـون منصـة الكنيسـت، وأعلـن: «المجرم النـازي أدولـف أيخـمان موجـود هنـا في البـلاد».

فهمـت روتي وأعلنـت للعائلـة: «أمـي كانـت مشـاركة في هـذا». وقـد قوبـل كلامهـا هـذا بموجـةٍ عامـةٍ مـن الضحـك.

وربـما كان الضحـك في غـير محلـه، فقـد كانـت ياعيـل برفقـة نحـمان بوسـنر، زوجـين نموذجيـين مـن «اليهـود ذوي الأصـل الألمـاني». كانـت ياعيـل تسـمى في الأصـل «شـارلوته»، ونحـمان «لودفيـغ». درسـا الفيزيـاء في جامعـة برلـين، وحصـل كلاهمـا عـلى درجـة «دكتـور في الفيزيـاء» تـم منحهـا لهـما مـن قبـل أعظـم الفيزيائيـين في العـالم.

لم تكتـف ياعيـل بالعمـل في الفيزيـاء. فقـد تعرفـت عـلى هنريتـا زولـد وعملـت في منظمـة «عاليـات هانوعـار» (المهاجـرون الشباب). إلى أن التقـى بهـا، في أحـد أيـام العـام 1952م، أول رئيـس للموسـاد رؤوفـين شـيلواح وأعجـب بقدراتهـا. فكلفهـا هـو ومـن بعـده خليفتـه إيسر هاريـل بأحـد أهـم الأدوار في الموسـاد: بنـاء الغطـاء والهويـة المزورة للمحاربـين الذيـن يغـادرون إلى البلـدان المسـتهدفة.

كان الـدور مصيريًّـا. إذ كان يتوجـب عـلى ياعيـل، المـرأة الصغـيرة البشوشـة والأنيقـة والمفعمـة بالحيويـة، أن تبنـي أغطيـة لا يمكـن اختراقهـا

للإسرائيليين الذين يتم إرسالهم إلى بلدان أوروبا ودول العدو. وقد شمل الغطاء بالطبع جوازات سفر أجنبية وبطاقات هوية ورخص قيادة ووثائق رسمية. كما تضمن أيضًا تذاكر الحافلة أو الترام، ودعوات إلى المطاعم والمتاجر، وأغراض صغيرة مثل المفاتيح والعملات المعدنية – كل ما كان يلزم تزويره، أو جعله مجعدًا، أو تلويثه أو جعله متآكلا، أو تمزيقه ليحمله المحارب في جيبه. ولكن فوق كل ذلك، كان يجب بناء «قصة حياة» له. قصة تتضمن معرفةً شاملةً عن وطنه، المدينة، الشارع، المدرسة، قصص وأغاني محلية، صور للشوارع والمواقع الخاصة. كانت هذه حرفة تطريزٍ مفصلةً ومليئةً بالمخاطر، حيث يكفي مجرد وقوع أي خطأ أو إغفال لتنهار قصة التغطية بكاملها ويتم القبض على المحارب من قبل العدو. كانت ياعيل قبل بناء الغطاء تلتقي بالمحارب أو المحاربة وتدرسهم، ثم تبني قصة تتلاءم مع مظهرهم وشخصياتهم واللغات التي يتحدثونها بطلاقة. وقد احتاجت ياعيل في عملها إلى قدر كبير من المعرفة بالدول الأوروبية وكندا (حيث يفترض أن معظم المحاربين جاؤوا من هناك)، وإلى كتبٍ وأدلّةٍ سياحيّةٍ وصحفٍ من جميع أنحاء العالم. والأهم من ذلك كله، احتاجت ياعيل إلى خيال واسع من أجل خلق شيءٍ من لا شيء وبناء شخصياتٍ كاملةٍ لأشخاصٍ لم يكونوا موجودين.

قامت ياعيل بوسنر ببناء قصص تغطيةٍ طوال 12 عامًا، حتى تقاعدها. وكان القبض على أدولف أيخمان مصدر فخرٍ لها. فهي من بنت الأغطية والوثائق لجميع المشاركين في العملية. ولذلك تلقت المكالمة

الهاتفية في ذلك السبت لتبشرها: «هو (أيخمان) على متن الطائرة»، ولذلك أيضًا أهداها إيسر هاريل كتابه «البيت في شارع غاريبالدي». حيث كتب إيسر في الإهداء: «إلى ياعيل، لمشاركتها في العملية».

* * *

قبل وقتٍ قصيرٍ من بدء محاكمة أيخمان، التقت يهوديت ناسياهو بشابة صغيرة صهباء في مكتب مالكا برافرمان. كانت الشابة قد خرجت من غرفة رئيس الموساد ولوحت لمالكا بشكل عابر. لاحظت مالكا، سكرتيرة رئيس الموساد، التعجب على وجه يهوديت. فقالت بابتسامة: «أوه، هذه هي الفتاة».

«أي فتاة؟»

ابتسمت مالكا وروت لها القصة.

بعد إحضار أيخمان إلى إسرائيل، تم التحقيق معه لأيام طويلة. وكانت التقارير تترجم إلى اللغة العبرية وترسل يوميًّا إلى إيسر هاريل. وقد لاحظ إيسر أنه في هوامش التقارير كانت هناك ملاحظات ذكية كتبها أحدهم بخط اليد.

سأل إيسر مالكا برافرمان: «من كتب هذا؟»

«فتاة تجيد الألمانية».

قـال: «أحـضروا الفتـاة». فأحـضروا شـابة في الثانيـة والعشريـن مـن عمرهـا، ذات شـعر أحمـر مصفّـفٍ قصـير، وعينـان زرقـاوان، طويلـة القامـة ونحيفـة. لقـد بـدت حقًّـا كفتـاة في سـن «المراهقـة». كان اسـمها عليـزا ماجين.

سألها: «من أين لغتك الألمانية؟»

روت لـه أنهـا تنتمـي لعائلـة يهوديـة ألمانيـة مـن برلـين. وفي يـوم مـن أيـام العـام 1933م، وبعـد وصـول النازيـين إلى الحكـم، تـم إعـلام رب الأسرة، والـذي كان يعمـل محاميًـا، أنـه لم يعـد باسـتطاعته المرافعـة أمـام المحاكـم الألمانيـة. كان ذلـك كافيًـا. إذ سرعـان مـا هاجـرت العائلـة إلى أرض فلسـطين، واسـتقرت في حـي رحافيـا في القـدس. حيـث أنجبـا ابنتهـما عليـزا، وكانـت الألمانيـة هـي لغتهـا الأم. التحقـت عليـزا بالموسـاد بعـد إنهـاء خدمتهـا العسـكرية، حيـث أوصى بهـا صديـق العائلـة ضابـط الاسـتخبارات الجويـة كـولي نيـشر، نظـرًا لإتقانهـا اللغـة الألمانيـة. في ذلـك الوقـت، لم يكـن ضبـاط الموسـاد بحاجـةٍ لاتبـاع دورة تدريبيـةٍ خاصـة، فانخرطـت في العمـل عـلى الفـور. وهكـذا وصلـت إلى التقاريـر عـن التحقيقـات مـع أيخـمان، فترجمتهـا وأضافـت عليهـا الملاحظـات أيضًـا.

طلب إيسر معرفة سبب كتابتها للملاحظات.

فأجابته ببساطة: «أثناء قيامي بالترجمة، كتبت أفكارًا».

وهكـذا، عندمـا بـدأت محاكمـة أيخـمان، طلـب منهـا إيـسر الحضـور إلى مكتبـه كل صبـاح. كـما تطرقـت باسـتفاضة إلى حجـج الدكتـور سـيرفاتيوس،

محامي الدفاع عن أيخمان. «كان إيسر مهتمًّا جدًّا بما يجري في المحاكمة، وقد أدرك أنني كنت ألتقط الأشياء – ليس فقط ما على السطح، ولكن ما هو تحت السطح أيضًا».

انتهت المحاكمة، لكن إيسر لم ينس اللقاء مع «الفتاة»، واعتبرها مرشحة لعمليات مستقبلية. حيث سيقوم قريبًا بتشغيل كلتا المرأتين، عليزا ويهوديت، في واحدة من أغرب عمليات الموساد، عملية «شبل النمر».

* * *

في هذه الأثناء، حقّقت يهوديت حُلمًا حملته في قلبها لسنواتٍ عديدة، وهو تكوين أسرة، حيث تزوجت في عام 1962م من مردخاي ناسياهو، وكان عمرها 37 عامًا، وذلك بعد صداقة استمرت قرابة 20 عامًا، منذ دراستهم الجامعية. وبعد سنتين، أنجبت ابنهما حاييم. كان الوالدان سعيدين، لكن يبدو أن كلا منهما كان يعيش في عالمه الخاص – مردخاي في ميادين الرؤية الاجتماعية لحركة العمال، ويهوديت في عالم الظل التابع للاستخبارات. كما أنها شرعت في ذلك العام أيضًا في عملية «شبل النمر».

كان المجتمع الإسرائيلي في ذلك الوقت مشغولا بسؤال واحد: «أين يوسيل؟» لقد مزق هذا السؤال المجتمع في البلاد، ووضع العلمانيين في مواجهة المتدينين، وأدّى إلى وقوع أعمال عنف، بل وهدد بإشعال حرب

أهليـة في إسرائيـل. وكل ذلـك حـول اختطـاف طفـلٍ صغـيرٍ عمـره ثمانيـة أعـوام يدعـى يوسـيل شـوماخر.

كان يوسـيل ابنـا لوالديـن علمانيـين، ألـتر وإيـدا شـوماخر، وقـد تـم اختطافـه عـام 1960م عـلى يـد جـده ر. نحـمان شـتراكس. حيـث كان الجـد يهوديًّـا حريديًّـا[1] متعصبًـا وقاسـيًا مـن القـدس، وكان يخشـى أن تقـوم ابنتـه وزوجهـا بالعـودة إلى روسـيا فيتخـلى الطفـل عـن دينـه. وقـد اعتُقـل الجـد عـدة مـرات لكنـه أصر عـلى موقفـه ولم يقـل شـيئًا عـن مكـان تواجـد الطفـل. وافـترض المحققـون أن الطفـل قـد تـم تهريبـه إلى خـارج البـلاد. احتلـت مسـألة الاختطـاف رأس قائمـة الاهتمامـات الشـعبية وتحولـت إلى نقطـة خـلافٍ كبـيرةٍ قابلـة للانفجـار بـين العلمانيـين والحريديـين. وقـد خشـي رئيـس الـوزراء بـن جوريـون مـن انـدلاع حـربٍ أهليـة في البـلاد، فاسـتدعى إيـسر في مطلـع شـهر مـارس/ آذار عـام 1962م، وسـأله: «قـل لي، هـل يمكنـك العثـور عـلى الطفـل؟»

انضـم إيـسر فـورًا إلى العمليـة، التـي أطلـق عليهـا اسـم «شـبل النمـر». أنشـأ لنفسـه مقـرًّا في باريـس وأرسـل عمـلاءه إلى جميـع أنحـاء أوروبـا تحـت أغطيـة مختلفـة للبحـث عـن الطفـل في أوسـاط الجاليـات الحريديـة. أصيـب الكثـيرون داخـل الموسـاد وخارجـه بالدهشـة – فـما علاقـة الموسـاد بالنـزاع

(1) الحريديم: جماعة من اليهود المتديّنين ويعتبرون كالأصوليين، حيث يطبقون الطقوس الدينية ويعيشون حياتهم اليومية وفق التفاصيل الدقيقة للشريعة اليهودية. ويحاول الحريديم تطبيق التوراة في فلسطين المحتلة.

الدائـر بـين اليهـود العلمانيـين والمتدينـين حـول طفـل واحـد؟ لكـن إيـسر واصـل عملـه.

حتـى أن بعـض رجـال إيـسر تظاهـروا بأنهـم مـن اليهـود الحريديـين وحاولـوا التسـلل إلى وسـط الجاليـات اليهوديـة في هولنـدا وفرنسـا وبلجيـكا وسـويسرا وبريطانيـا. لكـن مبادراتهـم فشـلت لعـدة أسـباب. فالذيـن هرّبـوا يوسـيل إلى خـارج البـلاد حافظـوا عـلى السريـة المطلقـة والتجزئـة الفعالـة، ولم يعـرف معظـم الحاخامـات الحريديـين عـلى الإطـلاق مـاذا حـلّ بالطفـل. كـما كان هنـاك سـببٌ آخـر، وهـو أنـه في كثـير مـن الحـالات تـم اكتشـاف عمـلاء الموسـاد بمجـرد وصولهـم إلى المـدارس الدينيـة اليهوديـة أو الأحيـاء الحريديـة في أوروبـا، وأصبحـوا مصـدر سـخرية بـين الشـباب الحريديـين. وقـد رشـقهم الصبيـة بالحجـارة وقذفوهـم بالشـتائم، بـل واسـتدعوا لهـم الشرطـة. كـما انتهـت بالفشـل أيضًـا عمليـاتٌ أكثـر تعقيـدًا لكشـف الـسر، كان قـد خطـط لهـا إيـسر.

كانـت يهوديـت ناسـياهو إحـدى اللـواتي لم يتـم كشـفهن. «المـرأة الرحالـة» التـي كثـيرًا مـا لعبـت دور المـرأة الأوروبيـة العصريـة والليبراليـة، تجـردت مـرة أخـرى مـن هويتهـا وارتـدت لباسًـا آخـر. فقـد تنكـرت الآن في صـورة امـرأة حريديّـة متواضعـة ومكتئبـة ومعذَّبـة. كانـت تطـرق أبـواب المـدارس الدينيـة اليهوديـة في أوروبـا. ولكونهـا متدينـة وتعـرف جيـدًا القوانـين والعـادات اليهوديـة، فقـد جعـل هـذا المهمـة أسـهل بالنسـبة لهـا. أراد إيـسر هاريـل اخـتراق طائفـة سـاتمار المغلقـة في أنتويـرب ببلجيـكا، فتوجـه إلى يهوديـت.

كانـت لديهـا ميزتـان مهمتـان للغايـة بالنسـبة لـه - تديُّنهـا، وإتقانهـا للغـة الفلمنكيـة الهولنديـة.

غطّـت يهوديـت رأسـها بشـعر مسـتعار «شـيتل»، وذهبـت إلى منـزل أحـد حاخامـات الطائفـة، وقدمـت نفسـها عـلى أنهـا امـرأة عازبـة تبحـث عـن الـزواج. فدعاهـا إلى منزلـه. كان الأمـر خطـيرًا بالنسـبة لهـا، حيـث إن جـزءًا مـن عائلتهـا كان مـن أنتويـرب وربـما يتعـرف عليهـا أحـدٌ مـا بطريقـة أو بأخـرى. عاشـت في منـزل الحاخـام لعـدة أشـهر، وكانـت تتحـدث معـه ومـع عائلتـه قليـلا باللغـة اليديشـية، دون أن يظهـر عليهـا أنهـا تفهـم اللغـة الفلمنكيـة المحليـة. كانـت مقتنعـةً بـأن أفـراد هـذه العائلـة يعرفـون مـكان يوسـيل، فـأصرت عـلى البقـاء هنـاك والتنصـت. لقـد كانـت تجلـس في المطبـخ وتزعـم أنهـا تـدرس التـوراة، لكنهـا في الواقـع كانـت تسـتمع لمحادثـات أهـل البيـت. وسـمعتهم أكثـر مـن مـرة يتحدثـون عنهـا. كانـوا يقولـون: كيـف سـتجد زوجًـا؟ إنهـا كبـيرة في السـن، ومظهرهـا، يـا لهـا مـن مسـكينة! لكنهـا سـمعت أيضًـا مقتطفـات كلام عـن يوسـيل، وهمسـات بأنـه يجـب عـدم التحـدث عـن الطفـل. ثـم التقطـت أخـيرًا جـزءًا مـن محادثـة أعطتهـا مفتـاح حـل اللغـز: قصـة عـن امـرأة نقلـت الطفـل متنكـرًا بـزي طفلـة إلى الولايـات المتحـدة. فأسرعـت إلى إبـلاغ إيـسر بذلـك. الطفـل في أمريـكا!

* * *

تـم اكتشـاف تلـك المـرأة الغامضـة التـي هربـت الطفـل في نفـس الوقـت

من قبل إيسر ورجاله. فبينما كانت يهوديت في أنتويرب، اكتشف رجال إيسر أن امرأة فرنسية جريئة جميلة شقراء وملفتة للنظر، كانت تعمل في حركة سريّة مناهضة للنازية خلال الحرب العالمية الثانية. وكان اسمها مادلين فراي. لقد كانت مسيحية، ولكنها نسجت علاقات وثيقة مع الجالية الحريدية في فرنسا وبلجيكا، حيث كانت قد تعرفت عليهم خلال أنشطتها ضد النازيين. كانت الطائفة قد تم تنظيمها كمنظمة سريّةٍ في كل شيء، مع قواعد تجزئة وكلمات سر للاتصال. وعملت المرأة الفرنسية في نقل المراسلات وتأمين التواصل بين التجمعات الحريدية، فامرأة شابة وجميلة مثلها كانت تبدو أقل إثارة للشكوك لدى الألمان.

كان للمرأة الفرنسية طفلٌ صغير من زواج سابق، اسمه كلود. حيث كانت قد وقعت في حب حاخام شاب واعتنقت اليهودية. فتحولت الفرنسية مادلين فراي إلى يهودية اسمها روت بن ديفيد. كما تم تهويد الطفل أيضًا، فتغيّر اسمه من كلود إلى أريئيل، وهاجر إلى أرض فلسطين. لكن العلاقة بين روت بن ديفيد ومحبوبها ساءت وانقطع الاتصال بينهما.

مع ذلك، واصلت المرأة الفرنسية الغامضة العمل مع الحريديين. حيث استمرت في العمل كساعية بريد بين تجمعاتهم ونقلت المستندات والأموال والأغراض. وكانت هي أيضًا، مثل يهوديت ناسياهو، تبدل هويتها كثيرًا. حيث كانت تظهر في أحد الأيام بملابس محتشمة وغطاء رأس كروت بن ديفيد، وتعود في يوم آخر إلى هوية مادلين فراي الباريسية الأنيقة والساحرة، بكامل زينتها، مرتديةً أحدث صيحات الموضة. كان

من الصعب جدًّا على محاربي الموساد الذين أُرسلوا في أعقابها إلى أوروبا أن يتعقبوها، فقد كانت تعمل كعميلة سريّةٍ ماهرة، ولم يكن لديها عنوانٌ دائمٌ ولا أرشيفٌ ولا خدماتٍ مكتبية، لقد كانت تحمل كل وثائقها وشهاداتها في حقيبتها. لكن رجال إيسر اكتشفوا أنها كانت تستخدم صندوق بريد، فتواصلوا معها عبر ذلك الصندوق. وفي 21 يونيو/ حزيران عام 1962م، تمكنوا من القبض عليها. واحتجزوها عدة أيام في بيتٍ منعزلٍ في فرنسا، وكانوا يحرصون على أن يقدموا لها طعام الكوشر.

تذكر إيسر «الفتاة». فبما أنّ روت بن ديفيد كانت امرأة متدينة ولا يجوز لها البقاء بمفردها مع رجل أو مجموعة رجال ممن كانوا يحققون معها، قام إيسر بإحضار عليزا ماجين من أرض فلسطين لتمكث معها طوال الوقت. قالت عليزا: «سلموني جواز سفر، وقالوا لي: سافري! فسافرت، دون أي إعداد مسبق، ودون اتباع أي دورة».

هكذا شاركت الاثنتان، يهوديت وعليزا، في نفس العملية. كان بعض المحققين يأملون أن تقوم روت بن ديفيد بفتح قلبها المغلق لشريكتها في الغرفة، لكن هذا الأمل قد تبخر.

لكن أخيرًا، وفي لقاء دراماتيكي مع إيسر، انهارت المتهودة وتكشفت تفاصيل عملية تهريب يوسيل. حيث تبين أن مادلين فراي جاءت إلى أرض فلسطين بناءً على توجيهات من الحاخامات الحريديين، وزوّرت جواز سفرها الذي كان مسجلا فيه ابنها باسمه السابق كلود.

حيث حوّلت اسم «كلود» ليصبح «كلودين» - اسم فتاة - كما زوّرت أيضًا تاريخ الميلاد، وقامت بتهريب يوسيل من إسرائيل إلى أوروبا متنكرًا بزي فتاة تحمل اسم «كلودين فراي». وقد تقاطعت هذه المعلومات مع المعلومات التي أرسلتها يهوديت ناسياهو. ثم قامت روت بن ديفيد بأخذ الطفل إلى أمريكا، متنكرًا بزي فتاةٍ مرة أخرى. وخلال المواجهة مع إيسر، كانت تخرج من فم المتهودة عبارة: «أنا أحطم نفسي، أنا أحطم نفسي». وفي النهاية، نظرت مباشرة إلى إيسر، وقالت: «الطفل موجود لدى عائلة جارتنر، في شارع بن 126 في بروكلين، نيويورك. إنهم يطلقون عليه اسم يانكل».

قفز إيسر واقفًا على قدميه وهرع إلى الهاتف الذي في مكتبه. وفي مساء اليوم ذاته، داهمت مجموعة من عناصر «إف بي آي» الأمريكية، يرافقها وسيط إسرائيلي، منزل جارتنر وعثرت على الطفل.

* * *

تم إحضار يوسيل إلى إسرائيل على وقع الطبول والرقصات، واحتفلت البلاد بأسرها بانتهاء القضية. كان إيسر هاريل سعيدًا جدًّا بالنتيجة النهائية للعملية، لكنه كان يأمل في تحقيق شيء آخر. لقد أعجب كثيرا بروت بن ديفيد، ورأى فيها مؤهلاتٍ هائلة لمحاربة ذكية وشجاعة قادرة على خدمة البلاد والقيام بأشياء عظيمة. فأمر مساعديه بتجنيد روت بن ديفيد في الموساد، لكن كان قد فات الأوان. حيث أن تلك

المحاربة الخفية للعالم الحريدي، التي رأى فيها المحاربة النهائية، عادت إلى حي مئة شعاريم في القدس وتزوجت فيما بعد من زعيم حركة ناطوري كارتا الحاخام العجوز المتعصب عمرام بلوي.

تقاطعت طُرق يهوديت وعليزا، فكانتا تلتقيان كثيرًا. ويذكر أن عليزا ماجين لم تكن تعجبها اختيارات يهوديت لملابسها. وكانت تمزح بين أصدقائها بشأن فساتين يهوديت التي تفتقر للكياسة، إلا أنها كانت تضيف على الفور، بتقدير: «لكنها ذكية للغاية!!!»

بعد فترة قصيرة من إعادة الطفل يوسيل إلى إسرائيل، اندلعت أزمة العلماء الألمان في مصر، والتي كان متورطًا فيها، كما ذُكر سابقا، فولفغانغ وفالتراود لوتز. وبسبب إجادتها للغة الألمانية، تم إرسال عليزا ماجين بشكلٍ عاجلٍ إلى باريس، حيث كان المقر العملياتي الأمامي للموساد. وأثناء وجودها هناك، علمت أن أحد العلماء الألمان، والذي كان في أوروبا وقتها، قد تم تجنيده في الموساد، لكنه كان خائفًا ويخشى التحدث. قالت عليزا: «لقد كان خائفًا للغاية. ومن كان أمامه لم يستطع تهدئته. فتم استدعائي، وقالوا لي: بمجرد أن يرى امرأة - شابة، لم أكن امرأة في ذلك الوقت (كانت تبلغ من العمر 24 عاما) - سيكون أكثر هدوءًا بالفعل». هكذا سافرت عليزا إلى سالزبورج في النمسا والتقت بالرجل، أوتو يوكليك، وقد تمكنت حقًّا من التواصل معه. وبعد ذلك توجهت إلى قادتها في الموساد، وقالت: «يا رفاق، يمكنني إقناعه بالمجيء إلى إسرائيل».

لم يصدق أحد. ففي البداية، أصيب يوكليك بالذعر من الفكرة ذاتها، لكنها لم تستلم. «قلت له أنني سأرافقه وسأكون معه طوال الوقت وبإمكانه أن يكون هادئًا تمامًا». هكذا اقتنع وسافر معها إلى أرض فلسطين وتم التحقيق معه مليًّا. قالت: «كان ذلك نجاحًا باهرًا، لقد كان مميزًا حقًّا. ثم فجأة فُتحت نافذةٌ أخرى على هذه المجموعة التي كانت في مصر، والتي كانت لغزًا حتى ذلك الحين، كان هذا نجاحي الأول. ثم أحضرتُ واحدًا آخر».

* * *

في حين واصلت يهوديت ناسياهو العمل في العديد من عمليات الموساد، بعضها في أوروبا، وبعضها في بلدان عربية أيضًا. وخلال إحدى مهماتها في مصر، حدثت معها الحادثة التي كان يخشاها جميع أفراد الموساد. ففي مطار الإسكندرية، تعرف عليها شخص كانت تعرفه منذ سنوات. كان يصيح: «يهوديت؟ ماذا تفعلين هنا؟ كيف حالك؟» كانت هذه من المرات القليلة التي شعرت فيها بالخطر. فإذا ما تم اكتشاف هويتها الحقيقية في دولة معادية، سيكون مصيرها سيئًا ومريرًا. في البداية، تجاهلت الشخص الذي تعرّف عليها. ولكن عندما استمر في مناداتها، التفتت إليه وفتحت عينيها في حيرة، وقالت له بالإنجليزية: «أنت تخلط بيني وبين شخص آخر»، ثم غادرت المكان بسرعة.

كما شاركت في إسرائيل أيضًا في التخطيط لعدد من العمليات

الرئيسية للموساد. وعندما قرر الموساد تعقب المجرم النازي هربرتس كوكورس، واغتيالَه في البرازيل، كانت هي من أجرت الدراسة المعمقة عنه، سويّةً مع عليزا ماجين. كان كوكورس نازيًّا من لاتفيا، وكان مسؤولا عن ذبح الآلاف من اليهود. وبعد الدراسة التي أجرتها يهوديت، تقرر تحديد موقع كوكورس وقتله. أما المحارب الذي أُرسل في أعقاب النازي، فلم يكن إلا «الزوج الافتراضي» ليهوديت في عملية القبض على أيخمان، ميو ميداد. في البداية، صنع لنفسه غطاءً لضابط ألماني سابق في الجيش النازي. ثم ذهب إلى البرازيل، وتواصل مع كوكورس وأغراه للمجيء إلى مونتيفيديو، عاصمة الأوروغواي، حيث تم اغتياله على يد وحدة عملياتية تابعة للموساد.

* * *

في ذلك الوقت، كانت عليزا ماجين غارقة في الإعداد لواحدة من أشهر عمليات الموساد - جلب طائرة ميج17- إلى أرض فلسطين. كانت الطائرة الروسية تعتبر في تلك السنوات ذروة التكنولوجيا السوفياتية، وكانت تشكل العمود الفقري للقوات الجوية المصرية والسورية والعراقية. وقد شكلت التحدي الأكثر خطورة لطائرات «الميراج» التابعة لسلاح الجو الإسرائيلي. تم تكليف الموساد بالمهمة التي بدت وقتها مستحيلة: الحصول على طائرة ميج17-. عثر عملاء الموساد على طيار عراقي-مسيحي، هو منير ردفا. وقد تمكنوا من إقناعه بالانشقاق عن العراق بطائرته ميج17-. وافق ردفا، فتم إحضاره سرًّا إلى إسرائيل من

أجل الإعداد وإعطائه التعليمات التفصيلية. وكان يتعين إيواؤه في مكانٍ لا يتعرف عليه فيه أحد، وبالتالي لم يكن باستطاعته المكوث في الفندق، ولا حتى في قاعدةٍ عسكرية. تطوعت عليزا ماجين، التي كانت أحد المخططين للعملية، بشقتها الصغيرة في شارع لويس مارشال في تل أبيب، ولم يكتشف أحد هوية المستأجر المؤقت لشقتها. وبعد بضعة أسابيع، في 16 أغسطس/ آب عام 1966م، هبط ردفا بطائرته في أرض فلسطين، وتكللت العملية بالنجاح التام.

في غضون ذلك، شاركت يهوديت ناسياهو في العديد من العمليات للحصول على معلوماتٍ استخباراتيةٍ حيوية للدولة، ولا يزال الغموض يكتنف جزءًا كبيرًا من عملياتها. وقد اكتسبت مكانة خاصة داخل الموساد كامرأة ذكية وحساسة ومكرسة بالكامل لأمن البلاد.

عام 1976م، وبعد أن بلغت الـ 51 عامًا، شعرت يهوديت أنها وصلت إلى ذروة إنجازاتها في الموساد. فتقاعدت وعادت إلى الجامعة، حيث درست القانون والمحاسبة. فيما أكملت فترة تدريبها في مكتب المحامي إيرفين شمرون. وقد عملت في عدة وظائف، وكانت مدبرة الحسابات في رابطة الكُتّاب. كما أصيبت أيضًا بالفيروس السياسي، فكانت من مؤسسي حزب «النهضة (هتحيا)». كانت هي وشقيقها أفرايم يمينيان، عارض كلاهما تقسيم البلاد. ومع ذلك، التزمت يهوديت بمبادئها الأخلاقية.

وعلى الرغم من عملها السياسي، استمرت في الهروب من أي شكلٍ

من أشكال الشهرة. ووفقًا لما ذكره السفير بالمور: «كانت تهرب من الكاميرا كما لو أنها الشيطان». وقد قالت يهوديت لابنة أختها روتي بن حاييم: «إذا وصلت صورة لي إلى المكان الخطأ، ولو ببراءة، فمن الممكن أن يموت شخص ما». كما أنها رفضت طلبات الكاتبة الشهيرة شولاميت لبيد لتأليف كتاب عنها.

احتفظت بأسرار عملياتها في قلبها، لكنها كانت تحب أن تتحدث عن ابنها الوحيد حاييم الذي ولد عام 1964م. اشتهر حاييم بأنه عبقري في الرياضيات، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه كان على وشك السفر إلى الولايات المتحدة لإجراء دراسات ما بعد الدكتوراه. كانت يهوديت ومردخاي فخورين بابنهما وراضيين عنه تمام الرضا. وكان من المتوقع أن تحصل يهوديت على شيخوخة مريحة وكريمة.

لكن قدر هذه المرأة لم يكن كذلك، إذ وقعت عليها الضربات الواحدة تلو الأخرى. فقد أصيب زوجها مردخاي بالسرطان ودخل المشفى عام 1994م. وبينما كانت تقف بجوار سريره في المشفى، تم استدعاء يهوديت إلى الخارج من قبل إحدى الممرضات التي جلبت لها أخبارًا مروعة. «لقد مات حاييم».

كان ابنها حاييم مع صديقته وزوجٍ آخر من الأصدقاء في رحلة إلى جبل أنابورنا في نيبال. وبعد التنزه في الجبال، استلقى لينام بجوار صديقته. وفي الصباح، استيقظ وسأل عن الوقت. فقالت له صديقته:

«لديك نصف ساعة أخرى للنوم». ثم استدار إلى الجانب الآخر، وفجأة بدأ يشخر. وبعد دقائق فقد وعيه – ومات.

كانت هذه ضربةً موجعةً ليهوديت وزوجها. وعبثًا حاولت مواساة نفسها من خلال الانغماس في الماضي. قالت في جنازة حاييم: «الحمد لله الذي أعطاني إياه لثلاثين عامًا». لكنها اعترفت لأصدقائها: «أنتم عزيزون جدًّا عليّ، لكن لا يوجد شيء يمكن أن يملأ هذا الفراغ».

توفي مردخاي بعد ثلاث سنوات، وبقيت يهوديت لوحدها. لقد أنشأت مكتبة في كاتماندو تخليدًا لذكرى ابنها الحبيب. كانت تسافر كل عام إلى نيبال وتزور النزل الذي مات فيه حاييم، ثم تستأجر طائرةً مروحيةً وتحلق فوق المنطقة التي خطا فيها ابنها خطواته الأخيرة.

ألقت هذه المأساة بظلالها الثقيلة على سنواتها الأخيرة. قبل أن تصاب بمرض عضال وتموت في عام 2003م. قالت ابنة اختها ميرا ديفيز للصحفي أوري بلاو: «في كل عام كانت تطلب أن يكون هذا عامها الأخير. لقد استسلمت بالفعل. كما أنها حافظت على اتصال وثيق مع أصدقاء حاييم، وتعلمت اللغات وكانت مشغولة دائمًا. لقد واصلت العمل، لكنها من الداخل كانت محطمة وتنتظر فقط».

(10)

إيزابيل: على الكعب العالي في القاهرة

بجمالها وأناقتها، نزلت إيزابيل بيدرو من سفينة المسافرين التابعة لشركة زيم في ميناء حيفا، في أكتوبر/ تشرين الأول عام 1961م. كانت في السابعة والعشرين من عمرها. وقد قالت ابنة أختها روتي أنر، التي كانت طفلة صغيرة في ذلك الوقت: «ذهب والدي لإحضارها من الميناء إلى كريات حاييم، حيث كنا نعيش. لقد كانت مختلفة عن الجميع. مثيرة، رائعة وجميلة، متزينة جيدًا، رشيقة الساقين. لقد كانت قصيرة، لكنها بكعبها العالي كانت تبدو دائما طويلة القامة. واللغات! كانت تتحدث الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية واليديشية وجميع اللهجات الألمانية. وأضافت لهم العبرية، التي بدأت فورًا بتعلمها في معهد اللغة العبرية في كيبوتس أوشا. كانت تعود إلينا نهاية كل أسبوع، ومع نهاية الدورة انتقلت إلى جفعاتايم». قام والدا إيزابيل، اللذان بقيا في الأوروغواي، بدعمها ماليًّا، فدرست الهندسة المعمارية الداخلية في فرع التخنيون (معهد إسرائيل التكنولوجي) في تل أبيب. كانت تحتاج

إلى شـهادة تخـرج مـن التخنيـون مـن أجـل الحصـول عـلى شـهادة أكاديميـة إسرائيليـة لمهنتهـا.

بعـد مـرور عـام، ظهـرت إيزابيـل قلقـةً في مركـز شرطـة يافـا، حيـث أجـرت محادثـة مـع ضابطـة شرطـة. لقـد أخبرتهـا أنـه قـد جـاء شـابّان لا تعرفهـما إلى منزلهـا، في شـارع 23 يـوردي هسـيرا في جفعاتايـم. وبعـد تـردد طفيـف فتحـت البـاب ونظـرت إليهـما. قـال أحدهمـا: «ليـس لديـك مـا تخشـينه. نحـن نريـد أن نعـرض عليـك عمـلا في الخـارج يتعلـق بالأمـن».

فكـرت في الأمـر، ثـم دعتهـما أخـيرًا للدخـول، لكنهـا حادثتهـما بجـوار البـاب... ولدهشـتها، كان هـذان الشـخصان يعرفـان جيـدًا مـن تكـون. بـل ويعرفـان تاريـخ حياتهـا بالتفصيـل. لقـد كان الأمـل أكثـر مـن مريـب.

سـألت: «مـن أرسـلكما؟» لكنهـما تجاهـلا السـؤال. لقد أكّـدا لهـا أن الذين أرسـلوهما واثقـون بأنهـا تسـتطيع «لعب دور مفيـد للبـلاد في دول أجنبية».

هـي لم تقتنـع. كـما أنهـما لم يطلبـا منهـا جوابًـا. قـالا لهـا عنـد مغادرتهـما: «فكـري في الأمـر، وسـنعود إليـك لنحصـل عـلى جـواب. كل مـا قلنـاه لـك كان صحيحًـا تمامًـا».

أخـبرت ضابطـة الشرطـة أنهـا لم تنـم طـوال تلـك الليلـة. لم يكـن قـد مضى عليهـا في البـلاد سـوى عـام واحـد فقـط، مهاجـرةٌ جديـدة مـن الأوروغـواي، ومطلّقـةٌ بـلا أولاد. قالـت لاحقًـا للصحفـي شـلومو نكديمـون: «لقـد كنـت مجـرد فتـاة في الثامنـة والعشريـن مـن عمـري. وخشـيت أن يكـون مـن يتعقبنـي

هـم مـن الأشـخاص الذيـن يتاجـرون بالنسـاء مـن أجـل الدعـارة، وخاصـة بـين المهاجـرات الجديـدات البريئـات». طلبـت بيـدرو مـن الشرطيـة التحقـق مما إذا كان طلبهـم نيابـة عـن السـلطات المختصـة، فوعدتهـا الضابطـة بالتحقق مـن ذلـك والعـودة إليهـا في أسرع وقـت ممكـن.

وبالفعـل، جـاءت الشرطيـة بعـد يومـين إلى شـقة بيـدرو، وقالـت لهـا: «ليـس هنـاك مـا تخشـينه. الشـخصان جـادان وعرضهـما جـاد، هـم يريدونـك أن تعمـلي لصالـح دولـة إسرائيـل».

جـاء الاثنـان مـرة أخـرى في اليـوم التـالي، فقالـت لهـما: «أود مقابلـة شـخصٍ أعـلى منكـما، شـخص فوقكـما. فأنـا أريـد معرفة المزيـد مـن التفاصيل، وأنْ أفهـم لمـاذا يريدونـني تحديـدًا».

حـدد الاثنـان موعـدًا لهـا بعـد يومـين في مقهـى «فـيرد» (ورد) في شـارع بتـل أبيـب. وصلـت إيزابيـل في وقـتٍ مبكـر، فقـد أرادت أن تـرى المـكان وتختـار ركنًـا هادئًـا. ثـم اسـتقرت في الطابـق الثـاني مـن المقهـى، وانتظـرت. وخـلال دقائـق جلـس أمامهـا رجـل مسـنٌّ قصـير القامـة وأصلـع. لقـد طلـب عصـير برتقـال، وهـي كـوب شـاي. ستكتشـف لاحقًـا أن هـذا كان إيسر هاريـل، رئيـس الموسـاد. سـألته: «لمـاذا أتيتـم إليّ؟»

ابتسـم وأجابهـا: «مـا نعرفـه عنـك يـبرر اللجـوء إليـك». لقـد عـرض عليهـا الانضـمام إلى أجهـزة الأمـن الإسرائيليـة. وقـال إن لديهـا القـدرة عـلى تقديـم مسـاهمةٍ حقيقيّـةٍ لأمـن الدولـة.

أجـرت إيزابيـل موازنـةً سريعـة: كانـت لديهـا مهنـةٌ ممتـازة مـع فرصـة لوظيفـة جميلـة في الهندسـة المعمارية، وبالطبـع فكـرت بالـزواج وتكويـن أسرة. ومـن ناحيـة أخرهـا، سـحرتها فكـرة أنهـا قـد تكـون قـادرة عـلى المسـاعدة في وجـود الدولـة وأمنهـا. لقـد كان هـذا تحديًّـا شـخصيًّا مثيرًا للإعجـاب، كـما كان تعويضًـا لعـدم خدمتهـا في الجيـش الإسرائيـلي.

قالت له: «امنحني بضعة أيام».

* * *

درسـت إيزابيـل، ابنـة مالـك مصنـع زيـت بـذور الكتـان في مونتيفيديـو، الهندسـة المعماريـة والرسـم في جامعـة الفنـون في مسـقط رأسـها، وكانـت ناشـطةً منـذ صغرهـا في الحركـة الشـبابية اليهوديـة «إبرايـكا». وبصفتهـا ابنـة لعائلـة ثريـة تحـترم نفسـها، فقـد تعلمـت العـزف عـلى البيانـو ورقـص الباليـه. وفي عـام 1953م، عندمـا كانـت في التاسـعة عـشر مـن عمرهـا، تزوجـت مـن يهـودي محلي، إلا أن الـزواج لم يسر عـلى مـا يـرام وانفصـلا بعـد عـام ونصـف. وقـد انتظـرت إيزابيـل سـبع سـنوات أخـرى لتحصـل عـلى أوراق الطـلاق التـي طـال انتظارهـا، وفي غضـون أيـام معـدودة، غـادرت إلى جنـوة عـلى متـن سـفينة إسـبانية، في طريقهـا إلى أرض فلسـطين ضمـن مجموعـة مـن 35 شـابًّا مهاجـرًا.

كان مــن الســهل عــلى إيزابيــل التواصــل مــع النــاس ولفتــت الانتبــاه بشــكل طبيعــي وغــير مصطنــع. وخــلال الرحلــة، فتــن بهــا أحــد ضبــاط

السفينة، خوان أنطونيو. حيث توجه إليها وطلب إيضاحًا عن حفل وداع المهاجرين الشباب الذي أقامته الحركات الشبابية الصهيونية على رصيف الميناء عشية مغادرة السفينة. فشرحت له أنها هي وأصدقاؤها ينفذون وصية الهجرة إلى أرض إسرائيل. وقد أعجب بالشرح، ومنذ تلك اللحظة، نشأت بينهما علاقة من شأنها أن تساعدها كثيرًا في المستقبل. حاول خوان أن يقيم معها علاقة شخصية، لكنها حافظت على العلاقة الودية فقط.

قالت: «نزلت مجموعتنا في ميناء جنوة، وهناك انفصلت عنه. لقد أعطاني عنوان عائلته في إقليم قشتالة في إسبانيا، ودعاني لزيارته. لم أتخيّل للحظة أنني قد أخدم في الأذرع الأمنية، وأن لقاءً عرضيًّا مع ضابط في البحرية الإسبانية سيجعل منه ساعي بريد غير مباشر في إرسال رسائل أمنية حساسة إلى إسرائيل».

* * *

أبحرت إيزابيل بيدرو من جنوة إلى إسرائيل – وبعد سنة من ذلك، كانت تشرب عصير البرتقال في مقهى «فيرد» مع رئيس الموساد. وبعد يومين من ذلك الاجتماع، أَرسلت إيزابيل ردًّا إيجابيًّا إلى إيسر هاريل.

وهكذا تم تجنيدها في الموساد.

بعد تلقّيها للتدريب، وبعد سلسلة من الاختبارات الأولية، تم إرسالها إلى مهمات اختبار للقبول في المنظمة. كان أوّلها تصوير معسكر

جنـوب نتانيـا. وبينـما كانـت تلتقـط الصـور بكامـيرة «زايـس» الخاصـة بهـا، أحسـت عـلى كتفهـا بيـد ضابـط جيـش بالـزي العسـكري سـألها بحـدة عـمّا تقـوم بتصويـره. هـل حصلـت عـلى موافقـةٍ لذلـك؟ ردت عليـه بالفرنسـية متظاهـرة عـدم فهمهـا للغـة العبريـة. وأشـارت لـه إلى مجموعـة لوحـات رسـم وحاولـت أن توضـح بإيـماءات اليـد أنهـا كانـت تعمـل في معالجـة الصـور للرسـم.

لم يستسـلم الضابـط، واسـتدعى الشرطـة الذيـن اقتـادوا بيـدرو إلى مركـز شرطـة نتانيـا. وهنـاك أيضًـا لم يتمكنـوا مـن الحصـول منهـا عـلى شيء، فتـم نقلهـا إلى شرطـة يافـا. وفي غرفـة التحقيـق هنـاك، جلـس أمامهـا شرطيـان اثنـان وطرحـا عليهـا أسـئلة حـادة حـول أفعالهـا في معسـكر الجيـش. وكانـت هـي تجيبهـم بالفرنسـية، وسـجنت في نهايـة المطـاف في غرفـة معزولـة.

أطلـق سراحهـا بعـد سـاعة تقريبًـا، وخرجـت إلى شـارع بسـترس المجـاور لمركـز الشرطـة. حيـث قابلـت هنـاك أحـد مدربيهـا. قـال لهـا: «مـن الـسيء للغايـة أنهـم ألقـوا القبـض عليـك». الآن فقـط أدركـتْ أن قضيـة الاحتجـاز بأكملهـا كانـت مدبّـرةً مـن قبـل رؤسـائها في الموسـاد، مـن أجـل اختبـار قدرتهـا عـلى الصمـود في حالـة الضغـط والتهديـد. وتابـع رئيسـها: «إذا تـم القبـض عليـك في عمليـة مشـابهة في دولـة معاديـة، فمـن الممكـن أن ينتهـي ذلـك بالاعتقـال وربـما بـشيء أكثـر خطـورة». لم تتأثـر بيـدرو، وقالـت: «المهـم هـو النتيجـة النهائيـة. أنـا في الخـارج وهـذا هـو بيـت القصيـد».

كانت مهمتها التالية هي التسلل إلى محطة الطاقة الكبيرة ريدينغ شمال تل أبيب، وأن تحفظ في ذاكرتها الآلات والمرافق التي ستراها هناك. فتسللت إلى أعماق المحطة، التي تم بناؤها في منتصف الخمسينيات، وكانت محفورة في أعماق الأرض للحماية من القنابل. دخلت إيزابيل المحطة من أنبوب تصريف المياه الذي كان مفتوحًا على نهر العوجا (اليركون). وقامت بفحص التوربينين العملاقين ولوحات العدادات ونظام الأنابيب المعقد، وبقيت فترةً طويلةً في الصالة تحت الأرضية دون أن يتم كشفها. وعند خروجها، كتبت تقريرًا مفصلا عمّا وجدته، وقامت بتسليمه إلى رئيسها، الذي أثنى على قدرتها على تذكر التفاصيل.

كانت بقية الدورة نوعًا من الحلقة الدراسية الخاصة، في غرفة استأجرها الموساد في شقة بشارع بوجرشوف في تل أبيب. حيث تعلمت فك رموز الصور الجوية، وقراءة الخرائط الطوبوغرافية، وكشف المتعقبين، وتمييز مختلف أنواع الأسلحة، ونقل المعلومات عبر جهاز مورس، واستخدام الحبر السري. كما تعلمت طرق «تجنيد المصادر» وجمع المعلومات، وتدربت على ممارسة أساليب التذكر. لقد مكثت في الغرفة حوالي أربعة أشهر، وفي بعض الأحيان كانت مالكة الشقة تكرمها بسمك جيفليت – سمك محشي كانت تعده في مطبخها.

أنجزت الدورة بنجاح، وتقرر إرسالها إلى إحدى الدول المعادية لتعمل كجاسوسة. ونظرًا لعدم معرفتها باللغة العربية وإتقانها للفرنسية، فقد عرض عليها الاختيار بين مصر وسوريا ولبنان. ففي هذه البلدان،

كانت اللغة الفرنسية إحدى اللغات الشائعة بين أفراد المؤسسات الحكومية والجيش. وقد أخبرت شلومو نكديمون: «فضّلتُ مصر من بين البقية بسبب محبتي لآثارها الرائعة».

في غضون ذلك، حصلت أزمةٌ خطيرة في قيادة الموساد. ففي أعقاب الجدال مع رئيس الحكومة بن جوريون حول الأنشطة الخطيرة للعلماء الألمان في مصر، استقال رئيس الموساد إيسر هاريل من منصبه، وحل محله اللواء مئير عميت، الذي كان حتى ذلك الحين رئيسًا لهيئة الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي. كانت تفصل بين عميت وسلفه إيسر سنوات طويلة ومفاهيم مختلفة، لكن عميت كإيسر دعم أيضًا عمل المحاربين في البلدان المستهدفة. وقد قام عميت بدعوة إيزابيل بيدرو للاجتماع بها قبل مغادرتها إلى مصر.

قالت له إيزابيل: «سأحمل بفخر لقب محاربة الموساد، لكنني لا أعرف كيفية استخدام السلاح، ولا أريد أن أعرف كيفية استخدامه، كما أني لن أقوم بتنفيذ اغتيالات. أدوات الحرب الخاصة بي هي عيني وأذني وذاكرتي، وبالطبع كاميرتي». هكذا قدمت إيزابيل بيدرو نفسها، في مارس/ آذار عام 1963م، لرئيس الموساد الجديد.

جرت المحادثة في مطعم في شارع أرلوزوروف بتل أبيب، المعروف بطعامه اليهودي التقليدي. هناك كانت إيزابيل قد التقت بإيسر هاريل في الماضي غير البعيد. كان عميت يعرف بالطبع تفاصيل عنها، كما قرأ

أيضًا انطباعات رؤسائها: «سريعة الإدراك، وتملك القدرة على التوجه في الأماكن الأجنبية، وتتمتع بمهارات التعرف على أنواع الصور المختلفة، ولديها القدرة على فك تشفير الصور الجوية».

قال عميت لإيزابيل: «نحتاج إلى معلومات عن مواقع البنية التحتية، وتحركات الجيش، والقواعد العسكرية».

أجابت: «أعلم، لقد مررت بالكثير من الإحاطات وقرأت الكثير عن مصر. كما أنني أخطط أيضًا لرؤية الآثار التي أحبها جدًا...»

ابتسم لها، وعندما افترقا، نظر إلى قميص التريكو الملتصق بجسدها، ونصحها: «لا تدعيه في البلاد، فأنت تبدين جيدة به».

في ربيع عام 1963م، تم إيصال إيزابيل إلى ميناء اللد. حيث رافقها شخص من الموساد، بمسارٍ التفافي، حتى مدرج الصعود إلى طائرة إل عال المغادرة إلى باريس. وخلال الرحلة، أدركت أنها تسير في طريق جديد في حياتها، فهي من الآن تبحث عن مجدها الشخصي، تحت غطاءٍ جديد، وبشخصيةٍ أخرى ومخاطر لا يستهان بها.

كان الاجتماع الأول المقرر لها في باريس، في اليوم التالي لوصولها، في مقهًى بفندق جورج الخامس. حيث جلست على طاولة في ركن جانبي، وبعد دقائق جلس إلى جانبها رجل يرتدي بدلةً رمادية. لقد كان قصير القامة، صلبًا، بشوشًا، مع حواجب كثيفةٍ وشاربٍ قصير.

قـدم نفسـه: «اسـمي ميخائيـل». كان هـذا قائـد وحـدة العمليـات «همفراتـس» التابعـة للموسـاد، التـي تقـوم بتهريـب المحاربـين والعمـلاء إلى الـدول المعاديـة.

التقيـا عـدة مـرات في مقاهـي مختلفـة في باريـس. طـرح «ميخائيـل» الأسـئلة، وكان مهتـمًّا بوضعهـا الشـخصي، واسـتعدادها للمخاطـرة بحياتهـا مـن أجـل البـلاد، وقدرتهـا عـلى الاندمـاج بالنخبـة المصريـة. قالـت للصحفيـة داليـا مـزوري مـن صحيفـة «معاريـف»: «يبـدو أنـه قـد أعجـب بي كثـيرًا إثـر إجابـاتي. بعـد لقائنـا الثالـث، حيـث كان قـد تقـرر أن أغـادر إلى مصـر، قـال لي: انهـضي مـن فضلـك، اذهبـي، افعـلي كل مـا تريديـن وأينـما تريديـن ومتـى مـا تريديـن. برأيـي لا يوجـد إطـراء أكـبر مـن هـذا، إنـه تعبـير عـن الثقـة الكاملـة التـي منحنـي إياهـا».

لم يعتـد ميخائيـل أن يطيـل كثـيرًا في مثـل هـذه الاجتماعـات. فقـد كان يفضـل، لأسـباب أمنيـة، إجـراء المحادثـات القصـيرة أثنـاء تجولـه مـن مقهًـى إلى مقهـى، ومـن مطعـمٍ إلى مطعـم، وفي المسـاء أيضًـا كان يسـتخدم النـوادي الليليـة. قـال موضحًـا: «ليـس هنـاك أفضـل مـن هـذه الأماكـن للاجتماعـات السريـة». لقـد تـم تطويـر هـذه الطريقـة مـن قبـل إيسـر هاريـل، حيـث إنـه خـلال عمليـة القبـض عـلى أيخـمان في الأرجنتـين، كان يلتقـي برجالـه في المقاهـي لإجـراء محادثـات قصـيرة وإعطـاء التعليـمات. وبنفـس الطريقـة، اجتمـع ميخائيـل مـع المحاربـين العائديـن مـن الـدول المسـتهدفة أو مـع الذيـن كانـوا عـلى وشـك المغـادرة إلى تلـك البلـدان.

لكـن هـذه المـرة، انحـرف «ميخائيـل» عـن عادتـه وبقـي مـع إيزابيـل لفـترة أطـول. لقـد كان يعلـق أهميـة كبـيرة عـلى هـذه المهمـة إلى مـصر التـي مـن المقـرر أن تضطلـع بهـا امـرأة كانـت مسـتعدة للمخاطـرة بحياتهـا في سـبيل إسرائيـل. لقـد حـرص عـلى بنـاء غطـاءٍ اجتماعـيّ مناسـبٍ لهـا في باريـس، وخلـق لهـا هويـة امـرأة ثريـة، رسـامة هاويـة تتواصـل مـع نـوع معـين مـن النـاس عـلى هامـش مجتمـع باريـس المتلألـئ. كان هـذا «النـوع مـن النـاس» هـم المنفيّـون الذيـن قَدِمـوا مـن روسـيا بعـد ثـورة أكتوبـر، وكانـوا يُعرفـون باسـم «الـروس البيـض». وكانـوا معتاديـن عـلى الاجتـماع في المقهـى المشـهور «كافيـه دي لا بي» (مقهـى «السـلام»)، بالقـرب مـن أوبـرا باريـس. وعندمـا كانـت إيزابيـل تظهـر هنـاك، مرتديـة معطـف فـروٍ أنيـقٍ جلبتـه معهـا مـن مونتيفيديـو، لم يكـن هنـاك أحـد مـن رواد المقهـى إلا ويديـر رأسـه وينظـر إلى هـذه المـرأة الجميلـة الأنيقـة. وهـذا بالضبـط مـا أراده «ميخائيـل». (لا يـزال معطـف الفـرو محفوظًـا حتـى اليـوم في خزانـة ملابـس إيزابيـل في إسرائيـل).

اتخـذت الاجتماعـات مـع ميخائيـل طابعًـا عمليًّـا. فقـد كان يُطلـع إيزابيـل عـلى طبيعـة الـصراع بـين إسرائيـل ومـصر، ووصـف الرئيـس جمـال عبـد النـاصر بأنـه العـدو الأكـبر لإسرائيـل، ومحاولاتـه تسـليح جيشـه بأحـدث الأسـلحة بهـدف تدمـير دولـة إسرائيـل. واختتـم قائـلا: «إن مـصر مهمـةٌ لإسرائيـل بـكل الطـرق الممكنـة. سـتكون مهمتـك هـي اسـتطلاع أرجـاء البـلاد، ومتابعـة أي قضيـة عسـكرية محتملـة، ومراقبـة الأحـداث الاسـتثنائية، والانتبـاه لمـا يحـدث في النخـب، وتكويـن العلاقـات، واسـتخدام حواسـك وفقًـا لمـا ترينـه مناسـبًا».

عشــية مغادرتهــا إلى مــصر، ظهــرت مشــكلة في جــواز ســفرها الأوروغويــاني، الــذي كان يحتــوي عــلى العديــد مــن الأختــام الإسرائيليــة. فمــع جــواز ســفر كهــذا كان مــن المســتحيل السـفر إلى مــصر. وبعــد التشــاور مــع ميخائيــل، ســكبت بيــدرو عــلى جــواز الســفر ورنيــش (لكــر) أحمــر حتــى خــرج مــن الخدمــة. ثــم ذهبــت إلى أمســتردام، وقدمــت جــواز الســفر التالــف إلى قنصــل الأوروغــواي، واعتــذرت عــن الخطــأ. فأصــدر لهــا القنصــل جــواز ســفر جديــد، انطلقــت بــه إلى ميلانــو مــن أجــل تقديــم طلــبٍ لتأشــيرة دخــول ســياحية في القنصليــة المصريــة المحليــة. هنــاك كانــوا مهتمــين بــما تنــوي القيــام بــه في مــصر لفــترةٍ طويلــة نســبيًّا، فأجابــت إيزابيــل بأنهــا تنــوي دراســة علــم الآثــار. قالــت: «كان القنصــل أكثــر تأثــرًا بســاقيّ المكشــوفتين، ولم يتــم طــرح أي أســئلة أخــرى».

وقبــل أن تغــادر إلى مــصر، ذهبــت إلى إســبانيا، حيــث زارت منــزل والــدَيْ ضابــط الأســطول المــدني الإســباني خــوان أنطونيــو، الــذي أقامــت علاقــة صداقــة معــه أثنــاء الرحلــة البحريــة في طريقهــا إلى إسرائيــل. وعــلى الرغــم مــن أن خــوان لم يكــن في المنــزل، إلا أن والديــه رحّبــا بهــا بحــرارةٍ في منزلهــما في قشــتالة. قالــت: «طلبــت منهــما أن ينقــلا لي مــوادّ بريديــة إلى إسرائيــل مــن وقــت لآخــر. وأوضحــتُ لهــم أني ذاهبــة في رحلــة حــول العــالم، ولا أريــد أن تعــرف عائلتــي في إسرائيــل مــكان تواجــدي. ولهــذا الســبب ســأبلغ والــديّ أننــي عــلى مــا يــرام، وســأرســل لهــما صــورًا فوتوغرافيــة وكُتيّبــات إرشــادٍ ســياحي وصــور مناظــر طبيعيــة».

فكـر مضيفوهـا، الذيـن يبـدو أنهـم كانـوا مـن أحفـاد الأنوسـيم في إسـبانيا، بـأن إيزابيـل هـي العـروس المناسـبة لابنهـم، فاسـتجابوا عـن طيـب خاطـر. لم يخطـر في بالهـم أن تكـون هنـاك علاقـة بينهـا وبـين أي هيئـة مؤسسـية إسرائيليـة. وأثنـاء الحديـث العائـلي، دونـت بيـدرو لنفسـها معلومـةً مهمـة: فقـد أخبرهـا مضيفوهـا أن أحـد أفـراد أسرتهـم هـو خبـير في الأسـلحة غـير التقليديـة، التـي يقـوم الجيـش المـصري بتطويرهـا وإنتاجهـا سرًّا بالتعـاون مـع علـماء ألمـان. وعلمـت مـن مصـدرٍ آخـر أنّ الـرد الإسرائيـلي عـلى نشـاط العلـماء كان هـو السـبب الرئيس في استقالة إيسر هاريـل مـن رئاسـة الموسـاد. وبهـذه المعلومـات، انطلقـت إلى مـصر.

هبطـت في القاهـرة بجـواز سـفر أوروغويـاني، تحـت غطـاء مهندسـة معماريـة ورسـامة جـاءت للدراسـة والعمـل في القاهـرة. لكنهـا لم تنس للحظة أنهـا أولا وقبـل كل شيء جاسوسـةٌ إسرائيليـة في دولـةٍ معاديـة. اسـتقلت قطـارًا مـن المطـار إلى وسـط المدينـة. وقـد أوصتهـا سـائحةٌ كانـت تجلـس بجانبهـا في القطـار، بالنـزول في فنـدق «هيلتـون» أو فنـدق «سـميراميس»، وهمـا فندقـان يمكـن للنسـاء الإقامـة بهـما دون خـوف. اختـارت بيـدرو فنـدق «سـميراميس»، ويرجـع ذلـك أساسًـا إلى أنـه كان يسـتضيف مصريـين مـن الطبقـات العليـا.

أخـذت كتيبـات الإرشـاد السـياحي لمـصر مـن مكتـب الاسـتقبال في الفنـدق، وقامـت عـلى الفـور بوضـع علامـة عـلى النـادي الريـاضي في حـي الزمالـك الراقـي، والـذي تقصـده الطبقـة العليـا في مـصر. وفي النـادي، الـذي

كان يستضيف أيضًا العديد من الأجانب وخاصةً الألمان، عرفت شخصًا كان يبدو لها كجاسوس إسرائيلي، وبدا لها سلوكه مكشوفًا وخطيرًا للغاية. فأوصت عبر إرسالٍ سريّ للموساد بإعادة الرجل على الفور. كان اسم الرجل هو فولفغانغ لوتز. ورغم أنه أحد أهم جواسيس إسرائيل في مصر، لم تتم إعادته إلى إسرائيل، لكن بعد فترة تم القبض عليه مع زوجته. لم تكن إيزابيل تعرف في الواقع أن مهمة لوتز الأساسية كانت نفسها إحدى أهم مهامها: تعقب أعمال العلماء الألمان في مصر. كما أنها لم تكن تعلم أن شلومو جال وزوجته دافنا كانا يعملان في مصر بالتوازي معها. وكذلك هيلين هوفمان، إحدى الناجيات من المحرقة من بلجيكا، والتي جندها يوسكا ياريف وعملت لسنواتٍ طويلة في مصر تحت ستار ممرضة في مشفى.

في القاهرة، كانت إيزابيل نشيطةً وحيوية. التقت في نادي الزمالك ببعض سيدات المجتمع الراقي في مصر، ودُعيت إلى منازلهن، كما أصبحت صديقة لإحدى الشابات الإيطاليات وللقنصل الإيطالي، الذي فتح أبوابه لها وعرّفها على دبلوماسيين وضباطٍ كبار. وفي متجر «علي بابا» للتحف في فندق سميراميس، تعرفت إيزابيل أيضًا على عالم آثارٍ شاب، اصطحبها معه في جولاته في أرجاء البلاد. وقد أطلعته على كتاب لعالم آثار أرجنتيني يتحدث عن مصر القديمة، يحوي صورًا ورسومات للأهرامات. كانت جنوب مصر أولى تلك الرحلات الطويلة إلى جانب عالم الآثار المصري، حيث اكتشفت بيدرو أن الجيش المصري كان ينقل

شحنات أسلحةٍ بواسطة القطارات، بما في ذلك الأسلحة الثقيلة، إلى منطقة السودان. كما اكتشفت أن مصر جددت شبكة السكك الحديدية في تلك السنوات، واستخدمتها في نقل القوات والأسلحة.

في أحد الأيام، قامت مع صديقها عالم الآثار بزيارة فندق «مينا هاوس» المقابل لأهرامات الجيزة. وفي صالة دخول الفندق، لاحظت أحد كبار الصحفيين المصريين، والذي كان مقربًا من السلطات. قدمت له بيدرو نفسها كرسامة وأطلعته على بعض لوحاتها وأخبرته عن حبها للآثار المصرية. تطورت العلاقة بينهما بسرعة والتقيا عدة مرات في أماكن مختلفة بالقاهرة. وفي إحدى اللقاءات، عرّفها على ضابط كبير في الجيش من سلاح المدرعات، والذي استخلصت منه تفاصيل عن القوات المدرعة المصرية.

في إحدى رحلاتها من القاهرة إلى الإسكندرية، مرّت بيدرو بمطارٍ كبيرٍ كانت تنتشر فيه عشرات الطائرات من نوع توبوليف 16 السوفياتية. توقفت في المكان، وحفظت اسم الطائرة، وأحصت عدد الطائرات التي كانت هناك، ثم تابعت طريقها. وفي ميناء الإسكندرية، قامت بالتقصي عن السفن الحربية المصرية. قالت للصحفية داليا مزوري: «لقد نقلت من مصر مختلف أنواع المعلومات، وبشكل أساسي في المسائل العسكرية، مثل حركة الطائرات. ورأيت أثناء خدمتي أنهم كانوا ينقلون الكثير من الأسلحة من مكان إلى آخر بواسطة القطارات. لم يعجبني ذلك، لكن لم يكن باستطاعتي إيقافه...»

كما توجهت إلى أسوان أيضًا، حيث زارت المنطقة التي كان يتم فيها بناء سد جديد على نهر النيل، والذي قام الاتحاد السوفياتي بتمويل ثلث تكلفته. نزلت في فندق «كتراكت»، الذي كان يقيم فيه الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف في ذلك الوقت.

حققت في تلك الرحلة أحد أعظم إنجازاتها، حيث تمكنت من وضع يدها على مخططات بناء سد أسوان. قالت: «لقد بدا لي أنه الشيء الأهم، فبدلا من تفجير مئات القنابل وإرسال الدبابات، يمكنك زرع قنبلة واحدة وينفجر السد». وقد حصلت على تلك المخططات أثناء الإبحار على متن سفينةٍ سياحيّةٍ بالقرب من موقع بناء السد. «على متن السفينة، أقمت علاقة صداقةٍ مع كبير الضباط والذي أخبرني بإسهاب عن تاريخ السد. إذ ظهرت الحاجة بسبب هذا الإنشاء لحفظ معابد أبو سمبل، المنحوتة في الصخور العملاقة من الانهيار». تضمن المشروع الطَموح نقل التماثيل العملاقة من موقعها إلى موقع آخر، فوق البحيرة الاصطناعية التي أنشأها السد. «قدمت نفسي كمهندسة معمارية مهتمة بالآثار. وقد أخبرني الضابط أن بحوزته ملفًّا يحوي خرائط تفصيليّةٍ للسد الجديد، بما في ذلك بنيته التحتية في أعماق النيل».

وضعت إيزابيل جميع المواد والصور التي جمعتها في مظروف، وأرسلتها بواسطة زوج من السياح الإسبان إلى معارفها في إسبانيا. وقامت العائلة الإسبانية بإرسال المظروف، كما طلبت إيزابيل، إلى صندوق بريد في تل أبيب. وعلى الرغم من أنها كانت مزودةً بجهاز اتصال تم تهريبه

إلى مصر، إلا أنها قللت من شأن إرسال شيفرة مورس لأنها كانت تعرف أن أجهزة الاستشعار الإلكترونية يمكنها كشف عمليات الإرسال التي تأتي باستمرار من مصدر واحد.

أصبحت مهمة إيزابيل في مصر أكثر خطورة بعد القبض على إيلي كوهين في سوريا والزوجين لوتز في القاهرة. قالت لاحقًا: «كنت معرضةً للخطر في كل لحظة. لكنني لم أكن خائفة، هذا غير موجود لدي...» لقد اندمجت بشكل جيد في الحياة الاجتماعية في القاهرة، ورفضت بلطف عرضًا من صحفي مصري للخروج معه. في أوائل عام 1967م، وافقت على المشاركة في دور صغير في فلم مصري-إيطالي، كان يتحدث عن البحث عن كنز مصري قديم. وخلال التصوير، تعرفت على منتج مصري عرض عليها أن تقدم برنامجًا تلفزيونيًّا منتظمًا باللغة الفرنسية عن الفن، مع التأكيد على أنها ضيفة أجنبية في مصر. كان الأمر مغريًا جدًّا، لكنها رفضت العرض. قالت: «خشيت أن يتم التعرف عليّ».

في عام 1965م، وبعد حوالي ثلاث سنوات في مصر، طلبت إيزابيل العودة إلى أرض فلسطين، حيث خضعت لاستجواب مكثف في الموساد، ثم عرضوا عليها بعد ذلك العمل كمفتشة طيران في مطار اللد، لكنها رفضت. لقد عادت إلى مهنتها الأصلية، الهندسة المعمارية الداخلية، وصمّمت أنظمة أثاث في العديد من الشقق في إسرائيل.

ذات يوم، أغلقت الدائرة. حيث تمت دعوتها لتصميم منزل شخص،

لم يكـن إلا إيـسر هاريـل، رئيـس الموسـاد الـذي وظفهـا للعمـل في المنظمـة. وحـول ذلـك، تقـول: «استضافتني زوجته، وقمـت بعمـل ثـورة كاملـة لهـم. كان إيسر يـأتي ويلقـي نظـرة ويقـول إن الأمـور بخـير ثـم يذهـب. لقـد كان متحفظًـا لدرجـة أنـه لم يسـألني شـيئًا عـن مـصر. أنـا متأكـدة مـن أنـه تعـرّف عـليّ».

تزوجـت أخـيرًا مـن عنـصر سـابق في منظمـة إتسـل، وأنجبـت ولديـن. «كان كل شيءٍ بسـبب والدتـه. لقـد أحبتنـي، فأمسـكت بي وقالـت لي: أنـت لي. حتـى إن زوجـي لم يـرني، وهـي مـن قـررت عنـه. وقـد اتضـح بعـد الـزواج أن بعـض أقاربـه وأصدقائـه كانـوا مقربـين مـن الموسـاد. لـو لا الـماضي الخـاص بي، لمـا كنـت عالقـة هنـاك». شـارك الكثـيرون مـن قدامـى منظمـة إتسـل في الزفـاف، ومـن بينهـم مناحـم بيجـن. كـما كان هنـاك ضيـفٌ آخـر هـو رئيسـها في باريـس، «ميخائيـل»، الـذي اشـترى أيضًـا إحـدى صورهـا، لكنـه ظهـر الآن باسـمه الحقيقـي – إسـحاق شـامير، رئيـس وزراء إسرائيـل لاحقًـا.

* * *

(11)

نادين: قصة حب مأساوية

بـدأ لقاهمـا صدفـةً إذ كانـت تبلـغ مـن العمـر سـتة عـشر عامًـا، عندمـا قدمـه والدهـا إليهـا قائـلا: «هـذا رامـي. إنـه معلـمٌ في مدرسـتنا وسـيعيش معنـا لفـترة».

هكـذا تعرفـت ناديـن (اسـم مسـتعار) صغـرى بنـات والدهـا، والتـي ترعرعـت في يافـا عـلى رامـي لأول مـرة.

تبادلـت نادیـن ورامـي بعـض الكلـمات المهذبـة، لكنهـما لم يسـتطيعا أن يصرفـا نظريهـما عـن بعضهـما البعـض. مظهـر رامـي الخارجـي، وسـلوكه اللطيـف، والعربيـة الممتـازة التـي يتحـدث بهـا، والمعرفـة التـي تجلـت في محادثاتـه مـع الأسرة ذلـك المسـاء. كل ذلـك أثـار إعجابهـا بشـدة. هكـذا تحدثـا لسـاعاتٍ طويلـة، بدايـةً مـن إطـار الأسرة، ثـم في لقـاءات أخـرى بينهـما عـلى انفـراد. ولم تمـض الأيـام حتـى عشـق كل منهـما الآخـر، فقـررا أن يتزوجـا. ومما أسـعد نادیـن، أن والديهـا قـد باركـا هـذا الـزواج، غـير أن مسـألةً غـير متوقعـةٍ كانـت تقـف عائقًـا أمـام هـذا الـزواج، فقـد كان مسـلمًا، وهـي مسـيحية. ثـم

بعـد الكثـير مـن المداولات قـررت الأسرة أن يتزوجـا زواجًـا مدنيًّـا. وكان كذلـك.

في عـام 1957م، هاجـرت العائلـة بأكملهـا إلى فرنسـا، ومعهـا الزوجـان الشـابان. في البدايـة، واجـه الأب صعوبـةً في تأمـين لقمـة العيـش لـلأسرة، لكـن رامـي سـاعده. حيـث قـال إنـه وفّـر مبلغًـا محترمًـا مـن المـال عندمـا كان يعمـل كوسـيط عقـاري، ويمكنـه الآن المسـاهمة في الأسرة. قـرر رامـي ونادين لاحقًا أن يفـردا أجنحتهـما بمفردهمـا، وأن يعـودا إلى الـشرق الأوسـط ويسـتقرا في بلـد عـربي، لكنهـما فشـلا في الحصـول عـلى تأشـيرات دخـول إلى سـوريا ومـصر، فبقيـا في باريـس في هـذه الأثنـاء. سـافر رامـي كثـيرًا إلى سـوريا مـن أجـل أعمالـه. أنجـب الزوجـان طفلـة، لكنهـا ماتـت بعـد بضعـة شـهور، ثـم أنجبـا بعدهـا طفـلا آخـر، كان بصحـةٍ جيـدة. ثـم ذات يـوم، أبلـغ رامـي ناديـن أنـه يجـب عليـه الذهـاب إلى بـيروت لفـترةٍ طويلـة، وأنّ مـن الأفضـل لهـم أن تبقـى هـي والطفـل في باريـس. وهكـذا بقيـت ناديـن وحيـدة في باريس، ولم تجد مكانها في المدينة الفرنسية الصاخبة، لكنها وجدت العزاء بـين ذراعـي طالـب فلسـطيني شـاب، صديـق للعائلـة، كان قـد تعـرف عليهـا وعـلى رامـي خـلال لقـاء للمغتربـين العـرب في فرنسـا. حافظـت ناديـن عـلى سريـة هـذه العلاقـة الرومانسـية. لكـن الفلسـطيني قـرر أخـيرًا قطـع علاقتـه مـع ناديـن بسـبب مـا كان يشـعر بـه مـن احـترامٍ وتقديـرٍ تجـاه رامـي، الـذي رأى فيـه رجـلا قوميًـا مخلصًـا للمُثـل العربيـة وكان يقـدّر أيضـا مشـاعره القوميـة الفلسـطينية.

عاش رامي لمدة عامين بمفرده في بيروت، ثم في النهاية طلب من نادين تَحضر هي والطفل إليه. ولم تمض بضعة أيام، حتى فاجأت نادين زوجها بدخولها عليه، لتجده منحنيًا على جهاز لاسلكي، يقوم بعملية إرسال.

تجمدت نادين في مكانها عند مدخل الغرفة. هنا نظر رامي إليها. وقد بدت على نظرته وحركاته مشاعر متناقضةٌ من الألم واليأس. ولم تمض لحظات حتى اعترف قائلا: «أنا يهودي، ولست مسلمًا! أنا هنا في مهمة لصالح الاستخبارات الإسرائيلية!»

* * *

في أواخر عام 1954م، تم افتتاح دورة سرية للغاية وفريدة من نوعها في جهاز الأمن: دورة مستعربين. كان عرب إسرائيل في ذلك الحين يعيشون في قرى وبلدات تخضع لنظامٍ عسكري صارم. حيث كان يحكم كل قرية حاكمٌ عسكريٌّ يهودي، مع فرض قيودٍ مشدّدةٍ على حركة العرب داخل البلاد. ومع ذلك، خشي رئيس الأجهزة الأمنية إيسر هاريل مما يجري في أعماق المجتمع العربي المغلق. كان يتوقع حربا جديدة، ستحاول فيها الدول العربية القضاء على دولة إسرائيل، وسيتحول القرويون العرب – وفقًا لمخاوفه – إلى طابور خامس يساعد جيوش العدو. وبناءً على ذلك، قرر أن يزرع داخل القرى العربية «مستعربين» إسرائيليين، وهم يهود ينتحلون صفة العرب ويتصرفون مثلهم، بحيث يندمجون ويعيشون في

المجتمع العربي لسنواتٍ عديدةٍ ويستطيعون تقديم معلومات مباشرة عن وجهات نظر ومخططات العرب.

ولفترة طويلة، أجريت عملية بحثٍ وفحصٍ دقيقة للمرشحين للوظيفة. وقد عُهد بالخطة إلى كل من نائب رئيس الموساد يعقوب كروز وأحد أقوى محاربي الموساد سامي موريه (كان موريه هو الشخص الذي تواصل في فترةٍ ما مع شولا كوهين في بيروت). وتم اختيار حوالي عشرة مرشحين، جميعهم مهاجرون من العراق. حيث خضعوا للإعداد والتدريب في معسكرٍ بالقرب من تسريفين، كان المعسكر سابقًا مدرسة ضباط الجيش البريطاني ثم أصبح في وقتٍ لاحق مقر قيادة حسن سلامة، زعيم الفلسطينيين خلال حرب 67. تعلم المستعربون عادات العرب الفلسطينيين، والتحدث باللهجة الشعبية للمنطقة، والتي كانت مختلفةً عن تلك التي جلبوها معهم من العراق، وخضعوا لتدريب شامل في شعائر الدين الإسلامي، وحفظوا بعض السور من القرآن الكريم، وارتدوا زي القرويين المحليين. وقد تم إرسال بعضهم عمدًا، متسخين وبثياب رثة، إلى شوارع المدن اليهودية، حيث تم اعتقالهم على يد الشرطة وزجهم في السجن بوصفهم «متسللين». وبعد فترة فقط، تم إطلاق سراحهم واحدًا تلو الآخر وإرسالهم إلى وجهاتهم. هكذا تم تدريب رامي - شاب موهوب جدا اسمه أفنير يسرائيل (الاسم مستعار) - لمهمته، ووصل إلى يافا، حيث تعرف على نادين.

* * *

عندما اعترف لها، في تلك الليلة في بيروت، أصيبت نادين بصدمةٍ شديدة. وفي لحظة واحدة، أظلم عالمها تمامًا. لم تصدق في البداية ما سمعته أذناها. كان زوجها واقفًا أمامها، محرجًا وقد استحوذت عليه عاصفة من المشاعر، وظلّ يكرر - أنا يهودي، مبعوث للاستخبارات الإسرائيلية. بينما وقفت هي أمامه وكامل جسدها يرتجف، وقد عجزت عن الكلام.

بعد الصدمة واليأس، أصاب نادين غضبٌ رهيب، وانفجرت بالبكاء والصراخ، قبل أن يعود شعورها، وتعود لها القدرة على الكلام. اتهمته باستغلال حبّها، وأنه تزوجها لأغراض التجسس الخاصة به. كان شيء من غضبها نابعًا من مشاعرها الوطنية القوية، فقد كانت تدعم بكل إخلاص النضال الفلسطيني في سبيل التحرر من أيدي الصهاينة. وها هي هنا تجد نفسها متزوجةً من أحد أخطر عملاء العدو. حاول أن ينفي اتهاماتها وأن يقنعها أن حبه لها ولابنهما هو حبٌّ حقيقي ولا علاقة له بمهمته. وأقسم بأن رؤساءه لم يشرعوا أو يشجعوا العلاقة بينهما. وبقي يكرر لها أنه تزوجها بدافع الحب فقط، وأنها حب حياته.

هدأت نادين أخيرًا، لكنها بعد ذلك، في لحظة الاعتراف المتبادل تلك، كشفت له بأنها قد خانته في باريس مع الطالب الفلسطيني. ووقتها أصبح رامي هو المستاء والمندهش. لقد تجادلا لساعات طويلة، ووجها الاتهامات لبعضهما البعض، قبل أن تهدأ الأمور بينهما تدريجيًّا.

بعد تلك الليلة الرهيبة، التي انفجرت فيها مشاعر الألم والغضب،

انهارت نادين وأجهضت الطفل الذي كانت تحمله في رحمها. توجهت إلى رامي قائلة: «أريد أن أخرج فورًا من هنا وأعود إلى باريس!»

لكنه رفض، وقال لها: «أنا لا أجلس هنا من تلقاء نفسي. أنا مبعوث ولا يمكنني مجرد النهوض والمغادرة هكذا، لدي رئيس وهو من يجب أن يعطيني التصريح...»

لم تسامح نادين زوجها، ولو للحظة، على خيانته. لكنها مع ذلك، قامت بعد تلك الليلة بحمايته، بل وتعاونت معه. هي لم تتجسس أو تعمل لصالحه في بيروت، ولكنها أيضًا لم تكشف لأحد بأن زوجها جاسوس - الأمر الذي كان من شأنه أن يقوده مباشرة إلى حبل المشنقة، وعندما كان يقوم بالإرسال عبر جهاز اللاسلكي، فإنها كانت تحرص على إغلاق الباب الأمامي لمنزلهم وعدم السماح لأي شخص بالدخول.

استمر هذا الوضع لستة أشهر، حتى عاد الاثنان إلى باريس. حيث استقرت أمورهما قليلا، وعاشا في سلام نسبي لمدة عامين تقريبًا. لم يكن رامي عنصرًا في الشاباك، وإنما عمل لصالح الموساد. لكن في العاصمة الفرنسية، عاود الطالب الفلسطيني عشيق نادين السابق للظهور في حياتهم، والذي اتضح أنه ناشط في إحدى منظمات المقاومة الفلسطينية، فخضع ولاء نادين للاختبار مرة أخرى. لقد كان عليها أن تختار بين تمسكها بالفكرة القومية الفلسطينية وعلاقتها بالطالب - وبين ولائها وحبها لزوجها الذي خدعها. فاختارت رامي مرة أخرى، ولم تكشف للطالب وأصدقائه الهوية والأفعال الحقيقية لزوجها.

وهكـذا نشـأت علاقـة وثيقـة بـين رامـي والمجموعـة الفلسـطينية. وبمسـاعدة رؤسـائه في الموسـاد، اسـتأجر رامـي شـقةً في بروكسـل، كان مـن المفـترض أن يسـتخدمها كمكتـب ثانـوي لأعمالـه. تـم تجهيـز الشـقة لمهمـة عملياتيـة، حيـث زُرعـت فيهـا ميكروفونـات وملحقـات أخـرى، ووضعهـا رامـي في خدمـة «أصدقائـه الفلسـطينيين». فتـم تسـجيل اجتماعـات «المقاومـة» ومناقشـاتهم وقراراتهـم، وإرسـالها مباشرةً إلى مراكـز الموسـاد، وحظـي رامـي بتقديـرٍ كبـير بسـبب نجاحاتـه.

بيـد أن هـذه النجاحـات بالتحديـد، قـد تسـببت بـآلام شـديدة في ضمـير ناديـن. فقـد كانـت عربيـة قوميـة، وهـا هـي الآن تـؤذي شـعبها ونضالـه. بـدأت تتحـدث إلى رامـي عـن الانفصـال، لكنـه رفـض بشـدة. كـما أن سـامي موريـه، الـذي كان أيضـا متمركـزا في هـذه الأثنـاء في باريـس، حـاول مسـاعدته. وأحـضر الحاخـام شـلومو غوريـن مـن إسرائيـل، ليتحـدث إلى قلـب ناديـن ويهدئهـا. ونجـح الحاخـام غوريـن أيضًـا في إقناعهـا بالتحـول إلى اليهوديـة، وعندمـا أنهـت عمليـة التهـود – قـام بتزويـج الاثنـين مـرة أخـرى، عـلى ديـن موسـى وإسرائيـل.

لكـن بالتـوازي مـع الأنبـاء عـن الهـدوء في الأسرة، تلقـى سـامي أيضـا تقاريـر خطـيرة. حيـث اتضـح – وفقـا لتسـجيلات محادثـات الفلسـطينيين – أنهـم بـدأوا يشـكون في رامـي. وكان مـن بينهـم مـن ادعـى أنـه جاسـوس إسرائيـلي. فتقـرر إعـادة رامـي وأسرتـه إلى إسرائيـل عـلى الفـور، وفي صيـف عـام 1966م، أبحـروا عائديـن إلى البـلاد.

حصلت نادين وابنها الصغير على أسماء عبرية وتم قبولهما في المجتمع كيهود في كل شيء. لكن قبلها بعامين كان رؤساء الشاباك والموساد قاموا بإلغاء عملية المستعربين. حيث اتضح أن فائدتهم (باستثناء إنجازات رامي) كانت ضئيلة، وقد تم التضحية بهم حقًّا. كانت العملية برمتها خطأ فادحًا. فقد عاش المستعربون سنواتٍ طويلةٍ من الحياة الزائفة من أجل الحصول على معلومات كانت غير مهمة في الغالب. كما أن بعضهم، مثل رامي، تزوجوا من نساء عربيات. وتم تكليف موريه بالمهمة الأصعب على الإطلاق – دعوة العائلات إلى باريس وكشف الحقيقة للنساء العربيات.

كانت هذه اللقاءات صعبة ومؤلمة. لقد بدأن بالصراخ والبكاء الرهيب بينما فقدت إحداهن وعيها بمجرد سماعهن للحقيقة. هربت معظمهن إلى منازل عائلاتهن، بينما قامت محكمة سرية برئاسة شلومو غورين وحاخامين آخرين بتحويل اثنتين من النساء إلى اليهودية. كما قرر الحاخامات أيضًا أنه على الرغم من أن أطفالهن ولدن لأم غير يهودية، ونظرًا لأن الأب كان يهوديًّا في مهمةٍ سرية، فسيعتبر الأطفال يهودًا أيضًا دون الحاجة لتغيير دينهم. هاجرت تلك العائلات إلى إسرائيل، وعاشوا فيها كيهودٍ حقيقيين. غير أنه لم يتم تجنيد الأبناء في الجيش الإسرائيلي. وقد سأل أحدهم والدته بسخرية: «إذا اندلعت الحرب، فعلى من يجب عليّ أن أطلق النار. على عائلتي الإسرائيلية أم العربية؟» لقد حدثت في هذه العائلات أزمات هويةٍ شديدة، وفي جميع الحالات تقريبًا كان مستقبل

النساء وأبنائهن صعبًا وكئيبًا. كما شعر المستعربون أيضًا بالإحباط وخيبة الأمل، وحزنوا على شبابهم الذي سُلب منهم عبثًا. كانت هذه إحدى العواقب الوخيمة لخطة المستعربين المشكوك فيها، والتي تسببت في أذًى بالغ لكل من اليهود والعرب. فتلك السنوات التي عاش فيها المستعربون حياةً زائفة في المجتمع العربي – ولأكثر من مرة في أسرة مختلطة – سببت ضررًا بالغ الخطورة لرجالٍ يهود، ونساءٍ عربيات وأولادهم.

هكذا كان الأمر أيضًا مع عائلة رامي ونادين. فحتى بعد التحول إلى اليهودية والمجيء إلى إسرائيل، لم تتلاش مشاعر الذنب والغضب لدى نادين. حتى قرر الاثنان الانفصال. التحقت نادين بالجامعة وأنهت تعليمها بنجاحٍ كبير، وعندما حصل الطلاق الذي أرادته، أخذت ابنها معها وعادت به إلى باريس. اكتفى الصبي بزيارة والده بين الحين والآخر، ثم أخذت زياراته تتضاءل مع مرور الوقت. تزوج رامي مرةً أخرى، وفي عام 1971م أصيب بنوبةٍ قلبية، أجريت له على إثرها عملية قلب مفتوح، وقام أفراد الموساد، الذين كانوا يقدمون لنادين راتبًا شهريًّا، بإبلاغها عن مرض زوجها السابق، فسافرت على الفور إلى إسرائيل، وجلست إلى جانبه في المستشفى لأسابيع طويلة. لقد عاملته بحب، فكانت تحممه وتحلق له، فيما أبدت زوجته الثانية تفهمًا كاملا لذلك.

تعافى رامي هذه المرة، لكن في عام 1974م مات بالسرطان، أما نادين فتزوجت مرة أخرى من ناشط فلسطيني.

(12)

السيد هراري وبناته: اسمه مايك

في أحد أيام ربيع عام 1968م، وبعد وقتٍ قصيرٍ من هبوطهما في إسرائيل، تلقى فولفغانغ وفالتراود لوتز دعوة لزيارة الرئيس شازار، إذ كان الرئيس يرغب في أن يتعرف عليهما، ويعرب لهما عن امتنان إسرائيل لأنشطتهما في مصر. وصل الزوجان إلى منزل الرئيس برفقة رئيس الموساد المنتهية ولايته مئير عميت، والذي دبّر إطلاق سراحهما. غير أنه قد رافق الضيوف شخصٌ آخر، تم حظر نشر اسمه وصورته. كان هذا مايكل هراري، المشهور باسم «مايك»، أحد أفراد شعبة قيسارية في الموساد، ونائب رئيس الشعبة يوسف ياريف.

كان «مايك» المولود في حي نفيه تسيديك في تل أبيب، من أخطر المحاربين السريين الإسرائيليين. فقد كان مبعوثًا لـ «الهاغانا» منذ أن كان في سن الثالثة عشرة. قام بتزوير عمره والتحق بالبلماح، حيث شارك في بعض عملياته الشهيرة مثل اقتحام مخيم عتليت وعملية «ليل الجسور»، وقد أرسله البريطانيون إلى السجن، ثم جاء لاحقًا إلى أوروبا بصفته

جدعونيًّا[1]، وشارك في تهريب مهاجرين غير شرعيين إلى إسرائيل. وبعد قيام دولة إسرائيل تقلد عدة مناصب أمنيةً حتى وصل إلى الموساد، فخدم في شعبة «تسومت» في باريس وأثيوبيا، ثم هبط أخيرًا في شعبة قيسارية، حيث أنشأ وحدة كيدون، وهي حدة النخبة التي أرسلت إلى أخطر العمليات، بما في ذلك عمليات الاغتيال. وفي عام 1970م، قام صديقه منذ أيام البلماح، رئيس الموساد تسفي زامير، بتعيينه رئيسًا لشعبة قيسارية.

طويل القامة. أسود الشعر. قليل الكلام. هكذا كان مايك. ذكيًّا ومبدعًا، إذ أنه كثيرًا ما فاجأ أصدقاءه بأفكار مبدعة وخطط جريئة. وبالإضافة لكونه رجلا ماهرًا وغير تقليدي، كان متفانيًا بشكل خاص في استقطاب المحاربين من ذوي الخلفية الأجنبية وتجنيدهم في مهماتٍ لصالح شعبة قيسارية. والأكثر من ذلك أنه قد أحدث ثورةً حقيقيةً في توظيف النساء ميدانيًّا. لقد بذل أقصى جهده للعثور على محاربات، وأجرى معهن محادثاتٍ طويلة، وغرس فيهن الثقة والشعور بأن هناك من يهتم بهن ويحميهن، وأخبر «بناته» أكثر من مرة أنه على استعدادٍ لإلغاء أي عملية، بمجرد أن يشتبه بوجود أي خطرٍ على حياتهن أو حريتهن.

قام مايك هراري بتحويل الكثير من النساء الشابات، المولودات داخل إسرائيل أو خارجها، إلى محاربات موساد لامعات، واللواتي بدورهن وجدن فيه الأب والمرشد والصديق.

كانت إحداهن تدعى سيلفيا رافائيل.

* * *

(1) جدعون: وحدة الاتصال العامة في «الهاغانا» أيام الانتداب البريطاني.

(13)

سيلفيا: أشهرهن جميعًا

هبطت الطائرة التابعة لشركة «إير فرانس» في جيبوتي، المستعمرة الفرنسية في شرق أفريقيا، وعلى وقع أصوات إطلاق النار، وضوء حرائق الغابات المستعرة في المدينة الصغيرة. قام الركاب القليلون بجمع أغراضهم على عجل، وسيقوا إلى حافلتين قديمتين محطمتين، نقلتاهم إلى المدينة تحت حراسةٍ مشددةٍ من المظليين الفرنسيين، الذين كانوا يستقلون عربات مدرعة. كانت باتريشيا روكسبرغ، المصورة في وكالة دالماس الباريسية، تشاهد من نافذة الحافلة جثث القتلى الملقاة على قارعة الطريق. كما شوهدت في الأنحاء بيوتٌ مدمرةٌ وسياراتٌ محروقة، فقامت بسحب كاميرتها. وكلما اقتربوا من المدينة، كانت أصوات إطلاق الرصاص تتصاعد. حيث كانت مجموعات من قبيلتي العفر والعيسى، القبيلتان الرئيستان في دولة جيبوتي الصغيرة جدًّا، تجوب الشوارع وتتبادل إطلاق النار فيما بينها عبر البنادق الآلية، بينما يحاول المظليون ومقاتلو الفيلق الأجنبي إيقافهم. كما قامت بعض العصابات باقتحام المتاجر، وأخرى

بالهجوم وإطلاق النار على منازل المستوطنين الفرنسيين. لقد كانت هذه أخطر أعمال شغبٍ منذ سنوات.

ذهبت باتريشيا روكسبرغ إلى فندق «ميرامار» في قلب المدينة العاصفة وأرسلت حقيبتها إلى غرفتها ثم غادرت مسرعة، على الرغم من تحذيرات وتوسلات طاقم الفندق. الذين حاولوا أن يشرحوا لها أن هناك أعمال شغبٍ عنيفةٍ في الخارج وأن حياتها ستكون في خطر، غير أنها لم تلتفت للتحذيرات. في ذلك اليوم والأيام القليلة التالية، لم تتوقف باتريشيا عن التجول، متسلحةً بكاميرتها. لقد قامت بتصوير مقاتلين من الجانبين، وبيوتًا مدمرة، وعائلاتٍ ثكلى، وشيوخٍ وأمهاتٍ وأطفالٍ مصابين وممزقين، وأرسلت تلك الصور إلى باريس بواسطة طائرات تابعة لسلاح الجو الفرنسي. لقد كانت المصورة الوحيدة التي جاءت لتغطية أحداث الشغب في جيبوتي، واشتهرت صورها في أرجاء العالم. كانت هذه مهمتها الأولى لصالح وكالة دالماس، وقد تكللت بالنجاح التام.

عندما عادت إلى فرنسا، حصلت باتريشيا على الكثير من الثناء، وبعد بضعة أسابيع توجه إليها مالك الوكالة لويس دالماس، وهو كاتب وصحفي ومذيع إذاعي شهير، واقترح عليها تنظيم معرض من الصور التي التقطتها في جيبوتي. قال لها دالماس أن وزارة الخارجية الفرنسية تريد أن تكون شريكة في المبادرة أيضًا، الأمر الذي سيساعدها هي والوكالة على حد سواء. لقد ترددت وطلبت وقتًا للتفكير، لكنها وافقت في نهاية

المطـاف. وهكـذا، في الصـالات الفاخـرة لفنـدق «ريتـز» الواقـع في سـاحة فانـدوم بباريـس، انطلـق معـرض صورهـا بكثـير مـن الروعـة والفخامـة، بحضـور جمهـور مـن النخبـة، مـن رجـال أعـمالٍ وأقطـابٍ إعلاميةٍ ومسـؤولين حكوميين ودبلوماسيين أجانـب. اختلطـت البـدلات باهظة الثمن بالفسـاتين العصريـة، وقـام نـوادل يرتـدون سـترات بيضـاء بتقديـم الشـمبانيا والوجبات الخفيفـة. أمـا مركـز الاهتـمام فقـد كان بالطبـع تلـك الجميلـة بفسـتان السـهرة الأسـود، امرأةٌ طويلـةٌ جدًّا، ممشـوقة القـوام، وعيناهـا السـوداوان العميقتـان تشـعان بالحكمـة الممزوجـة بالفكاهـة. كانـت تتجـول بـين الحضـور وتغـازل الضيـوف بلطـفٍ وتفتـن كل مـن تحـاوره.

كانـت تعـرف بالطبـع شيئًا لا يعرفونـه. لم تكـن هـي باتريشـيا روكسـبرغ، فقـد كانـت باتريشـيا روكسـبرغ الحقيقيـة، ممتلئـة الجسـم وتعـاني مـن الملـل، تجلـس في غرفتهـا الجانبيـة بمكتـب محامـاةٍ في مونتريـال بكنـدا، حيـث كانـت تعمـل سـكرتيرةً في قسـم الوصايـا. وذات يـوم، أثنـاء تنزههـا في شـلالات نياجـارا، عانقهـا صديقهـا اليهـودي. وقـال لهـا: «أسـدي لي معروفًـا».

همست له: «ما تطلبه».

«أعيريني جواز سفرك لمدة عام أو عامين. إسرائيل بحاجة إليه».

لم يكن لها أن ترفض. لذلك وافقت.

قـام أفـراد الموسـاد باسـتبدال صـورة باتريشـيا بصـورة إحـدى محاربـات الموسـاد الشـابات. وهكـذا تحولـت محاربـة الموسـاد الإسرائيليـة سـيلفيا

رافائيل إلى باتريشيا روكسبرغ الكندية، مصورة صحفية ورسامة في بعض الأحيان. لقد كانت وظيفتها في وكالة دالماس بمثابة غطاء مثالي للمهمات التي وُكّلت بها.

* * *

قادها طريقٌ طويلٌ ومتعرجٌ إلى عالم الظل، ففي بلدة غراف رينيت الصغيرة ذات الطبيعة القاحلة في مقاطعة الكيب بجنوب إفريقيا، ولدت سيلفيا لأبٍ يهوديّ ثري وزوجته الكالفينية المسيحية، وكان للعائلة ولدان آخران. لم تكن الفتاة يهودية وفقا للشريعة، لأن والدتها كانت مسيحية،كما أن والدها كان ملحدًا. لم تكن على دراية بمصطلح معاداة السامية حتى ذلك اليوم الذي رأت فيه مجموعة من الأولاد يدفعون فتاةً يهوديةً في عربة يدٍ خشبية ويصيحون: «سنأخذك إلى هتلر!»

قرر الوالدان إرسال الفتاة المستاءة بعيدًا عن البلدة، فسجلاها في مدرسةٍ داخليةٍ مرموقةٍ للبنات في بورت إليزابيث، حيث أمضت سنين شبابها. تبلورت شخصيتها تدريجيًّا، فأضحت مضطربة فضولية، ومفعمة بالحياة، وصهيونية متحمسة. ارتبط عقلها بإسرائيل منذ كانت إعلان قيامها. كانت وقتها في الحادية عشرة من عمرها. ثم في سن السادسة عشرة، نظمت في بورت إليزابيث احتفال عيد الاستقلال الخامس لإسرائيل. حيث عقدت مؤتمرًا لحركات الشباب الصهيوني، وبصوتٍ دراميّ مخنوق ألقت أمامهم الترجمة الإنجليزية لقصيدة «مغاش

هكيسيف» (صينية الفضة) للشاعر ناتان الترمان. وغنّت جوقة الشباب «باب الواد» و «شير هاريعوت» (أغنية الرعاية) للشاعر حاييم جوري. كما رفعت العلم الإسرائيلي فوق منزل والديها. وقد تأثرت كثيرًا بكتاب ليون يورس «إكسدس» (نزوح).

ومع ذلك، كانت لديها أحلامها الخاصة بمستقبلها. حيث كانت تطمح أن تصبح ممثلة، وقد اعتادت صديقاتها على رؤيتها تمشي في أروقة المدرسة الداخلية وهي تتلو بحماس مسرحيات شكسبير. درست الفن في جامعات جنوب إفريقيا وروديسيا. وعندما انتهت، وبشكل مستقل وفضولي سافرت إلى أوروبا، وتجوّلت هناك كثيرًا لكنها ركزت بشكل أساسي على إنجلترا، وعملت في كل وظيفة ممكنة. وظيفة واحدة فقط لم يتم قبول المغامِرة الشابة فيها. «باريستا» فتاة بار... وقتذاك، بدأ حلمٌ آخر يزهر في قلبها – السفر إلى إسرائيل والمساعدة في الدفاع عنها. وعند عودتها إلى جنوب إفريقيا التقت بمحامٍ صغير في السن وناجح. شابٌّ اسمه أفري سايمون، هو ابن إحدى العائلات المتميزة والثرية في بورت إليزابيث. وقد تحدث معها عن الزواج، حتى أن والده المقاول بنى منزلا كبيرًا وجميلا للزوجين الشابين. لكن سيلفيا رفضت عرض الزواج. وقالت له: «ليس الآن، سأذهب أولا إلى إسرائيل لمدة عام أو عامين». كما أنها عرضت على أفري المجيء معها إلى إسرائيل، لكنه رفض. وفي النهاية سافرت إلى إسرائيل، حاملةً بيدها هدية أعطاها إياها والدها قبل أن تغادر – كاميرا.

كانـت تحلـم بالانضـمام إلى للجبهـة مـن أجـل وجـود إسرائيـل، لكنهـا عنـد دخولهـا إلى أبـواب البـلاد، وهـي في الثانيـة والعشريـن مـن عمرهـا، كان هنـاك واقـعٌ آخـر ينتظرهـا. وصلـت أولا إلى كيبوتـس غـان شـموئيل كمتطوعـة، حيـث تـم إرسـالها للعمـل في مصنـع تعليـب. وسرعـان مـا اتفـق الزوجـان الشـابان اللـذان تبنيـا المتطوعـة المضطربـة، ديفيـد ودوريـت، عـلى أنهـا تسـتحق شـيئًا مختلفًـا، وأنهـا يمكنهـا أن تسـاهم في المـشروع الصهيـوني بـشيء أكثـر أهميـة مـن مـلء العلـب. فغـادرت الكيبوتـس وانتقلـت إلى حولـون، وتـم قبولهـا للعمـل كمدرسـة للغـة الإنجليزيـة في مدرسـة ثانويـة. غـير أن هـذا العمـل أيضًـا قـد خيـب أملهـا كثـيرًا. أهـذه هـي أرض إسرائيـل التـي كانـت تطمـح لحمايتهـا؟ ومـع ذلـك، لم تستسـلم. انفصلـت عـن خطيبهـا أفـري عـبر رسـالة أرسـلتها إلى جنـوب إفريقيـا، وقـررت البقـاء في إسرائيـل. ربـما تجـد طريقـة لتحقيـق حلمهـا.

لكـن التغيـير جـاء مـن طريـقٍ غـير متوقـع، فقـد اسـتأجرت شـقةً في تـل أبيـب مـع حنـا. شريكـةٌ لم تكـن تعرفهـا مـن قبـل. كانـت حنـا طالبـةً في جامعـة بـار إيـلان. وقـد قـام تسـفيكا، صديـق حنـا، بزيـارة الشـقة عـدة مـرات، كـما تجـاذب أطـراف الحديـث مـع سـيلفيا أيضًـا. دون أن يلمـح لهـا بأنـه فـرد في الأجهـزة الأمنيـة، يعمـل كمـدربٍ في مدرسـة العمليـات الخاصـة التابعـة للوحـدة 188، التـي تديـر محاربـين في بلـدان مسـتهدفة – مثـل دافنـا وشـلومو غـال، وكذلـك إيـلي كوهـين والزوجـان لوتـز. وفي غضـون وقـت قصـير، ذهـب تسـفيكا إلى مـوتي كفـير، مديـر مدرسـة المهـام الخاصـة والمـشرف عليـه،

وقـال لـه: «يجـب عليـك التحـدث إلى سـيلفيا رافائيـل هـذه، أعتقـد أنهـا مناسـبة».

وهكـذا، في إحـدى ليـالي أكتوبر/ تشريـن الأول عـام 1962م، تلقـت سـيلفيا مكالمـةً هاتفيـةً مـن شـخص مجهـولٍ دعاهـا للقائـه «ليعـرض عليهـا عمـلا». وفي اليـوم التـالي، وصلـت سـيلفيا ابنـة الخمسـة وعشريـن ربيعًـا إلى مدخـل مقهـى «هـارلي» في تـل أبيـب. اسـتقبلها مـوتي كفـير بلطـف، وقـدم نفسـه باسـم «غـادي»، موظـفٌ في شركـة حكوميـة تعمـل بالتعـاون مـع وزارة الدفـاع. وعندمـا طـرح عليهـا كفـير وابـلا مـن الأسـئلة – عـن منـزل والديهـا، وعـن الأسـباب التـي دفعتهـا للمجـيء إلى إسرائيـل، وعملهـا، وعاداتهـا، ومعارفهـا، فتحـت لـه قلبهـا وأجابتـه بصـدق. وعندمـا سـألته هـي عـن ماهيـة الوظيفـة التـي يـدور الحديـث عنهـا، أجـاب بأنهـا وظيفـة تنطـوي عـلى تحـدٍ، والكثـير مـن الرحـلات إلى خـارج البـلاد.

في اجتماعهـما التـالي، كان كفـير أكثـر تركيـزًا في كلامـه. وتحـدث معهـا عن وظيفـة في فـرع الاسـتخبارات في الجيـش الإسرائيـلي. اعـترف لهـا بأنهـا وظيفـة رائعـة، ولكنهـا «خطـيرة في بعـض الأحيـان»، وأعطاهـا لقـب «إيلانـا»، لكنـه حذرهـا مـن أنـه يتعـين عليهـا اجتيـاز اختبـارات وفحـص نفسي واسـتجواب أمنـي وتدريـب يسـتمر لعـدة أشـهر.

قالت: «ذلك يناسبني».

أبلـغ كفـير بعـض الزمـلاء، وحـضرت «إيلانـا» اجتماعًـا مـع الخبـير

النفسي. حيث كشفت له خلال المحادثة عن مخاوفها وتطلعاتها منذ طفولتها. وعندما سئلت عما إذا كان لديها أي مخاوف إضافية عندما كبرت، ضحكت وقالت: «كنت أخشى أن أبقى عانسًا، فحتى سن السادسة عشرة لم يكن لدي صديق».

خضعت سيلفيا لعدة اختبارات أخرى، حيث وصفها الخبير النفسي بأنها «بارعة في حل المشكلات، ولا تهاب المواقف الجديدة، ولا الحركة والتغيير، ولا المخاطر والاختراقات، بل إنها تدعوهم إلى حياتها». وقد قالت جملة أثناء إحدى المحادثات ظلت محفورة في ذاكرة أفراد الموساد. حيث قالت: «في قاموسي، لا وجود لمصطلح غير ممكن». كما أنها نجحت في اجتياز التحقيق الأمني أيضًا، وجاء في الرأي الختامي الموجود في ملفها الشخصي ما يلي: «الوحدة العملياتية هي أنسب مكان لها. إنها تتمتع برغبةٍ واضحةٍ في الاستقلال، ودهاءٍ مستمر، وموهبة التواصل مع البشر، وسرعة الحركة... هي فخورة حيال حقيقة أنها وجدت انتماء حقيقيًّا، انتماء يجلب الفخر».

هكذا تم قبول سيلفيا كمحاربة. وبدأت الآن شهور دورة إعداد محاربي الموساد.

أجريت معظم التدريبات في شقة تدريب تابعة للموساد في شارع ديزنغوف بتل أبيب. كان المدرب الرئيسي لسيلفيا هو «عوديد» – أفراهام جيمر، الذي قتل والده على يد عُصابة عربية قبل قيام الدولة، وكان

عمـره وقتهـا سـنةً واحـدة. نشـأ جيمـر في كيبوتـس «كفوتسـات شـيلر»، وحـارب في وحـدة «سـييرت المظليـين»، ووصـل إلى الوحـدة 188 بعـد الخدمـة في الشـاباك. شـاب وسـيم قليـل الـكلام، ومدمـن عـلى السـفر عـبر البـلاد، قـاد جيمـر سـيلفيا في المسـارات المتعرجـة للعمليـات السريـة: قـراءة الخرائـط والصـور الجويـة، التـصرف في المناطـق المشـبوهة، «تخبيـة» (زراعـة مـوادٍ ناسـفةٍ في أشـياء تبـدو بريئـة، اسـتخدام الحـبر الـسري، البـث بشـيفرة مـورس، إخفـاء أجهـزة الإرسـال، النشـاط في بلـدان أجنبيـة بهويـة مـزورة... كـما قـام جيمـر أيضًـا بتوجيههـا أثنـاء أدائهـا تماريـن المراقبـة والتعقـب، تحسـين الذاكـرة، اسـتخدام الأسـلحة، تجميـع العبـوات الناسـفة. ولاختبـار مهاراتهـا، قـام جيمـر وكفـير بإرسـال سـيلفيا إلى سـيدة أعـمال الهسـتدروت بيبـا إيدلسـون، متنكـرة كصحفيـة بريطانيـة مـن صحيفـة «ديـلي مـيرور» اللندنيـة، جـاءت لتجـري معهـا مقابلـة.

كانـت التدريبـات التاليـة أكثـر صعوبـةً بكثـير، ففـي إحـدى الليـالي، قـام كفـير ورجالـه بإرسـال سـيلفيا إلى قريـةٍ أردنيـةٍ لاكتشـاف طـرق الوصـول إلى البئـر في مركـز القريـة. كانـت القريـة في الواقـع هـي كفـر قاسـم، داخـل الأراضي الفلسـطينية، لكـن سـيلفيا لم تكـن تعـرف ذلـك. وقـد قـام كفـير وجيمـر بتزويدهـا بخريطـة، كانـا قـد مسـحا فيهـا المسـار الحقيقـي للخـط الأخـضر ونسـخاه غربًـا، بحيـث اعتقـدت أنهـا تعمـل في أراضي العـدو. لقـد عـبرت «الحـدود»، وتسـللت إلى القريـة دون أن يتـم كشـفها، ونفـذت التدريـب عـلى أفضـل وجـه، ثـم «عـادت إلى إسرائيـل». وفي التحقيـق اعترفـت بأنهـا «كانـت خائفـةً قليـلا».

تـم تكليفهـا بعـد ذلـك بالتسـلل إلى محطـة ريدينـغ، التابعـة لشركـة الكهربـاء عـبر نفـق تصريـف ضيّـقٍ وطويـل، وإلصـاق شـحنةٍ وهميـةٍ بأحـد التوربينـات دون أن يتـم كشـفها. كان هـذا أحـد التدريبـات المنتظمـة في دورة الموسـاد، والـذي خضعـت لـه أيضـا إيزابيـل بيـدرو ومرشـحاتٍ أخريـات. وقـد أُعجـب مـوتي كفـير حقًّـا بـأداء سيلفيا في ذلـك التدريـب. حتـى أنـه قـال لأحـد أصدقائـه: «هـل تعـرف مـا معنـى هـذا؟ يجـب عليهـا النـزول إلى النهـر، ونـزع الحمايـة الشـبكية مـن مدخـل نفـق التصريـف، والتقـدم عـبر النفـق وسـط ظـلامٍ دامـس وحـرارة شـديدة - حيـث يتدفـق أمامهـا مـاء درجـة حرارتـه حـوالي 60 درجـة، ثـم الوصـول إلى صالـة التوربينـات، وإلصـاق الشـحنة الوهميـة دون أن يتـم كشـفها، والعـودة عـبر نفـس النفـق المظلـم». وقـد نفـذت سـيلفيا هـذه المهمـة أيضـا عـلى أكمـل وجـه.

كان أحـد التدريبـات الختاميـة أيضًـا مأخـوذًا مـن النظـام الروتينـي للموسـاد. حيـث تلقـت سـيلفيا أمـرًا بالتسـلل إلى معسـكر اللنبـي في القـدس. وقـد جـرى كل شيء عـلى أفضـل وجـه، ووجـدت طريقهـا إلى الداخـل، لكـن «بالطبـع» تـم إلقـاء القبـض عليهـا في اللحظـة الأخـيرة وسـيقت إلى غرفـة التحقيـق، حيـث هاجمهـا محققـون قسـاة بالأسـئلة والتهديـدات. تـم سـجنها في زنزانـة كريهـة الرائحـة، واسـتجوبت مـرارًا وتكـرارًا لكنهـا أصرّت عـلى قصـة الغطـاء الخاصـة بهـا، حيـث بقيـت تزعـم بعنـاد أنهـا سـائحة بريئـة ضلـت طريقهـا. وبعـد يـوم شـاق، لم تنكسر فيـه، نقلهـا المحققـون إلى غرفـة أخـرى، حيـث كان ينتظرهـا أفراهـام جيمـر. فعانقهـا وقـال: «أحسـنت، أنـا فخـور بـك!»

هكـذا أدركـت أن مجمـل المهمـة في معسـكر اللنبـي والقبـض عليهـا واسـتجوابها القـاسي، لم يكـن سـوى تدريـبٍ يهـدف إلى اختبـار قدرتهـا عـلى تحمـل الظـروف الصعبـة.

وفي نهايـة تدريبهـا، أرسـل أفراهـام جيمـر تقريـرًا رسـميًّا سريًّـا للغايـة، إلى مديـر المدرسـة صديقـه مـوتي كفـير، قـال فيـه: «لقـد ثبـت أن المرشَّـحة تملـك شـخصية قويـة. إنهـا صارمـة للغايـة، وذكيـة بشـكل اسـتثنائي، ولديهـا قـدرة عاليـة جـدا عـلى التعلـم والاسـتيعاب... إنهـا تُظهـر دافعًـا كبـيرًا وتعاطفًـا شـديدًا مـع الشـعب اليهـودي... جميـع مدربيهـا يثنـون عليهـا. والدرجـات التـي حصلـت عليهـا طـوال فـترة التدريـب كانـت جيـدة جـدًّا. لقـد أظهـرت روح المبـادرة وسـعة الحيلـة والدهـاء في التسـلل إلى الأماكـن المحميـة ونجحـت في اجتيـاز تدريبـات الاسـتجواب... لديهـا قـدرةٌ خاصـةٌ عـلى التكيـف مـع المواقـف الصعبـة... وإتمـام المهـام عـلى أكمـل وجـه».

❋ ❋ ❋

بـدأ مدربوهـا الآن في بنـاء قصـة الغطـاء الخاصـة بهـا. كان مايـك هـراري يتابـع مـن بعيـد إعـداد الغطـاء لمحاربـة قيسـارية الجديـدة. لقـد قـرر هـو وأصدقـاؤه تحويلهـا إلى مصـورةٍ محترفـةٍ، وإرسـالها لتتلقـى دورةً مكثفـةً عـلى يـد بـول جولدمـان، أحـد أشـهر المصوريـن الصحفيـين في إسرائيـل. كان جولدمـان قـد أحيـى بأربعـين ألـف فيلـم نيجاتيـف ذكـرى السـنوات الأخـيرة مـن الانتـداب في البـلاد والسـنوات الأولى لدولـة إسرائيـل. لقـد أصبـح

معروفًا في العالم بأسره بعد أن صور بن جوريون وهو يقف على رأسه على شاطئ البحر. تعلمت سيلفيا من بول جولدمان حرفة التصوير، كما رافقته أيضًا في بعض مهماته، بما في ذلك زيارته لمنزل ديفيد بن جوريون. وقامت بمساعدة جولدمان الذي صور «الرجل العجوز». وقد اقترب منها بن جوريون بنفسه وأعرب عن إعجابه بها لكونها «متطوعة» في إسرائيل.

مع نهاية هذه المرحلة، كان على سيلفيا السفر إلى الخارج لتقوم هناك بتأسيس قصة الغطاء الخاصة بها. فحصلت على جواز سفر باسم باتريشيا روكسبرغ، وغادرت لإنشاء عنوان إقامة في جزيرة فانكوفر بكندا. كانت فيكتوريا، المدينة الرئيسة في الجزيرة، مدينة ساحرةً وقديمة، وكأن مبانيها وشوارعها قد تجمدت من القرن التاسع عشر، إذ كانت تضم مستعمرة فنية كبيرة.

تأقلمت سيلفيا بسهولة مع حياتها الجديدة في فانكوفر الهادئة. ولكونها امرأةً شابةً مفعمةً بالحياة ويسهل التعامل معها، فقد كسبت الكثير من المعارف في وقتٍ قصير. كما بدأت أيضًا بالتصوير، ونشرت العديد من الصور في الصحف المحلية. وبعد ستة أشهر، عندما بدا أن الغطاء الخاص بها قد أصبح قويًّا، سافرت إلى فرنسا واستأجرت شقة عازبٍ صغيرة في باريس. وفي غضون ذلك، قام أحد مخبري الموساد، وهو رجلٌ إنجليزيٌّ ذو نفوذٍ ويمتلك شبكة من المعارف في جميع أنحاء أوروبا، باستخدام علاقاته في باريس. كما انخرط في العملية أيضًا محامٍ

مشهور في باريس، حيث وصلت طلباتهما إلى مالك وكالة التصوير لويس دالماس، الذي دعا باتريشيا روكسبرغ إلى مكتبه. لم يكن يعرف من تكون، ولم يخطر بباله للحظة أنها محاربة موساد، لكنه عندما شاهد صورها تأثر كثيرًا، وأصبحت مصورة في الوكالة. وهكذا وصلت إلى جيبوتي، وبعد وقت قصير - معرض في فندق «ريتز»!

* * *

بينما كانت تتجاذب أطراف الحديث مع الضيوف عند افتتاح المعرض، اقترب منها رجلٌ أنيق وقدم نفسه. كان السفير الأردني في باريس. سألها: «هل يمكنني دعوتك لتناول الغداء؟» فوافقت. وعندما التقيا في مطعم باريسيّ تقليدي، كانت المفاجأة: حيث دعاها السفير باسم الحكومة الأردنية للقيام بزيارة رسمية إلى بلاده كضيفةٍ على الحكومة. كانت متحمسةً للأمر، وكان السيد دالماس متحمسًا أيضًا، ومنحها الموساد موافقته. استغرقت زيارتها للأردن أسبوعًا. حيث قامت بجولة في جميع أنحاء المملكة والتقطت الصور، وقد عوملت باحترامٍ وتعاون، باستثناء حادث واحد وقع خلال زيارتها لمخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين. فبينما كانت واقفة تلتقط الصور، أخذ يصرخ عليها بعض الرجال المسلحين ببنادق رشاشة، واتهموها بأنها جاسوسة إسرائيلية. ثم انتزعوا الكاميرا من يديها وسحبوا منها فيلم الصور وركض أحدهم لتحميضه. فيما وقفت هي أمامهم بثباتٍ وهدوء. وفي النهاية، عاد الشاب بالفيلم المعالج والذي تضمن صورًا لمناظر طبيعيةٍ وأناسٍ فقط.

هدأ الفلسطينيون وأعادوا الكاميرا لباتريشيا روكسبرغ واعتذروا منها. لقد كان بإمكانها أن تجد العزاء في دعوتها قبل مغادرة الأردن إلى قصر الملك حسين، حيث قامت بأخذ الصور لعائلته وابنه الصغير عبد الله، والذي أصبح فيما بعد ملك الأردن. كانت هذه زيارة سيلفيا الأولى لقصر الملك، لكنها لم تكن الأخيرة. فخلال رحلاتها اللاحقة إلى الأردن، قامت بزيارة قصر الملك وتصويره أكثر من مرة، وربطتها علاقات وثيقة بأفراد العائلة الملكية، حتى بدأ الخبراء يطلقون عليها لقب «مصورة حسين».

بعد فترةٍ وجيزةٍ من عودتها لباريس، سمعت سيلفيا طرقتين قصيرتين على باب شقتها، ثم لحظة صمت، ثم طرقتان أخريتان. كانت هذه إشارةً متفقٌ عليها بينها وبين المشرفين عليها في الموساد. هكذا فتحت الباب ليدخل أفراهام جيمر. وبعدها بدقائق، طُرق الباب مرة أخرى. هذه المرة كان موتي كفير، الذي تم تعيينه مؤخرًا رئيسًا لمقر القيادة الأمامي للوحدة العملياتية في أوروبا. قال لها أفراهام: «أنت على وشك السفر. شخصٌ ما يجب أن يتأذى».

سافرت سيلفيا بالقطار إلى روما والتقت بقائد شعبة قيسارية مايك هراري. الذي كلّفها هي ومحارب آخر يدعى شلومو غال بالمغادرة إلى ليبيا على الفور. كان شلومو غال يتحدث عدة لغات وثعلب عمليات مخضرم، كما كان رسامًا موهوبًا أيضًا. كان من المفترض أن ينتحل الاثنان شخصية زوجين، حتى أنهما ارتديا خواتم زواج. وقد حصلا على سيارةٍ مستعملة، وكان عليهما الوصول إلى ليبيا عن طريق عَبّارة من ميناء نابولي.

كانت قصة الغطاء الخاصة بهما هي أنهما سائحان يقضيان شهر العسل في رحلة إلى بلاد معمر القذافي الجميلة. وكان خبراء الموساد قد أخفوا في السيارة كميةً كبيرةً من المتفجرات. وقد تم تكليف سيلفيا «وزوجها» بالسفر إلى طرابلس وإيقاف السيارة بالقرب من منزل زعيم ليبي، كان يساعد منظمات المقاومة كثيرًا ويشكل خطرًا حقيقيًّا على إسرائيل. وفي غضون أيام قليلة، كان من المقرر أن تقام احتفالاتٌ وطنيةٌ في طرابلس، وكان الرجل على وشك الظهور لإلقاء خطابٍ في إحدى المراسم، إذ كان من المفترض أن يغادر صباحًا من منزله الواقع في أحد الميادين الرئيسة في المدينة، وقد أعطيت التعليمات لسيلفيا وشلومو بمراقبته من مسافةٍ بعيدة، بحيث يتم تفجير الشحنة الناسفة في السيارة بواسطة جهاز تحكم عن بعد، بمجرد خروجه.

هنا حدث خللٌ غير متوقع، كاد يؤدي بالعملية كلها. إذ كان «الزوجان» موجودان بالفعل في المدينة الساحلية، لكن في اللحظة الأخيرة اتضح لهما أن جميع تذاكر العبّارات قد بيعت، وأن من كان عليه أن يوفرها لهما لم يؤد واجبه على النحو المطلوب، فيما كان يتوجب عليهما الوصول إلى طرابلس قبل العملية ببضعة أيام. هنا ظهر دهاء مايك هراري، إذ هرع إلى العَبّارة، ودس حزمةً من الأوراق النقدية في يد جيوفاني، المسؤول عن تحميل الركاب، مما جعله يتساهل ويسمح بتحميل السيارة المفخخة مع الزوجين على سطح السفينة.

بدا هنا أن كل شيءٍ كان يسير على ما يرام. وصل الاثنان إلى طرابلس

وتوجها إلى أحد الفنادق، وقاما بإيقاف السيارة في المكان المحدد، وحددا نقطة مراقبة، وانتظرا أمر التنفيذ النهائي من باريس، لكن الموافقة لم تصل. مرت أيام الانتظار في الفندق بطيئةً جدًا، وقد خشيت سيلفيا أن يبدأ طاقم الفندق بالاشتباه في السائحيْن اللذين يجلسان في غرفتهما لأيام كاملة دون أن يفعلا شيئا. وفجأة، لمعت في رأسه سيلفيا فكرة، فطلبت من أحد الموظفين أن يحضر لها أدوات رسم - أقمشة رسم، قواعد مرسم، ألوان، فراشي... اشترى الرجل كل هذه الأشياء، ثم قام شلومو وسيلفيا بوضع قواعد الرسم في غرفتهما وبدءا برسم المسجد والمباني التي يمكن رؤيتها من النوافذ.

شاهدت خادمات الغرف والموظفون اللوحات واندهشوا كما هو متوقع، إذ سرعان ما عرف الجميع أن الضيفين اللذين يقضيان شهر العسل كانا زوجا من الرسامين، يستغلان كل لحظةٍ ومكانٍ لممارسة فنّهم. ثم أخيرًا، وصلت الموافقة النهائية للعملية من باريس. أمضى الاثنان الساعات الأخيرة في مشاهدة شروق الشمس، ولكن عندما جاء الصباح ذهبا إلى الميدان، فوجداه مليئًا بالمحتفلين، والمدنيين الأبرياء، والنساء والأطفال. كما أقيمت بالقرب من منزل الزعيم الليبي أكشاك لبيع الوجبات السريعة والهدايا التذكارية والأعلام. وكان هناك حشدٌ كبيرٌ في المكان، فقام شلومو وسيلفيا على الفور بالإبلاغ بأنه يمكن تنفيذ العملية، ولكنها ستسفر عن مقتل العشرات من المدنيين. ولم يتأخر الرد في الوصول: «الأم مريضة، عودا إلى المنزل على الفور!»

هكذا تم إلغاء العملية.

* * *

عنـد عودتهـا إلى باريـس، غرقـت سـيلفيا في نشـاطٍ مكثـفٍ للغايـة. كان يتـم إرسـالها أحيانـا إلى «عمليـات تصويـر» مـن قبـل لويـس دالماس، لكـن في معظـم الحـالات كانـت تخـرج في عمليـات للموسـاد. فمـن باريـس، طـارت إلى دمشـق وبغـداد والقاهـرة، وتـم إرسـالها أيضًـا إلى بلـدان شـمال إفريقيـا. محميـةً بهويـة باتريشـيا روكسـبرغ. شـاركت في عمليـات جمـع المعلومـات الاسـتخباراتية وأنشـطة عنيفـة ضـد المقاومـة، حيـث لعبـت فيهـا أدوارًا تـوازي أدوار المحاربـين الرجـال، حتـى عندمـا تضمنـت العمليات اسـتخدام السـلاح. لم يتـم الاشـتباه بهـا أبـدًا، حتـى في الحـالات التـي تـم فيهـا رفـع الجاهزيـة واليقظـة في البلـدان العربيـة. ووفقـا لإحـدى الروايـات، فقـد كانـت تقـف في شرفـة غرفتهـا بأحـد فنـادق القاهـرة في الخامـس مـن يونيو/ حزيـران عـام 1967م، تراقـب طائـرات سـلاح الجـو وهـي تهاجـم مـصر وتبـدأ حـرب الأيـام السـتة.

وفي عـام 1968م، في عيـد ميلادهـا الحـادي والثلاثـين، تـم إرسـال باتريشـيا روكسـبرغ لتصويـر حفـل إطـلاق سـفينة نهريـة جديـدة في ميـاه نهـر السـين في باريـس. وبطبيعـة الحـال، رافـق حفـل الإطـلاق تنظيـم اسـتقبالٍ على سـطح السـفينة، مـع تقديـم الشـمبانيا والكافيـار للضيـوف. وفجـأة اكتشـفت المصـورة أنهـا ليسـت الوحيـدة التـي تغطـي الحـدث، حيـث كان يركـض عـلى

سطح السفينة رجل وسيم ذو عينين مشرقتين زرقاوتين، مسلح بكاميرا كبيرة، وقد قابل الاثنان بعضهما البعض بابتسامة. عرّف عن نفسه باسم «إريك شتراوس» (اسم مستعار)، مصور في وكالة «ماغنوم» الشهيرة. وقد بدا أنه مهتمٌ بها، ليس فقط كمصورة منافسة. وفي الغداء الذي تم تقديمه على متن السفينة، جلسا سوية فسحرها، لقد كان ذكيًّا بارعًا ويتمتع بروح الدعابة كما أن قصصه عن أسفاره حول العالم وهواياته - تسلق الجبال - فتنتها. كان أصغر منها سنًّا وقد أعجبت به كثيرًا.

في نهاية اليوم، دعاها إريك لتناول العشاء، لكنها رفضت الدعوة خوفًا أن يكون ذا شخصية منتحلة، وعميلا للعدو يحاول التقرب منها. وعلى الرغم من أنها أخذت رقم هاتفه ووعدته بالاتصال به، إلا أن اتصالها المباشر كان مع المشرف عليها من الموساد. حيث اعترفت له بأنها معجبة بإريك شتراوس وأنها تريد أن تراه مرة أخرى.

قال المشرف: «سوف نتحقق».

هكذا تدخلت أذرع الموساد وبدأت العمل على الفور. وتم الحصول على ملف مفصل عن شتراوس بعد تقديم طلب إلى أصدقاءَ في جهاز مخابرات ألمانيا الغربية. وتم الحصول على ملف آخر من «الإنتربول»، كما وردت تقارير أيضًا من آخرين في جهاز المخابرات الفرنسي. وقد أفضت جميع المعلومات إلى استنتاج واحد: إريك شتراوس شخصية حقيقية ولا داعي للقلق. هكذا حصلت سيلفيا على الإذن لمقابلته، ولم يكد يأتي

المساء حتى كانت تتصل به. خرج الاثنان لتناول العشاء، وانتهيا إلى زيارة لشقة شتراوس، حيث استمرت تلك الزيارة حتى الصباح. ثم غادرت سيلفيا منزل إريك كامرأة واقعة في الحب. وتذكرت علاقتها مع أفري في بورت إليزابيث، وقد أدركت للتو أنها لم تكن أكثر من صداقة. لكنها أحبّت إريك بجنون، وكذلك فعل هو. وقد تطورت العلاقة بينهما إلى قصة حب نارية. كانت تبلغه من حين لآخر أنها يتعين عليها السفر في «مهمة لصالح وكالة دالماس»، لكنها لم تكن توضح له التفاصيل. كان عليه أن يعتاد على رحلاتها الغامضة، وقد آلمها أنها لم تستطع أن تفصح له عن عملها الحقيقي، لكنها بعد بضعة أشهر جاءت إلى المشرفين بفكرةٍ مبتكرة. قالت: «إن إريك استقال مؤخرًا من وكالة ماغنوم، وهو يبحث لنفسه عن وظيفة أخرى، رائعة ومليئة بالتحديات. لم لا نقوم بتجنيده في الموساد؟» كانت تعتقد أنها بهذه الطريقة ستكسر آخر حاجز يفصل بينهما.

أعطاها الموساد الضوء الأخضر، حتى وإن كانوا مترددين. قالت لإريك: «أنا أعرف ممثلين لشركة تعمل في جمع المعلومات. إنهم يبحثون عن أشخاص يمكنهم العمل لصالحهم في أوروبا، وربما في أماكن أخرى. هم مرتبطون بإسرائيل. هل هذا يثير اهتمامك؟» طلب منها تفاصيل، لكنها ادعت أن هذا هو كل ما تعرفه. وفي نهاية حديثهم، طلب إريك الاجتماع مع «الباحثين عن المعلومات». فاجتمع معه عدد من مسؤولي الموساد في باريس واستجوبوه مطولا، ثم تم نقله جوا إلى إسرائيل بهويّةٍ

مزورةٍ وجواز سفرٍ إسرائيلي، وأسكنوه في شقة في شارع بلوخ بتل أبيب. وتواصلت الاستجوابات في شققٍ سرية، حيث كان بانتظاره موظفون في الموساد وخبير نفسي. وبين كل استجواب وآخر كان يتم اصطحاب إريك في رحلات في أرجاء إسرائيل. ثم قرروا تجنيده في نهاية المطاف.

هنا أدرك إريك أنه مدعو للانضمام إلى الموساد الإسرائيلي، كما علم أن صديقته باتريشيا كانت لم تكن سوى محاربة موساد. هكذا وافق على العرض، وبعد تدريبٍ طويل عاد إلى باريس كعضو في الوحدة العملياتية للموساد. وقد توطدت العلاقة بينه وبين باتريشيا أكثر بمجرد أن أصبح بإمكانهما التحدث بصراحة عن عملهما.

كانت نعمة ونقمة في نفس الوقت، فقد قام قادة إريك بإبلاغه أنهم قرروا زرعه كعميلٍ طويل الأمد في مدينة عربية، حيث سيقضي هناك معظم سنواته القادمة. ظنّ هو وباتريشيا أنهما سيتمكنان من مواصلة علاقتهما الوثيقة حتى عندما ينطلق في مهامه، لكن سرعان ما اتضح أن ذلك مستحيل. لم يُسمح لهما بتبادل الرسائل أو المكالمات الهاتفية أو أي وسيلةٍ اتصال أخرى، كما أن إجازاتهما لم تتوافقا مع بعضهما. وتدريجيًّا ابتعد الاثنان عن بعضهما، وأخذت مشاعرهما المتبادلة تتلاشى وتتبخر.

كان لهذا الفشل أنها عندما وقعت في الحب للمرة الثانية لم تبلغ الموساد بالأمر. فقد تعرفت بعد عامين من قصة حبها لإريك على مراسل شاب لصحيفة «تايمز» اللندنية. كان ذلك في باريس وكان اسم

العشيق هذه المرة هو «جون سوين». وكان يبلغ من العمر وقتها 21 عامًا فقط. كان لجمالها وذكائها وسحرها الشخصي الأثر الذي جعله يلاحقها سعيًا للارتباط بها. هكذا أمضيا معًا ليالٍ عاصفة «في شقتها الصغيرة في الضفة اليمنى» بباريس. تطورت العلاقة الغرامية دون أن يعلم بها أحد من الموساد. ووفقا لجون سوين، كانت باتريشيا مهتمةً جدًّا بليبيا والقذافي، واقترحت أن يسافر كلاهما إلى ليبيا، فيجري هو مقابلة مع القذافي وتقوم هي بتصويره. وقد وافق على الأمر، لكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة دخولٍ إلى ليبيا. وبذلك انتهت هذه القضية. استمرت علاقتهما لفترةٍ طويلة، قبل أن تموت مع مرور الزمن. إلا أنه في عام 1973م، وعندما تم الكشف عن هوية باتريشيا الحقيقية، أصيب سوين بالصدمة، ونشر مقالا يصف فيه علاقته مع سيلفيا رافائيل في صحيفة «صنداي تايمز» بعنوان «الوقوع في فخ العسل الذي نصبته ماتا هاري الإسرائيلية».

لم يصدق المشرفون أن جرأة سيلفيا بلغت أن تفعل ما يحلو لها من علاقات دون الرجوع إليهم. ووفقًا لبعض المصادر، فقد كان لسيلفيا المزيد من علاقات حب، مع محارب أو محاربين من الموساد ممن تواجدوا في باريس، لكنها وكالعادة لم تبلغ رؤساءها بذلك أيضًا.

* * *

ذات يوم، في أواخر صيف عام 1972م، كانت سيلفيا جالسة بمفردها

في شقتها في باريس، عندما بدأت تظهر تقارير على شاشة التلفزيون عن هجومٍ خطيرٍ في ميونخ، حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية. كما ذكرت بعض التقارير اسم منظمة أيلول الأسود الفلسطينية. وأشارت التقارير الأولية إلى أن عددا من أفراد من هذه المنظمة قد اقتحموا القرية الأولمبية واختطفوا رياضيين إسرائيليين. كانت منظمة أيلول الأسود منظمة جديدة، أسسها ياسر عرفات مؤخرًا في سرّيّةٍ تامة.

كانت منظمة فتح في تلك الأيام تمر بأزمةٍ عميقة. حيث تم طرد مناضليها من الأردن في سبتمبر/ أيلول عام 1970م، بعد أن شعر الملك حسين أن مملكته كانت تفلت من بين يديه. فمنذ حرب الأيام الستة عام 1967م، جعلت حركة فتح من الأردن قاعدتها الرئيسة. وعلى الأراضي الأردنية، قام ياسر عرفات بتنظيم وتدريب مقاتليه، ومن هناك أرسلهم لمهاجمة إسرائيل وأهدافها السهلة في البلدان الأوروبية. وقد عملت حركة فتح دون عوائق وقلّلت من شأن الملك حسين، الذي تم تصويره كملكٍ ضعيف لا يستطيع احتواءها. سيطر مناضلو فتح على أجزاء واسعةٍ من الأردن وعلى مخيمات اللاجئين، ونصبوا الحواجز في شوارع عمان، كما أجبروا ثلاث طائرات ركاب تابعة لشركات غربية على الهبوط بالقرب من الزرقاء، ثاني أكبر مدن المملكة، وقاموا بتفجيرها. وعندما زار الملك حسين قاعدة لسلاح المدرعات في جيشه، رأى حمالة صدر نسائية ترفرف على هوائي إحدى الدبابات. وسأل جنرالاته: «ما هذا؟» فأجاب أحدهم بوقاحة، وبجرأة غير مسبوقة: «نحن نساء، أنت لا تدعنا نقاتل».

أدرك حسين أنه لم يعد قادرًا على كبح جماح نفسه، فأمر الجيش

بالقضـاء عـلى حركـة فتـح في الأردن. وبالفعـل، ارتكـب الجيـش مجـزرة مروعـة في مخيـمات اللاجئـين. وفي شـهر سـبتمبر/ أيلول عـام 1970م، تـم قتـل آلاف المناضلـين، ولذلـك أطلـق عليـه اسـم أيلـول الأسـود. غـادر مناضلـو فتـح الأردن إلى لبنـان، وأقامـوا قواعدهـم هنـاك. كـما أن كثيريـن منهـم عـبروا نهـر الأردن وتوسـلوا إلى جنـود الجيـش الإسرائيـلي ليأخذوهـم أسرى، فقـط لينقذوهـم مـن الجيـش الأردني. أصبحـت بـيروت، عاصمـة لبنـان، الآن أيضـا عاصمـة منظمـة التحريـر الفلسـطينية التابعـة ليـاسر عرفـات.

في تلـك الأيـام بالتحديـد، أطلـق عرفـات حملـة تهـدف إلى كسـب الاعـتراف والتأييـد الـدولي. ولرغبـةٍ منـه في أن يظهـر للعـالم كرجـل سـلام، ألقـى عرفـات خطابـات تصالحيـة وأعلـن وقـف العمليـات. لكـن ذلـك كان مجـرد عـرض عـلى خشـبة المـسرح العالميـة. حيـث كان يفـترض أن عرفـات قـد أوقـف عمليـات منظمتـه حركـة «فتـح»، لكنـه أنشـأ منظمـة أكثـر تطـورًا أطلـق عليهـا اسـم أيلـول الأسـود. هكـذا عـاد نشـاط المقاومـة مـرة أخـرى. ففـي 28 نوفمبر/ تشريـن الثـاني عـام 1971م، اقتحـم رجـال منظمـة أيلـول الأسـود بهـو فنـدق «الشـيراتون» في القاهـرة، وقتلـوا رئيـس الـوزراء الأردني السـابق وصفـي التـل. كـما قتلـوا خمسـة مـن عمـلاء المخابـرات الأردنيـة في قبـو منـزل في مدينـة بـون بألمانيـا، واغتالـوا دبلوماسـيين أوروبيـين وأمريكيـين في مدينـة الخرطـوم بالسـودان، وحاولـوا أيضًـا اختطـاف طائـرة تابعـة لشركـة «سـابينا» كانـت في طريقهـا إلى إسرائيـل في مايو/ أيـار عـام 1972م.

* * *

في 5 سبتمبر/ أيلول عام 1972م، تسلل المناضلون الفلسطينيون إلى القرية الأولمبية، واقتحموا شقة الرياضيين الإسرائيليين وهم يطلقون النار من بنادق آلية، فقُتل على الفور اثنان من الرياضيين، هما موشيه واينبرغ وجو رومانو، فيما قام المناضلون بأسر الآخرين. عرضت إسرائيل إرسال قوات نخبة متمرسةً إلى ألمانيا لتحرير الرهائن الإسرائيليين، لكن الحكومة الألمانية رفضت بشدة، قال المتحدثون باسم الحكومة إن الرياضيين الإسرائيليين قد تم اختطافهم على الأراضي الألمانية، وألمانيا فقط هي من ستقوم بتحريرهم. وبالكاد وافق الألمان على مجيء رئيس الموساد تسفي زامير إلى ميونخ، لكنهم رفضوا منحه أي مكانة أو الاستماع إلى مشورته. وأعطوه دور المتفرج فقط. وطوال يومٍ كامل، أُجريت مفاوضات محبطة وشائنة بين المناضلين والسلطات الألمانية، تم في نهايتها الاتفاق على أن يقوم المناضلون بالإفراج عن الرهائن مقابل حصولهم على طائرة تنقلهم إلى القاهرة.

في المساء، تم نقل الرهائن وخاطفيهم بواسطة حافلة مصفحة إلى مطار فورستنفلدبروك بالقرب من ميونخ. وقد ابتكر الألمان على عجل حيلة بسيطة من أجل السيطرة على المناضلين. حيث كانت قوات الشرطة المحلية مع قناصين غير مهرة بانتظارهم في المطار. وقد وضعت على المدرج طائرةٌ فارغةٌ تتبع شركة لوفتهانزا، كان من المفترض أن تقوم بإيصال المناضلين إلى مكانٍ آمن، إلا أن الطائرة كانت باردة، ومحركاتها لا تعمل، كما أنه لم يكن فيها طاقم طيارين. أي طفل كان سيدرك أن هذا فخ

هـواة تـم إعـداده في اللحظـة الأخـيرة. وبالفعـل، كان كافيًا لقـادة المناضلين أن يلقـوا نظـرة سريعـة عـلى الطائـرة ليفهمـوا أن «الرحلـة إلى دولـة عربيـة» كانـت وهميـة. فحـدث تبـادل إطـلاق نـار بـين الشرطـة والمناضلـين، كان نتيجتـه مقتـل جميـع الرهائـن. لقـد كان القناصـة الألمـان وهجـوم قـوات الشرطـة بـلا جـدوى. وتراكمـت في المكان جثـث شرطـي ألمـاني وتسـعة إسرائيليـين مقيديـن وأربعـة مناضلـين. فيـما تـم القبـض عـلى المناضلـين الثلاثـة الباقـين أحيـاء، ثـم أطلـق سراحهـم بعـد أقـل مـن شـهرين، عندمـا قامـت منظمـة أيلـول الأسـود بخطـف طائـرة تابعـة لشركـة لوفتهانـزا وسـارعت الحكومـة الألمانيـة إلى الاستسـلام لمطالبهـم.

تـم نـشر تفاصيـل حادثـة ميونـخ في وسـائل الإعـلام والصحـف العالميـة. وقـد ظهـر في التقاريـر والعناويـن اسـم واحـد: «عـلي حسـن سـلامة». وهـو شـابٌّ وسـيم وذكـي، هـو نجـل الشـيخ حسـن سـلامة الـذي كان زعيـم القـوات الفلسـطينية خـلال حـرب فلسـطين عـام 1948م. كان حسـن سـلامة قـد قتـل في معركـة ضـد منظمـة إتسـل في روش هاعـين، فاسـتقرت عائلتـه في لبنـان، ثـم تعـددت تنقلاتهـا، إلى أن اسـتقرت رحلـة ابنـه «عـلي» في ألمانيـا، فعـاش هنـاك حيـاة مـن الـترف والرفاهيـة لثرائـه، قبـل أن يلتحـق بحركـة فتـح التابعـة ليـاسر عرفـات. وفي عـام 1970م تـم تعيـين سـلامة قائـدًا للعمليـات في منظمـة أيلـول الأسـود. وقـد أطلـق عليـه أصدقـاؤه لقـب «الأمـير الأحمـر». وقـد لُقـب بـ «الأمـير» لارتباطـه بالزعيـم حسـن سـلامة، و«الأحمـر» لنضالـه. وقـد رأى فيـه عرفـات خليفـة لـه في يـوم مـن الأيـام، بـل وأعلـن عـن ذلـك

علنًا. وكان سلامة هو الرجل الذي وضع وخطط للهجوم على الرياضيين الإسرائيليين في ميونخ.

بعد مقتل الرياضيين، مثل كل من رئيس الموساد تسفي زامير ومستشار رئيس الوزراء لشؤون الإرهاب اللواء (احتياط) أهارون ياريف أمام رئيسة الوزراء جولدا مائير. وتحدثا إليها عن الخطر الجسيم الذي تمثله منظمة أيلول الأسود على إسرائيل. وقال الاثنان لجولدا مائير: لا يمكننا العثور على جميع أفراد منظمة أيلول الأسود وقتلهم، ولكن «إذا قطعنا رأس الأفعى فستزول المنظمة عن الوجود». وبعد تردُّدٍ شديد، قالت جولدا مائير: «أرسلوا الشبان».

وهكذا انطلقت عملية «غضب الله» التي قادها مايك هراري. فخرجت مجموعات شعبة قيسارية إلى أوروبا سعيًا وراء قادة منظمة أيلول الأسود ومبعوثيها، الذين عملوا تحت أغطية معقدة من عواصم مختلفة، لكن جولدا فرضت قيودًا على حرية عمل الموساد. فقد أنشأت نوعا من المحاكم السرية عرفت أيضا باسم «اللجنة X»، شارك فيا إلى جانبها كل من نائب رئيس الوزراء إيغال آلون ووزير الحرب موشيه ديان. حيث كان يتوجب على ممثلي الموساد أن يقدموا لهم الملف الشخصي لكل شخصٍ يقترح الموساد تصفيته. كما كان عليهم أن يثبتوا لتلك اللجنة أن هذا الشخص خطيرٌ وقاتل، ولا يتم إعطاء الضوء الأخضر لوحدة كيدون لتنفيذ العملية إلا بعد موافقة اللجنة.

* * *

علـى مـر السـنين، كثـيرًا مـا عملـت ضابطـة الموسـاد عليـزا ماجـين إلى جانـب مايـك هـراري، الـذي كانـت تقـدره كثـيرًا. وفي عـام 1972م، تـم تكليفهـا بإعـداد ملفـات المناضلـين الذيـن اقـترح الموسـاد تصفيتهـم وتقديمهـا إلى اللجنـة X.

قـام رئيـس الموسـاد بتكليـف عليـزا ماجـين بإعـداد ملـف مفصـل لـكل مناضـل يتـم فيـه إثبـات أنـه أحـد قـادة منظمـة أيلـول الأسـود. وقـد عملـت عليـزا ماجـين مـع فريـق كامـل. وقالـت بعـد سـنوات: «في البداية، قمنـا بجمع كل المـواد المتعلقـة بالإرهابـين. لقـد جمعنـا معلومـات مـن هيئـة الاسـتخبارات ومـن الشـاباك ومـن مصـادر أخـرى، و»كان علينـا أن نثبـت» مـا فعلـه كل واحـدٍ منهـم، حتـى يسـتحق أن يكـون زبونـا لنـا...».

تتذكـر عليـزا بشـكلٍ خـاص إعـداد ملـف وائـل عـادل زعيـتر. إذ كان يعمـل تحـت غطـاءٍ محكـم، فبـدا ظاهريًّـا كرجـل ثقافـة وشـاعر ومترجـم لـلأدب الكلاسـيكي وموظـف صغـير في السـفارة الليبيـة في رومـا. لكنهـا اسـتطاعت أن تثبـت، بعـد دراسـة متعمقـة وشـاملة، أنـه رئيـس منظمـة أيلـول الأسـود في إيطاليـا.

❋ ❋ ❋

تـم اختيـار سـيلفيا رفائيـل لتكـون ضمـن المشـاركات في العمليـة، تحت قيـادة مـشرف جديـد اسـمه «ديفيـد».

لم يمـض شـهرٌ عـلى الحـادث حتـى كانـت سـيلفيا تتلقـى الاتصـال الـذي

كانت تتلهف له منذ مدة، فبعد أمسيةٍ قضتها في تصوير أحد أعظم مغنيي فرنسا «إيف مونتان» أثناء أدائه أمام حشدٍ متحمسٍ ضم الآلاف، قبل أن تهرع إلى مكاتب وكالة دالماس وتسلمهم أفلام التصوير، وتعود بعدها للمنزل، إذ رنّ الهاتف فجأة بعد منتصف الليل. كان المتصل هو ديفيد.

قال لها بالإنجليزية: «يؤسفني أن أبلغك بأن أختك قد تعرضت لحادث. وضعها خطير... ربما نذهب لزيارتها غدًا».

وصلتها شفرة الرسالة، وفي صباح اليوم التالي التقت بديفيد، ثم في المساء استقلت القطار الليلي إلى روما. وخلال الرحلة الطويلة لم تغمض لها عين.

في محطة القطار، كان ينتظرها محاربٌ من شعبة قيسارية لم تكن تعرفه سابقًا، لكنها تعرفت عليه من خلال العلامة المميزة التي كشفها لها ديفيد – ربطة عنق زرقاء طبعت عليها نجومٌ بيضاء. سلمها المحارب حقيبةً مزودة بكاميرا خفية. وبعد أن أودعت أمتعتها في الفندق، الذي حجزت لها فيه غرفة باسم باتريشيا روكسبرغ، قادها المحارب داني (اسم مستعار) إلى أحد أكثر الشوارع أناقة في العاصمة الإيطالية، ثم أشار إلى أحد المباني، وقال: «هذه هي السفارة الليبية، يوجد هناك شخصٌ اسمه عادل زعيتر».

قام داني بإعطاء سيلفيا وصفًا مفصلا عن زعيتر. ومن خلال كلام

داني والملف الذي قدمه لها، علمت أن عادل زعيتر يجسد في شخصيته ذروة دهاء منظمة أيلول الأسود. فمن الناحية النظرية، كان فلسطينيا نحيلا وخجولا، متواضعًا، نباتيًّا، لطيف الكلام، ويكره جميع أنواع العنف. ولد في نابلس وتخرج من جامعات دمشق وبغداد، بعد أن درس الفلسفة والأدب العربي الكلاسيكي، وكان عازبًا يبلغ من العمر 38 عامًا وينحدر من عائلة من المثقفين والمعلمين. كان والده محمد مشهورًا بفضل كتب التاريخ التي ألّفها، وترجماته الممتازة لكتب فولتير وروسو الفرنسيين. كما أن عمته فايزة كانت من المفكرين العظماء في نابلس. أما عادل نفسه، فقد كان يعيش في روما منذ 14 عاما، وكان يعمل مثل والده في ترجمة الكتب والأشعار والمقالات من وإلى اللغة العربية، كما عمل مترجمًا فوريًّا في السفارة الليبية براتب ضئيل قدره 100 دينار ليبي. وقد عُرف عن زعيتر وسط الجالية العربية في روما بأنه شخصٌ مسالمٌ يكره كل أشكال العنف، بل كانت هناك شائعاتٌ أيضًا بأنه حاول سابقًا أن يعرض على الإسرائيليين إقامة دولة فلسطينية في الأردن والضفة الغربية.

لكن ما لم يكن يعرفه العامة، هو أن هذا الرجل ترأس مقر قيادة منظمة أيلول الأسود في روما. وفي ذلك الوقت، وبتوجيهات من زعيتر، قام شابان فلسطينيان بإغراء فتاتين بريطانيتين كانتا في رحلة في روما. ونجحا في إقناع الاثنتين بالسفر إلى إسرائيل، وتسليم هدايا لأقاربهم في الضفة الغربية. وكان من بين الهدايا جهاز فونوغراف (غرامافون). لم تكن الفتاتان تعرفان أن الهدية الجميلة كانت مليئةً بالمتفجرات وبمقياس

ارتفـاع معـد لتفجيرهـا بمجـرد وصـول الشـحنة إلى ارتفـاع معـين. أخـذت الاثنتـان الهدايـا وأقلعتـا عـلى متـن طائـرةٍ تابعـةٍ لشركـة إل عـال متوجهـة إلى إسرائيـل. وبالفعـل انفجـرت الشـحنة في كابينـة الشـحن التـي في بطـن الطائـرة، لكـن بعـد عـدة محـاولات سـابقة لتفجـير طائـرات تابعـة لشركـة إل عـال أثنـاء طيرانهـا، قـام أفـراد الأمـن بتبطـين كابينـة الشـحن بألـواح فولاذيـة، فلـم يصـب الانفجـار جسـم الطائـرة أو محركاتهـا. هكـذا هبطـت الطائـرة عـلى الفـور، وتـم العثـور عـلى الإنجليزيتـين، فيـما كان الفلسـطينيان قـد فـرّا مـن إيطاليـا منـذ زمـنٍ طويـل، إلا أن تتبـع الآثـار قـاد إلى عـادل زعيـتر. فقامـت الشرطـة باسـتجوابه وأفرجـت عنـه، إذ لم يكتشـف الإيطاليـون شـيئًا ضـده.

لكـن كان هنـاك آخـرون قـد اكتشـفوا. ففـي ذلـك اليـوم مـن شـهر أكتوبر/ تشريـن الأول، عندمـا خـرج مـن بـاب السـفارة الليبيـة، لم يلاحـظ زعيـتر وجـود زوجـين جالسـين في سيارة أمـام السـفارة، ولا الطريقـة الغريبـة التـي كانـت الشـابة تمسـك حقيبتهـا الكبـيرة بهـا. كـما لم يخمـن أن الحقيبـة مـزودة بكامـيرا، وأن باتريشـيا روكسـبرغ كانـت تقـوم هـذه المـرة بنـوع آخـر مـن التصويـر. وبـدلا مـن وكالـة دالمـاس، تـم إرسـال فيلـم الصـور إلى «بيـت هـدار دافنـا»، وهـو مبنًـى عـلى شـكل قلعـة في شـارع الملـك شـاؤول بتـل أبيـب، حيـث يقـع مقـر الموسـاد.

في ذلـك اليـوم والأيـام التاليـة، قامـت باتريشـيا وداني بتعقـب زعيـتر. وكشـف الاثنـان تدريجيًّـا تفاصيـل عمـل زعيـتر، وأسـماء وعناويـن أصدقائـه، وعنـوان شـقته المتواضعـة في ميـدان أنابليانـو. وفي غضـون ذلـك، وصـل

مـن إسرائيـل محاربـون قامـوا باسـتئجار سـيارات وشـقق للاختبـاء. وفي 16 أكتوبر/ تشريـن الأول، قامـت سـيلفيا وداني بتعقـب زعيـتر، الـذي غـادر السـفارة الليبيـة وتوجـه إلى منـزل صديقتـه جانيـت فـون بـراون. أعـدت المـرأة البالغـة مـن العمـر 50 عامًـا وجبـةً خفيفـة لهـم، وفي تمـام السـاعة 10:30 عـاد زعيـتر إلى منزلـه بعـد أن اشـترى مـن المتجـر المجـاور أقـراص خبـز، وزجاجـة نبيـذ، وتـين وصحيفـة. وكان زعيـتر يحمـل في جيبـه نسـخة مـن كتـاب «ألـف ليلـة وليلـة» الـذي ترجمـه بنفسـه إلى اللغـة الإيطاليـة.

مـر بجـواره زوجـان في منتصـف العمـر. كان هـذان محاربـا موسـاد يقومـان بالتأكـد للمـرة الأخـيرة أن هـذا هـو الرجـل المطلـوب بالفعـل.

وبجانـب المصعـد كان بانتظـار زعيـتر رجـلان غريبـان، أطلقـا عليـه 12 رصاصـة مـن مسـدسي بيرتـا 0.22.

وبعـد انقضـاء سـاعةٍ واحـدة، كانـت سـيلفيا تصعـد القطـار الليـلي متجهـة إلى باريـس.

* * *

في مطلـع ديسـمبر/ كانـون الأول عـام 1972م. رن جـرس الهاتـف في شـقة الدكتـور الهمـشري، المـؤرخ والمفكـر اليسـاري الـذي كان يعيـش في باريـس. رفـع الهمـشري السـماعة.

«باتريشيا روكسبرغ تتحدث، هل تذكرني؟»

«بالتأكيد»، كان الهمشري قد التقى باتريشيا روكسبرغ في افتتاح معرضها لصور جيبوتي. «كيف حالك؟ هل تعدّين لمعرضٍ جديد؟»

«بالطبع». أخبرته بحماس عن المعرض الجديد الذي كانت تعد له، ومعظمه للوحات، كما وصفت له رحلتها إلى الأردن والصور الرائعة التي جلبتها من هناك. وخلال المحادثة، قالت له: «أريد إجراء مقابلة معك».

«حول ماذا؟»

«حول عملك الأكاديمي ومواقفك السياسية».

أجابها بأنه سبق له أن أجرى مقابلة مع أسبوعية «جون أفريك» (أفريقيا الفتاة) التي تصدر في باريس. كان حذرًا ومتشككًا، ولم يكن يريد أن تتم مقابلته مرة أخرى في تلك الأيام، وخاصةً الآونة الأخيرة. فبعد اغتيال زعيتر في روما، بدأ باتخاذ الاحتياطات، والتأكد من عدم وجود من يتعقبه، مع ترشيد اللقاءات خارج المنزل.

أبدت باتريشيا ملاحظة: «مقابلتك في ‹جون أفريك› قد نشرت قبل عام». وواصلت الضغط عليه حتى اقتنع. فقاما بتحديد موعدٍ في غضون أيام قليلة في مقهًى اختاره بنفسه، ليس بعيدًا عن شقته في شارع الإليزيه 175.

أغلقت سيلفيا سماعة الهاتف. لقد كانت تعلم أن عليها لقاء

الهمـشري وإشـغاله لوقـتٍ طويـل. كـما أنهـا كانـت تعـرف أيضًـا حقيقـة ذلـك الفلسـطيني لطيـف السـلوك الـذي يرتـدي نظـارة طبيـة، والـذي كان يعيـش في باريـس منـذ أربـع سـنوات مـع زوجتـه الفرنسـية مـاري كلـود وابنتهـما الصغـيرة. وعلى الرغـم مـن أنـه كان الممثـل الرسـمي لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية في فرنسـا، إلا أن الجميـع كانـوا يعلمـون أنـه يعـارض العنـف. كـما قامـت أني فرانكـو، التـي أجـرت معـه مقابلـة لصالـح مجلـة «جـون أفريـك» قبـل عـام مـن ذلـك، بكتابـة كلام واضـح عنـه: «إنـه يهتـم بالعمـل الدبلوماسي والاجتماعـي فقـط. وهـو لا يتخـذ أي احتياطـات، نظـرًا لكونـه ليـس خطـيرًا، وهـذه الحقيقـة معروفـة جيـدًا لـدى أجهـزة الأمـن الإسرائيليـة».

بيـد أن الأجهـزة الأمنيـة الإسرائيليـة، وسـيلفيا رافائيـل، كانـوا يعرفـون العديـد مـن الحقائـق الأخـرى التـي لم تكـن أني فرانكـو تعرفهـا. لم تسـمع فرانكـو عـن الشـباب الفلسـطينيين الذيـن اعتـادوا على زيـارة شـقة الهمـشري في سـاعات مـا بعـد الظهـر، حاملـين معهـم حقائـب ثقيلـة – لم تكـن الخادمـة البرتغاليـة تغـادر المطبـخ خـلال تلـك السـاعات بنـاءً عـلى تعليـمات مـن رب العمـل. كـما لم تكـن فرانكـو تعلـم عـن تـورط الهمـشري في محاولـة اغتيـال ديفيـد بـن جوريـون خـلال زيارتـه للدنـمارك عـام 1969م. ولا حتـى عـن دوره في العمليـة التـي اسـتهدفت طائـرة «سـويسرا للطـيران»، والتـي كانـت متوجهـة إلى إسرائيـل عـام 1970م. حيـث انفجـرت الطائـرة في الجـو، مـا أسـفر عـن مقتـل جميـع الـركاب وأفـراد الطاقـم البالـغ عددهـم 47 شـخصًا. كان الهمـشري أحـد كبـار قـادة منظمـة أيلـول الأسـود في فرنسـا، وكان منزلـه

بمثابة مستودع للأسلحة وقاعدة عمليات لعناصر المنظمة الذين عملوا في أوروبا.

استمرت مقابلة الهمشري مع باتريشيا روكسبرغ لمدة ساعة تقريبًا. وقد قامت بتسجيل حديثه، كما التقطت له الصور عدة مرات. وفي ذلك الوقت، كان عدد من محاربي الموساد قد اتخذوا مواقع لهم على سلالم المنزل في شارع الإليزيه. حيث قاموا بتأمين اثنين من أصدقائهم قد تسللا إلى شقة الهمشري الفارغة وانحنيا على رف الهاتف في مكتبه.

في اليوم التالي، الثامن من ديسمبر/ كانون أول، غادرت ماري كلود همشري وابنتها الصغيرة في تمام الساعة الثامنة صباحًا. وبعد نصف ساعة، وصلت سيارةٌ مجهولة إلى المكان وتوقفت أمام المنزل. كان يجلس بداخلها رجلان اثنان. فيما دخل رجل ثالث إلى المقهى المجاور للمبنى السكني، وطلب القهوة والكروسان، ثم طلب الإذن باستخدام الهاتف الذي على الطاولة، واتصل برقم كان يحفظه عن ظهر قلب.

«مرحبًا؟» أجاب صوت رجل.

«هل يمكنني التحدث إلى الدكتور الهمشري؟»

«إنه يتحدث».

رفع المتصل يده اليسرى على الفور. وعلى الطرف الآخر من الشارع كان يراقبه الرجلان اللذان في السيارة من خلال نافذة المقهى.

ومـا إن شـاهدا الإشـارة المتفـق عليهـا، حتـى قـام أحدهمـا بالضغـط عـلى زر جهـاز التحكـم عـن بعـد الـذي كان يمسـكه. سـمع الهمـشري صفـيرا قويـا في السـماعة، وبعدهـا مبـاشرة وقـع انفجـار قـوي للعبـوة الناسـفة، التـي كانـت قـد زرعـت مسـبقًا تحـت رف الهاتـف.

تـوفي الهمـشري بعـد بضعـة أيـام في المستشـفى. وقبـل موتـه همـس لأصدقائـه: «إنـه الموسـاد. لا أحـد غيرهـم يمكنـه أن يفعـل ذلـك».

* * *

كانـت هـذه العمليـات الأولى مـن «غضـب الله». تبعتهـا سلسـلة مـن العمليـات، في قـبرص، ثـم في أثينـا، ثـم في قـبرص مـرة أخـرى، ثـم مـرة أخـرى في باريـس. وقـد لعبـت سـيلفيا دورًا رئيسًـا فيهـا. وواحـدًا تلـو الآخـر، تـم القضـاء عـلى نشـطاء منظمـة أيلـول الأسـود في أوروبـا.

إلا أن قـادة التنظيـم، ومنهـم عـلي حسـن سـلامة، لم يصابـوا بـأذى، ويعـود ذلـك إلى سـبب واحـد، وهـو: أنهـم أقامـوا في بـيروت، وكانـت بـيروت بعيـدة عـن متنـاول محـاربي الموسـاد.

فهل هذا صحيح؟

* * *

(14)

ياعيل: سيناريو سيدة إنجليزية مغامرة

نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1972م، لندن.

«ما الذي تبحثين عنه بالضبط؟» وجهت إيميلي جونز (اسم مستعار) سؤالها إلى إحدى المرشدات الرئيسات لمتحف «فيكتوريا وألبرت» في لندن. أمامها كانت تقف جينيفر هاريس (اسم مستعار)، وهي امرأة شابةٌ جميلةٌ ونحيلة، كانت قد زارت المتحف عدة مرات وتجولت في قاعاته كما لو أنها تبحث عن شيء ما.

أجابت الضيفة بلكنة أمريكية: «أنا مهتمةٌ بالعثور على قصة عن شخصية امرأة، ربما بريطانية، عملت سابقا في بلاد بعيدة. أي قصة لم تُرو أو غير معروفة كثيرًا...»

«من أجل ماذا، إذا جاز لي أن أسأل؟»

«أنا كاتبة. أنوي كتابة سيناريو عن شخصية مميزة، امرأة قوية تجولت في الشرق الأقصى، ربما في إفريقيا أو في الشرق الأوسط...»

فكـرت السـيدة جونـز: الـشرق الأوسـط؟ ربـما غيرتـرود بيـل، لكنهـا ألغـت الفكـرة عـلى الفـور. كانـت غيرتـرود بيـل، التـي حرثـت الـشرق الأوسـط في مطلـع القـرن العشريـن، تعتـبر مـن مؤسـسي العـراق الحديـث، وكان لهـا تأثـيرٌ سياسيٌّ كبير. لكنهـا كانـت بالفعـل موضوعًـا لعـددٍ لا يحصى مـن الكتـب والمقـالات والدراسـات والأفـلام الوثائقيـة. كـما كانـت هنـاك شـائعاتٌ في لنـدن عـن التوجـه لإنتـاج فيلـم في هوليـوود عـن حيـاة بيـل.

شـخصية أخرى؟ لمعت فكـرة في رأس جونـز. فقالت: «تعـالي»، وقادت جينيفـر عـبر عـدد مـن صـالات العـرض الممتلئـة بالـزوار، ثـم أدخلتهـا إلى جنـاحٍ لم يكـن مفتوحًـا للجمهـور. حيـث كانـت هنـاك بضـع غـرف، قـد تـم فيهـا تخزيـن قطـعٍ فنيـةٍ ومخطوطـات ووثائـق، وبشـكل أسـاسي تـركاتٍ لرجـال ونسـاء مـن التاريـخ البريطـاني. دخلـت كلاهمـا إلى غرفـةٍ مظلمـة، وقامـت إيميـلي جونـز بإشـعال الضـوء. فظهـر أمـام جينيفـر مبـاشرة حائـطٌ مـليءٌ بالكامـل بأعمـدةٍ طويلـةٍ مـن الأدراج. وكانـت هـذه الأدراج معلَّمـةً بشـكلٍ جيـد، وفقًـا للتواريـخ، والأسـماء والموضوعـات.

فتحـت إيميـلي جونـز عـدة أدراج، كان كلٌّ منهـا يحتـوي عـلى صناديـق بطاقـات، توضـح بالتفصيـل الممتلـكات الخاصـة لشـخصية مـن المـاضي – مذكـرات، رسـائل، وفي بعـض الأحيـان أيضًـا كتـب. وقـد ناولـت إيميـلي جينيفـر هاريـس عـدة بطاقـات، واحـدةً تلـو الأخـرى، لكـن الأخـيرة كانـت تعيدهـا بعـد أن تلقـي عليهـا لمحـةً سريعـة.

«ربما سيثير هذا اهتمامك»، قالت إيميلي جونز بعد مرور بعض الوقت، وهي تناولها بطاقة أخرى من أحد الأدراج. كانت تحمل اسم «الليدي هستر ستانهوب»[1]. ثم أخرجت من درج آخر، بعض الكتب القديمة، وملفًّا يحوي صفحاتٍ مصفرة كُتب عليها بخط يدٍ مائل.

بدأت جينيفر تقلب في الكتب. هناك ثلاثة مجلدات عن «ذكريات الليدي هستر ستانهوب، كما أخبر طبيبها الخاص الدكتور تشارلز لويس ماريون». وقد تم نشر الكتب عام 1845م. بدأت بالاطلاع على الكتب وحزمة الرسائل المصاحبة لها. وقد لاحظت إيميلي جونز الإثارة التي استحوذت على الشابة لدى ملامستها للصفحات المتداعية التي تفوح منها رائحة الورق القديم. كانت المواد تحكي عن قصة مذهلة لسيدة إنجليزية نبيلة، ابنة أخت رئيس الوزراء البريطاني ويليام بيت الأصغر، إذ هربت من منزلها ومن والدها المتسلط في أواخر القرن الثامن عشر، وأصبحت مديرة منزلٍ، وسكرتيرةً لرئيس الوزراء، وتورطت بعد موته في علاقة غرامية تحدثت عنها لندن بأسرها. ثم غادرت إنجلترا وأبحرت إلى الشرق الأوسط في مغامرةٍ رائعة، وأغوت عشاقًا جددًا، ووصلت إلى لبنان، فأحيطت بقاعدة معجبين من الدروز والبدو، حتى وفاتها.

(1) الليدي هستر ستانهوب (1776–1839): عميلةٌ بريطانيةٌ في جبل لبنان، عُرفت بمغامراتها وأسفارها في العالم العربي، وقد كان لها دورٌ رئيس في إضرام ثورة الدروز على حكم محمد علي.

برقت عينا جينيفر. هذه هي القصة التي كانت تبحث عنها – امرأة نبيلة، مؤامرات في لندن في القرن التاسع عشر، علاقات حبٍ مثيرةٌ للجدل. رحلاتٌ جريئةٌ في الأراضي البرية، والموت في قلعةٍ مظلمةٍ ومخيفةٍ في جبال الشوف.

طلبت من إيميلي جونز العودة إلى المتحف في اليوم التالي لمواصلة القراءة. فقبلت جونز عن طيب خاطر، وبدأت جينيفر بالظهور يوميًّا في متحف «فيكتوريا وألبيرت»، والغوص في قصة حياة الليدي هستر الرائعة.

قدمت إيميلي جونز المساعدة عن طيب خاطر، ولم يخطر ببالها على الإطلاق أن جينيفر هاريس لم تكن جينيفر هاريس، ولم تكن كاتبة ولا حتى كاتبة سيناريو – لكنها محاربة موساد لقبها «ياعيل»، وتستعد لمهمة سرية ستدهش العالم بأسره.

* * *

كان ياعيل هو الاسم المعتمد لشابة يهودية تدعى إلين شنايدر (اسم مستعار) مولودة في كندا، لكنها نشأت في مدينة برنستون الجامعية في ولاية نيو جيرسي بالولايات المتحدة الأمريكية. كان والدها من علماء الفيزياء الذين ابتعدوا عن اليهودية، فلم يتخذ أي موقفٍ تجاه إسرائيل. كانت إلين الصغيرة مستمتعة بالأخطاء المتكررة لساعي البريد المحلي، الذي كان يخلط بين اسم والدها واسم العالم العظيم ألبرت أينشتاين، الذي كان يعمل أيضًا في برنستون، حيث كان يبادل بين بريديهما.

كانت إلين الابنة الثالثة في عائلتها، «الأجمل، ولكنها ليست الأذكى»، كما اعتادت أن تقول. تخرجت من الكلية، وبناء على طلب والدها التحقت بمدرسة التمريض، لكنها بعد فترة انسحبت من الدراسة هناك وتحولت إلى مجال الكمبيوتر. وبعد التخرج حصلت على وظيفة ممتعةٍ بأجرٍ جيد في شركة في نيويورك. كما تزوجت من شابٍ يهودي يدعى واين، والذين كان من أشد المعجبين بإسرائيل، إذ حاول إقناعها بالتصهيُن دون أن يحقق نجاحًا في ذلك. وبغض النظر عن ذلك، فقد ساءت علاقتهما، ثم بعد خمس سنوات فشل زواجهما وتطلقت منه.

هكذا قررت إلين البحث عن اتجاهٍ جديدٍ لحياتها. كان لوالدها ابن عم بعيد، يدعى زبولون. جاء إلى أمريكا كممثل لشركة صناعات الطيران. وقد تحدث معها كثيرًا، فبدأت تفكر في السفر إلى إسرائيل لمدة سنة تقريبا من أجل تغيير الجو ولتتعلم اللغة العبرية. وخلال هذه الرحلة نشأ لديها تعاطفٌ عميق مع إسرائيل. فعند عودتها إلى الولايات المتحدة، وبمجرد أن اندلعت حرب الأيام الستة عام 1967م، بدأت بحزم أمتعتها من أجل العودة إلى إسرائيل. وقد اعترض والدها فيما التزمت والدتها الصمت، غير أن إلين تركت شقتها، وباعت أثاثها، و «حزمت حياتها في حقيبة صغيرة». كانت تبلغ من العمر وقتها 32 عامًا، وكانت مستعدةً لتبدأ حياةً جديدة.

في فلسطين المحتلة، حصلت إلين على وظيفةٍ في شركة كمبيوتر وعاشت في مبنًى سكني شاهق في هرتسليا. كما أنها اشترت سيارةً

رياضيــة مســتعملة مــن نــوع «فولفــو»، فــكان مظهــر تلــك المــرأة الشــابة الجميلــة في ســيارة فاخــرة، تتجــول في شــوارع تــل أبيــب، ملفتًــا للأنظــار. ومــع ذلــك، كانــت دائــرة معارفهــا صغــيرة ولم تتأقلــم في إســرائيــل. شــعرت أن إســرائيــل لم تكــن أرض الســلام التــي حلمــت بهــا، فبــدأت تفكــر في العــودة إلى الــولايــات المتحــدة، لكــن خــلال حــرب الاســتنزاف التــي أخــذت تــزداد شــدتها، اجتاحتهــا مشــاعر وطنيــةٌ عميقــةٌ لم تشــعر بهــا ســابقًا، فقــررت البقــاء.

لكنهــا لم تكــن تعــرف اللغــة العبريــة. شــكل هــذا الأمــر عقبــةً رئيســةً في محاولتهــا الانــدمــاج في المجتمــع. التحقــت بمعهــد تعليــم اللغــة العبريــة، غــير أنهــا لم تتعلــم اللغــة، لكنهــا التقــت في المعهــد بأحــد الموظفــين، يدعــى يــان، فأقامــت معــه علاقــة وثيقــة. وقــد أخبرهــا يــان بأنــه يعمــل بــدوامٍ جزئــي في وحــدة تأمــين كبــار الشــخصيات وأنــه مرتبــط بالموســاد، في البدايــة لم تصدقــه، وظنــت أنــه يريــد التباهــي أمامهــا. لقــد كان عــالم التجســس والعمليــات السريــة بعيــدًا عنهــا ولم تهتــم بــه قبــل ذلــك. ولكنهــا فجــأة، عقــب قصــص يــان، شــعرت بــ: «رغبــة لا توصــف في الانضــمام إلى الموســاد. شــعرت وأننــي كنــت أنتظــر هــذه اللحظــة طــوال حيــاتي». هــي لم تكــن تحــب أفــلام التجســس، وعندمــا كانــت تشــاهد أفلامًــا مــن هــذا القبيــل، كانــت دائــما مــا تشــعر أن كونــك جاســوسًــا هــو أمــرٌ مخيــفٌ للغايــة. ومــع ذلــك، طلبــت مــن يــان أن يربطهــا بالموســاد.

وبعــد بضعــة أســابيع، وفي أوائــل عــام 1971م، رن جــرس الهاتــف. كان

صوتًا غير مألوف، سألها: «هل أنت إلين؟ أتريدين أن تفعلي شيئًا من أجل إسرائيل؟»

أجابت: «نعم».

وهكذا، بكلمةٍ واحدةٍ قصيرة، تغيرت حياتها بالكامل.

❋ ❋ ❋

تمت دعوتها إلى مقهى «ستيرن» في تل أبيب، حيث التقت باثنين من أفراد الموساد، «شلومو» و «إيتان». وحاولت أن تثير إعجابهما بمظهرها الأنيق وسيارتها الرياضية. لكن الاجتماع لم يكن ناجحًا بالنسبة لها، ناهيك عن أنها في نهايته نسيت المكان الذي أوقفت فيه سيارتها، واضطرت للاستعانة بمساعدة موظفي الموساد الاثنين للبحث عنها. هي لم تكن على علم بالتقرير الذي كتبه شلومو في 21 يناير/ كانون الثاني عام 1971م، وقدمه إلى مايك هراري قائد قيسارية، الوحدة العملياتية للموساد: «امرأة تختار ملابسها بعناية، وفقا لآخر صيحات الموضة، ليست جميلة بشكل خاص لكنها تمتلك أنوثةً ورشاقة، وصاحبة أملاك. أنا حائر. في ظاهر الأمر لديها كل ما نبحث عنه، لكن شيئًا ما في سذاجتها، يجعلني أشعر بعدم الأمان. شيءٌ من قبيل ‹إنه جيدٌ أكثر من أن يكون حقيقيًّا›. الرجاء استدعاؤها».

اجتمعت إلين مع هراري في مقر الموساد القديم، في مبنى المكاتب الضخم «هدار دافنا» بتل أبيب. كان ذلك عصر يوم سبت وكان المبنى

فارغًـا تقريبًـا. هنـاك، دار حـوارٌ طويـلٌ وأسـئلة متعـددة طرحهـا هـراري، أجابـت عليهـا إلـين بصـدق، فأخبرتـه عـن طفولتهـا في أسرة يهوديـة مندمجـة وعـن زواجهـا الفاشـل وأسـباب قدومهـا إلى إسرائيـل. قـام مايـك باسـتجوابها، وسـألها: «لمـاذا سـافرت إلى إسرائيـل وليـس إلى فرنسـا عـلى سـبيل المثـال؟ كيـف كان رد فعـل والديـك؟ مـاذا قـال أصدقـاؤك؟ مـاذا حـدث لحلمـك عندمـا وصلـت إلى إسرائيـل؟»

اعترفـت: «كاد الحلـم أن ينهـار». قالـت له بوضـوح أنها فكـرت بالفعل في العـودة إلى أمريـكا، لكـن حـرب الأيـام السـتة ومـا تلاهـا قـد أثـر عـلى قرارهـا. ظـل مايـك صامتًـا لفـترة. كان لديـه انطبـاع بـأن إلـين امـرأة بريئـةٌ وسـاذجة. وتسـاءل عـما إذا كانـت أنوثـة إلـين ورقتهـا وجمالها هـي جـزءٌ مـن مزاياهـا أم مـن عيوبهـا. في نهايـة المحادثـة، غـادرت الغرفـة بمشـاعر متناقضـة. لقـد ظنـت بـأن مبادرتهـا ربـما لـن تنجـح. لكـن بعـد حـوالي شـهر، تـم اسـتدعاؤها لمقابلـة تسـفي زامـير شـخصيًّا. كان رئيـس الموسـاد أيضًـا مـترددًا إلى حـدٍ مـا بشـأن قـدرة إلـين عـلى تحمـل ضغـط النشـاط السري، لكنـه في نهايـة المطـاف قَبِـل توصيـة مايـك وأمـر بتجنيدهـا.

هكذا تحولت إلين إلى «ياعيل».

بعـد أربعـة أشـهر، تـم اسـتدعاؤها إلى دورة تدريبـة للموسـاد. قالـت في وقـت لاحـق: «أطلقـوا عـلى هـذا الفصـل اسـم دورة، برغـم أني كنـت المتدربـة الوحيـدة فيـه». وقـد حـضر العديـد مـن المسـؤولين في الموسـاد إلى الغرفـة التـي

عقدت فيها «الدورة»، حيث ألقوا عليها محاضرات وإحاطات، وقاموا بتعليمها القواعد الأساسية للنشاط السري، كما أخضعوها لتدريباتٍ بدنية. كما تعلمت التصوير في السر، وقراءة الخريطة، والتمييز بين مختلف أنواع الدبابات والمدافع والطائرات. وقد تم إحضارها إلى المرافق الخاصة بالموساد، حيث تعلمت الرماية بالمسدس. وقام مدربون بإخضاعها لتدريبات مراقبة وتعقب في شوارع المدينة. كما تضمنت بعض التدريبات التنكر بهويةٍ مزيفة. حيث تم تكليفها ذات مرة بانتحال شخصية مندوبة لمصنع معاطف، والاجتماع مع أشخاص يعملون في تصنيع وتسويق الملابس، وإقناعهم أنها بالفعل زميلةٌ لهم في المهنة. وفي مرة أخرى، ظهرت لدى رجل أعمال كناشطة اجتماعية وأقنعته بالتبرع من منتجاته لصالح جمعيةٍ لدعم المحتاجين.

خلال الدورة، أجرى لها المدربون أيضًا اختباراتٍ غير متوقعة. وكان أحد أصعب الاختبارات التي مرت بها، عندما تم إرسالها لتصوير موقعٍ سريّ في القدس. حيث ظهرت فجأة في المكان سيارات شرطة، وتم اعتقالها واقتيادها إلى مركز الشرطة للتحقيق. صرخ المحققون في وجهها: «من أنت؟ لماذا قمت بالتقاط الصور؟ من الذي أرسلك؟ تحدثي باللغة العبرية، نحن نعلم أنك تتحدثين العبرية!» لقد كانت مرتبكة في إجاباتها، ولكنها لم تنهار أو تعترف. ولم تكشف للمحققين من الذي أرسلها في مهمة التصوير. ومع ذلك، كان أكثر ما عانت منه هو الشعور بالفشل. أين فشلت؟ أين أخطأت؟ ما الذي فعلته وأدّى إلى إلقاء القبض عليها؟

لقـد أصابهـا الخجـل مـن فكـرة أنهـا خيبـت أمـل مدربهـا، وأنهـا سـتضطر لإبلاغـه بفشـلها.

لم تتوقـف التحقيقـات حتـى الصبـاح، ثـم عنـد مغادرتهـا مركـز الشرطـة، فوجئـت بمقابلـة مدربيهـا في الموسـاد. فكشـفوا لهـا أن كل شيء كان مدبـرًا - تصويـر المنشـأة السريـة، والاعتقـال، و «عنـاصر الشرطـة» الذيـن كانـوا أفـراد موسـاد شـاركوا في التمريـن، وكذلـك الاسـتجواب نفسـه. لقـد أرادوا اختبـار قدرتهـا عـلى تحمـل الضغـط والاسـتجواب. وقـد نجحـت بالفعـل في التمريـن، لكنهـا تعلمـت منـه درسًـا مهـما - ليـس كل مـا نـراه حقيقيًّـا. قـد تكـون هنـاك حقيقـة أخـرى وراءه.

خـلال الـدورة التدريبيـة، والتـي اسـتمرت لأشـهر، لم يكـن لديهـا حيـاةٌ خاصـة. وقـد تمكنـت مـن حـينٍ لآخـر مـن العـودة لشـقتها، للنـوم لبضـع سـاعات. كانـت تمـر بالجـيران في بهـو المبنـى وتفكـر في الفـرق بينهـا وبينهـم. قالـت لنفسـها: إنهـم لا يسـتطيعون تخيـل مـاذا يحـدث لهـا. ثـم في أحـد الأيـام، وعندمـا نزلـت إلى موقـف السـيارات تحـت الأرضي، رأت شـابًّا وسـيمًا يرتـدي لبـاس مظـليّ. تبـادلا نظـرات طويلـة. وقـد أثـار إعجابهـا. وفي صبـاح اليـوم التـالي، صادفـا بعضهـما البعـض مـرة أخـرى، وتبـادلا الابتسـامات وتحيـة الصبـاح «صبـاح الخـير». فكـرت في نفسـها: واو، هـل يعيـش في مبنـاي؟ ثـم، لثانيـة واحـدة، مـرت بهـا نسـمة مـا مـن بعيـد، وشـعرت بالرغبـة في أن تعيـش حيـاة أخـرى، مثـل أي شـابةٍ في عمرهـا. لثانيـة واحـدة فقـط - ثـم عـادت إلى رشـدها.

أتمت الدورة التدريبية، ولم تعرف، بطبيعة الحال، ما هي الاستنتاجات التي توصل إليها مدربوها في التقرير الذي أعدوه بعد نهاية التدريبات: «لديها إدراكٌ جيد للمادة النظرية، ونهجٌ جادٌ ومباشرٌ وصادقٌ للغاية في التقارير، حتى فيما يتعلق بالحالات التي فشلت فيها... إنها شجاعةٌ وجريئة، ولديها دافعٌ قويٌّ جدًّا للوظيفة». ومع ذلك، ذكر في التقرير: «... لا يزال هناك نقصٌ في ثقة. كما أن إصرارها على اتباع التعليمات برغم الصعوبات والضغوط هو أمرٌ بالغ الخطورة، وبالتالي فإن هناك قلقًا من أن ذلك الإصرار قد يدفعها إلى القيام بواجبها، وتجاهل الأخطار التي تنطوي على ذلك». والتوصية: «لا ينصح بتكليفها بالأدوار التي تتطلب العرض والإقناع. ستكون أفضل كمعاونة محارب». وبمعنى آخر، لقد كلفوها بدورٍ ثانويٍ في العمليات.

تم تقديم هذا التقرير إلى مايك هراري، لكنه في ضوء لقاءاته مع ياعيل، فكر وشعر بشكلٍ مختلف، ورفض توصيات التقرير. وكان ردُّه: «لديها أكثر مما تستطيعون تمييزه في دورة تدريبية»، وأمر بأن تصبح محاربةً في قيسارية.

* * *

في مايو/ أيار عام 1972م، تم إرسال ياعيل البالغة من العمر 36 عامًا إلى بروكسل، عاصمة بلجيكا، لتبني لنفسها قصة غطاء. كانت بروكسل قد أصبحت القاعدة الأمامية للموساد، بعد أن أجبرت سياسات الرئيس

ديغـول عـلى تصفيـة قاعدتهـا في باريـس. وتحـت اسـم مسـتعار، اسـتأجرت ياعيـل شـقةً وفتحـت حسـابًا مصرفيًّـا ووجـدت وظيفـة في شركـة كمبيوتـر وبنـت لنفسـها هويـةً جديـدة، كأمريكيـة جـاءت للعيـش في أوروبـا، واندمجت في روتـين حيـاة البلجيكيـين مـن حولهـا. انقطعـت علاقتهـا بالموسـاد تقريبًـا، باسـتثناء اتصالهـا الخفـي مـع المشرف عليهـا «شـاؤول». وقـد قامـت بمهـام ثانويـة في أوروبـا، وجـولات استكشـافية، وتسـليم بريـد ومراقبـة. وعـلى الرغـم مـن انتهـاء دورتهـا التدريبيـة، فقـد شـاركت في العديـد مـن المهـمات التدريبيـة، أولا في أوروبـا، ولاحقـا في البلـدان المسـتهدفة. وإحـدى رحلاتهـا الأولى كانـت إلى مـصر، حيـث اسـتمتعت بركـوب حصـان رمـادي إلى الأهرامـات. إذ كانـت قـد عملـت تحـت غطـاء باحثـة، تركـز عـلى الوثائـق والنقـوش التـي تتحـدث عـن حيـاة النسـاء في مـصر القديمـة.

أثنـاء زيارتهـا لإسرائيـل، وجـدت رسـالة في صنـدوق بريدهـا مـن أحـد الجـيران الـذي رأى أشـخاصا غربـاء يدخلـون شـقتها وأراد تحذيرهـا. (كانـت الحقيقـة أن «الغربـاء» هـم عنـاصر موسـاد أتـوا للتأكـد مـن أن كل شيء في الشـقة كان سـليمًا). كانـت الرسـالة موقعـة مـن قبـل «مايـكل (الطويـل ذي الـزي العسـكري)». لقـد تذكرتـه، المظلي الوسـيم الـذي التقـت بـه في موقـف السيارات، وفكـرت فيـه مـرة أخـرى، لكنهـا في نهايـة المطـاف اكتفـت بكتابـة رسـالة باللغـة الإنجليزيـة تركتهـا في صنـدوق بريـده. «كل شيء على مـا يـرام، شـكرا لـك. ياعيـل». وهكـذا، قلبـت الصفحـة مـرة أخـرى.

بعـد ثلاثـة أشـهر، علمـت أنهـا سـيتم إرسـالها لأول مـرة في مهمـة حقيقيةٍ

إلى بلـد مسـتهدف: جولـةٌ اسـتطلاعيةٌ في لبنـان إلى جانـب محـارب يدعـى «إفياتـار»، سيلتقي بها كـما لـو كان بالصدفـة، في مسبح الفنـدق في بـيروت، حيـث سـيقيم كلاهمـا.

هبطـت في بـيروت، التـي كانـت في ذلـك اليـوم مختلفـة كثـيرًا عـن بـيروت التـي عرفتهـا شـولا كوهـين. فقـد أصبحـت بـيروت معقـلا للتنظيـمات الفلسـطينية التـي سيطرت عـلى مناطـق واسـعةً مـن المدينـة، وحملـت السـلاح علانيـة، وأقامـت في المدينـة مقـرات ومسـتودعات أسـلحة ومعسـكرات تدريـب ووحـدات شرطـة وأمـن.

تـم إنشـاء مقـر قيادتهـم في بـيروت. كـما أن سلسـلة مـن التنظيـمات الأصغـر كانـت قـد أقامـت قواعدهـا في بـيروت. ومـع ذلـك، فـإن بـيروت الشرقيـة، التـي كانـت ذات غالبيـةٍ مسـيحية. كانـت مدينـةً دوليـةً نابضـةً بالحيـاة، تعـج بالمتاجـر الفاخـرة والنـوادي الليليـة وصـالات الديسـكو ومكاتـب الـشركات التجاريـة والبنـوك، وقـد أطلـق عليهـا الكثـيرون لقـب «سـويسرا الـشرق الأوسـط».

تلقـت ياعيـل إحاطـةً دقيقـةً عـن بـيروت وتوجهـت إلى هنـاك عـلى متـن رحلـةٍ جويـة. لكـن في بعـض الأحيـان يحـدث مـا هـو غـير متوقـع. فقـد جلـس إلى جانبهـا في الطائـرة رجـل فرنسـي، يدعـى جـان، وصـادف أيضًـا أنـه حجـز غرفـة في نفـس الفنـدق. حيـث جـاء لإبـرام صفقـة في بـيروت، لكنـه التصـق بياعيـل وبـدأ يتـودد إليهـا بقـوة. ولم تتمكـن مـن التخلـص منـه إلا بعـد يومـين،

عندمـا أخبرتـه أن لديهـا صديقًـا ينتظـر عودتهـا. وفي اليـوم الثالـث عـاد جـان المحبـط إلى فرنسـا أمـا هـي فنزلـت إلى المسـبح، حيـث التقـت مصادفـةً بسـائح آخـر لم يكـن إلا إفياتـار. لقـد قامـا سـويةً بجـولات استطلاعية ناجحـة في لبنـان، والتقطـا صـورًا لمواقـع ومنشـآت، وبعـد إتمـام مهمتهـما عـادا إلى ديارهمـا بسـلام.

كانـت جولـة ياعيـل مـع إفياتـار في المناظـر الطبيعيـة الخلابـة للبنـان مجـرد مقدمـة لمـا كان ينتظرهـا. فقـد سـبق وتحـدث إليهـا المـشرف عليهـا شـاؤول منـذ زمـن عـن مهمـة يتـم بلورتهـا، وسـيتم تكليفهـا بهـا: سـيتعين عليهـا المغـادرة إلى لبنـان لفـترة طويلـة في إطـار عمليـة مـن أجـل «التعامـل مـع البنـى التحتيـة». هـي لم تكـن تعـرف مـا معنـى ذلـك، كـما أنهـا لم تطـرح أسـئلةً أيضًـا. ورغـم ذلـك، أوضـح لهـا شـاؤول أنهـا في إطـار مهمتهـا لـن تتمكـن مـن الإقامـة في الفنـدق، وإنـما سـيتعين عليهـا اسـتئجار شـقةٍ في بـيروت. كـما أنهـا سـتحتاج إلى قصـة غطـاء تـبرر إقامتهـا الطويلـة في العاصمـة اللبنانيـة. وبعـد العديـد مـن النقاشـات، تبلـورت القصـة: سـتأتي إلى بـيروت تحـت سـتار مؤلفـةٍ وكاتبـة سـيناريو، تقـوم بكتابـة سـيناريو لمسلسـل تلفزيـوني أو فلـم سـيتم تصويـر جزئـه الأكـبر في لبنـان. كانـت الخطـة جميلـة، لكـن الكتابـة الإبداعيـة لم تكـن واحـدةً مـن مميـزات ياعيـل. كانـت تحـب القـراءة، لكنهـا لم تكـن تكتـب. فكـرت قليـلا. قـد لا تكـون كاتبـةً مهـما حاولـت، لكـن يمكنهـا أن تتعلـم كيـف تتـصرف عـلى هـذا النحـو... هكـذا طـارت إلى إسرائيـل، مـن أجـل «أن تتعلـم كيـف تبـدو ككاتبـة».

أحضرها مايك هراري إلى منزل صديقه، الكاتب شبتاي تيبت، الذي أراها غرفة مكتبه. وقد ذهبت إلى هناك لحضور «دورة مكثفة» لتستوعب فيها الجو العام: منظر طاولة الكتابة الكبيرة، والمستندات والنشرات والمذكرات والكتب المبعثرة عليها، أكوام الأوراق المطبوعة والصفحات الفارغة، المسوَّدات في الأدراج، وبالطبع الآلة الكاتبة التي كانت تحتل وسط المكتب. ثم عادت إلى أوروبا متسلحةً بكل هذه المعلومات. لقد أصبحت تعرف الآن بالضبط كيف ستبدو طاولة الكتابة الخاصة بها في بيروت.

بدأت «كاتبة السيناريو» الجديدة في البحث عن موضوع السيناريو الذي من المفترض أنها ستكتبه في بيروت. وقد قادها بحثها إلى متحف «فيكتوريا وألبرت» في لندن، حيث تعرفت على الليدي هستر ستانهوب، ووقعت في حبها.

❋ ❋ ❋

في لندن، أمضت ياعيل ساعات وأيام في قراءة الكتب وخاصة رسائل الليدي هستر. لم تكن الليدي سيدةً جميلة، ولكنها كانت طويلة القامة. ذات جبهةٍ عريضة وعينان زرقاوان وأنف منحن، السمة المميزة لعائلتها «بيت». وقد اكتشفت ياعيل فيها امرأة أصيلة حادة اللسان، مدركة لمكانتها في المجتمع، تمردت على والدها الذي تأثر بالثورة الفرنسية وأطلق على نفسه اسم «المواطن ستانهوب»، بل وأجبرها على

ارتـداء فستانٍ مـن القماش الخشـن، مثـل زوجـات الفلاحـين، وتربيـة الديـوك الروميـة في فنـاء القـصر. فهربـت مـن منـزل والدها إلى منزل جدتها (كونتيسـة تشـاتام) ثـم وصلـت أخـيرًا إلى القمـة كمديـرة لمنـزل خالهـا غـير المتـزوج، رئيـس الـوزراء بيـت «الأصغـر». وبعـد وفاتـه، حصلـت عـلى راتـب قـدره 1200 جنيـه اسـترليني في السـنة، وهـو مـا لم يتناسـب مـع أسـلوب حياتهـا. في تلـك الأيـام كانـت نسـاء النبـلاء يـسرن في شـوارع لنـدن وخادماتهـن إلى جانبهـن. أمـا هسـتر فلـم تسـتطع الاحتفـاظ بخادمـة، واشـتكت مـن أن «البغايـا فقـط هـن مـن يـسرن في شـوارع لنـدن وحدهـن». لم يكـن لديهـا صديقـات وقـد أصبحـت العلاقـة الغراميـة التـي أقامتهـا مـع رجـل متـزوج حديـث المملكـة بأسرهـا، ولكنهـا لم تهتـم. ثـم غـادرت إنجلـترا.

في رحلتهـا عـبر البحـر الأبيـض المتوسـط تحطمـت فيهـا سـفينتها، فنزلـت في مـصر برفقـة حاشـية تألفـت مـن طبيـب ومسـاعدة مخلصـة وحبيـبٍ جديـد يدعـى «مايـكل بـروس». وقـد غرقـت فسـاتينها مـع السـفينة، لـذا قـررت ارتـداء ملابـس رجـل تركـي – بنطلـون سروال عريـض وصدريـة مطـرزة وطربـوش. ثـم ركبـت مـع حاشـيتها إلى دمشـق، وتجـرأت عـلى الدخـول إلى هنـاك بوجـه مكشـوف، بـلا حجـاب. وبـدلا مـن رجمهـا بالحجـارة، كـما تنبـأ المقربـون منهـا، اسـتقبلها العامـة بالتصفيـق.

منعزلـةً في الغرفـة الصغـيرة في متحـف «فيكتوريـا وألـبرت»، قـرأت ياعيـل بشـغفٍ قصـة رحلـة الليـدي سـتانهوب إلى تدمـر، تلـك المدينـة في قلـب الصحـراء التـي لم تجـرؤ أي امـرأة غربيـة عـلى الحلـم بالوصـول إليهـا. لكـن

الليـدي هسـتر انطلقـت في طريقهـا، وأقنعـت الأعـراب الذيـن التقـت بهـم في الصحـراء بالانضمام إليهـا، ودخلـت تدمر عـلى رأس قافلـة مؤلفـة مـن 22 جمـلا و70 حارسًـا بدويًّـا يحملـون رماحًـا يرفـرف عـلى أطرافهـا ريـش نعـام. فاسـتقبلتها المدينـة بحفـاوةٍ شـديدة، وتوجـت هنـاك «ملكـة الصحـراء».

بعـد انفصـال عشـيقها عنهـا، وعودتـه لبريطانيـا، اسـتقرت هسـتر في لبنان حيـث شـيدت لنفسـها قـصرًا يشـبه القلعـة فـوق ديـر مهجـور في قرية جـون، وعُـرف قصرهـا بـين الأهـالي باسـم «دار السـت». اتخـذت زي النسـاء المحـلي فلبسـت عمامـةً ومداسًـا بـرأس منعكـف، وصـارت تدخن النارجيلة وتحمل السـوط والخنجر، وشرعـت تدرس اللغـة العربيـة، وولعـت بعلـم النجـوم والخيميـاء. أحاطـت نفسـها بحـرس من الألبان وحاشـية من الزنـوج، وفرضـت عليهـم أن يسـلكوا معهـا حسـب قواعـد التشريفـات الملكيـة. كما اسـتطاعت أن تكـون ذات نفـوذٍ وسـلطة كبـيرةٍ جـدًّا بـين سـكان المناطـق المجـاورة، ولا سـيما الدروز منهم، فكانـوا يحترمونهـا ويطيعـون أمرهـا إلى درجـة تبعـث عـلى الدهشـة. كان لهسـتر جواسيس يعملـون في المـدن الشـامية الكبـيرة، وكانـت مراسـلاتها ومؤامراتهـا مـع الشـيوخ والباشـوات متصلـة، وكانـت لهـا يـد في إثـارة الـدروز عـلى الحكـم المـصري.

انتهـت القصـة بالمـوت المأسـاوي لليـدي هسـتر، مفلسـةً وبائسـةً ومهملـةً في القلعـة الواقعـة في قريـة جـون بجبـال الشـوف، بعدمـا فشـلت حملتهـا في البحـث عـن الكنـوز المدفونـة في عسـقلان.

حـان الوقـت الآن للخطـوة التاليـة. قـام شـاؤول المشرف عـلى ياعيـل، بتأمـين لقـاء لهـا في المكتـب الفاخـر لمنتِـجٍ إنجليـزي في لنـدن. وبشـغف وقـدرة رائعـة عـلى سرد القصـص، وصفـت ياعيـل شـخصية الليـدي هسـتر كموضـوعٍ لمسلسـل تلفزيـوني. وقـد اسـتحوذت عـلى المنتـج بحماسـها، وقدمـت لـه ملخصًـا عـن المسلسـل، وفي نهايـة المطـاف وقعـت عقـدًا معـه، بـل وحصلـت عـلى دفعـة أولى! ثـم قامـت بصياغـة مسـوَّدة سـيناريو مـن 13 حلقـة لمسلسـل أطلقـت عليـه اسـم «ملكـة الصحـراء»، وقـد تأثـرت كثـيرًا بالفكـرة والثنـاء الـذي حصـل عليـه ملخصهـا، لدرجـة أنهـا بـدأت تأسـف لكـون قصـة الكتابـة هـي مجـرد قصـة غطـاء وواقـعٍ مزيـف.

غـير أنـه كان عليهـا أن تعـود إلى الواقـع. حيـث مهـد السـيناريو طريقهـا إلى لبنـان. فطـارت إلى إسرائيـل مـرة أخـرى. وقبـل مغادرتهـا إلى لبنـان، قيـل لهـا أن اسـمها الرمـزي في هـذه المهمـة سـيكون «نيلسـن». وقـد قـام ضابـط الاسـتخبارات في قيسـارية رومـي بـن بـورات بتجهيزهـا لجمـع تفاصيـل عـن ثلاثـة أشـخاص كانـوا «العقـل المدبـر للعمليـات الفلسـطينية» – كـمال عـدوان المسـؤول عـن العمليـات في فلسـطين المحتلـة، وكـمال نـاصر رئيـس الدائـرة السياسـية في حركـة فتـح، وأبـو يوسـف النجـار قائـد منظمـة أيلـول الأسـود. كان ثلاثتهـم يعيشـون في مبنيـين سـكنيين مزدوجـين في شـارع فـردان ببـيروت. وكانـت المهمـة الموكلـة إلى ياعيـل هـي اسـتئجار شـقةٍ قريبـةٍ قـدر الإمـكان مـن تلـك المبـاني السـكنية، ومراقبـة روتـين حيـاة الفلسـطينيين الثلاثـة وتحركاتهـم والإبـلاغ عنهـا.

قبل الشروع في مهمتها، أمضت عدة أسابيع في نقاشاتٍ حثيثة مع شاؤول حول أدق التفاصيل للمهمة - قنوات الاتصال السرية، وتوجيهات لسلوكها في حالات كشفها وأسرها واستجوابها. كما قاموا أيضًا بإعداد ملف ضخم حول الليدي ستانهوب، تضمن مراسلات مع المنتج اللندني وملخصات حلقات وكتبًا ورسومًا توضيحية تتعلق بالسيدة المغامرة.

جاء مايك هراري أيضًا لمقابلتها. «تحدث إليّ مايك عن ضرورة قيامي بجمع معلومات محدثة ليلا ونهارًا عن 'الأشياء' الثلاثة كما أطلقنا عليهم، وعن قنوات الاتصال المستمرة... وقد أطلنا العمل في قسم 'حالات وردود فعل'، حيث ركزنا على كيفية الرد على أي حدث - متوقع وغير متوقع». وقال لها مايك: «ياعيل، سينتهي بك المطاف هناك بمفردك مع المعرفة والخبرة التي اكتسبتها ومع ما أنت عليه. ضعي كل ذلك معًا وتعاملي مع الأمور بطريقتك. أنا أثق بك».

غادرت ياعيل إلى بيروت، وبعد بضعة أيام من الإقامة في فندق «بريستول» تجولت سيرًا على الأقدام في شارع فردان. وقد كانت محظوظةً جدًّا، إذ وجدت بناء سكنيًّا جميلا كان يقع مقابل منازل المناضلين، على الجانب الآخر من الشارع مباشرة. كان مالك المنزل يدعى فؤاد، رجلٌ طيب الخلق، تحدث إليها بلغةٍ إنجليزية بسيطة. وقد كان يعيش في المبنى، إلى جانب شقيقاته. قال لها إن لديه شقة للإيجار في الطابق الرابع. فقامت ياعيل بزيارة الشقة. وكانت بالضبط ما تبحث عنه. حيث كانت نافذة

غرفـة الضيـوف توفـر إطلالـةً ممتـازةً عـلى نوافـذ وشرفـات القـادة الثلاثـة: شـقة كـمال عـدوان في الطابـق الثـاني وشـقة كـمال نـاصر في الطابـق الثالـث مـن أحـد المبـاني، وشـقة أبـو يوسـف في الطابـق السـادس مـن المبنـى الآخـر. فقامـت باسـتئجار الشـقة.

كان عليهـا الآن أن تبنـي لنفسـها روتـين حيـاة طبيعـي في بـيروت. فاشـترت سـيارةً وأثاثـا، وسـجلت عنوانًـا بريديًّـا وفتحـت حسـابًا مصرفيًّـا، كـما تجولـت في الحـي الـذي كانـت تعيـش فيـه. وقـد اكتشـفت محـل بقالـة في آخـر الشـارع، وبـدأت بزيارتـه. اعتمـدت لنفسـها جـدول أعـمال منتظـم: «كتابـة سـيناريو» معظـم اليـوم، والتسـوق في المنطقـة وخاصـة البقالـة، وكتابة رسـائل لصديقهـا «إميـل» في بلجيـكا. حيـث كانـت تقـوم عـبر رسـائلها التـي يفـترض أنهـا بريئـة بالإبـلاغ بواسـطة جمـل مشـفرة عـمّا فعلتـه ومـا رأتـه.

قـام حـراس أمـن حركـة «فتـح» الذيـن كانـوا يقفـون خـارج منـزلي المناضلـين بتوقيفهـا في أحـد الأيـام الأولى مـن إقامتهـا، وبـدأوا بطـرح الأسـئلة عليهـا. فأجابتهـم ببسـاطة: «أنـا أقيـم هنـا». فلـم يعـودوا يزعجوهـا بعدهـا. وقـد اكتشـفت وجـود صالـون تجميـل في المنطقـة فأصبحـت زبونـةً دائمـةً هنـاك، كـما تنزهـت في جميـع أنحـاء بـيروت وتعرفـت عليهـا. وقـد حصلـت ياعيـل عـلى شـهادة قـارئ مـن مكتبـة الجامعـة الأمريكيـة في بـيروت، حيـث تـم هنـاك الاحتفـاظ بوثائـق عـن الليـدي هسـتر وحياتهـا في لبنـان.

في الواقـع، كانـت الليـدي هسـتر هـي مـن خرجـت من المـاضي المضطرب

للقرن التاسع عشر وفتحت أمام ياعيل أبواب المجتمع الفكري في بيروت. وبالفعل، انتشر خبر قدوم كاتبة السيناريو الجميلة إلى بيروت في الأوساط الفكرية والأدبية كالنار في الهشيم، فقاموا بدعوتها إلى لقاءاتهم، بل وعرفوها أيضًا على كاتب مشهور كان قد ألف بالفعل كتابا باللغة العربية عن الليدي هستر! كان لديهما الآن موضوع مشترك وقد أبحر الاثنان في محادثات مطولة عن تلك المرأة التي أُعجبا بها، عن رفضها تغطية وجهها بالحجاب، عن مغامرتها إلى تدمر مع حراسها الشخصيين البدو، وعن مغادرتها في بعثتها الأثرية الأولى إلى عسقلان، حيث كانت تبحث عن كنزٍ من ذهب واكتشفت بدلا من ذلك تماثيل مذهلة. وعندما عادت إلى شقتها، قامت ياعيل بوضع طاولة الكتابة الخاصة بها مباشرة أسفل النافذة المطلة على شارع فردان ومقابل البناءين. وبهذه الطريقة تمكنت من مراقبة المبنيين التوأمين طوال ساعات النهار والليل.

كان الغطاء الذي عملت تحته ياعيل مثاليًّا، فلم يشك بها أحد. بل على العكس تمامًا، إذ كان كل من سمع عنها متحمسًا لتصوير مسلسل «ملكة الصحراء» قريبًا في بيروت ومحيطها.

* * *

في مساء السابع من أبريل/ نيسان، ارتدت ياعيل بدلةً أنيقةً، وتوجهت حسب التعليمات المشفرة التي تلقتها إلى فندق «إنتركونتيننتال». كانت حانة الفندق فارغةً جزئيًّا. وفي إحدى الزوايا رأت شابًّا ذا مظهر

أوروبي جالسًـا. اقتربـت منـه، وسـألته: «ألم ألتـق بـك في متحـف اللوفـر بباريـس؟»

فأجابها: «لا، لم أزر متحف اللوفر قط».

كانـت تلـك هـي كلمـة السر المتفـق عليهـا. كان الرجـل هـو إفياتـار، الـذي تعرفـت عليـه في جولتهـا السـابقة في بـيروت. وقـد كانـت سـعيدةً بلقـاء محـارب مـن قيسـارية تعرفـه في بيروت. تنـاولا العشـاء سـوية، وأبلغتـه بالمعلومـات التـي حصلـت عليهـا حتـى الآن. ووصفـت لـه روتـين النهـار والليـل في شـقق الثلاثـة – متـى تضـاء فيهـا الأنـوار ومتـى يتـم إطفاؤهـا، ومـن تتـم رؤيتـه مـن النوافـذ وفي أي سـاعة، وتفاصيـل عـن سـيارات الثلاثـة، والـزوار الذيـن يـترددون عليهـم، إضافـة إلى وصـف الحـراس بالقـرب مـن المبـاني وأسـلحتهم المرئيـة وسـاعات عملهـم... والمزيـد مـن التفاصيـل حـول المحيـط ومواقـف السـيارات وفنـدق «بريسـتول» المجـاور. كـما قامـت بإرسـال هـذه التفاصيـل إلى عنـوان «حبيبهـا، إميـل» في بروكسـل، كرسـائل حـب وغـرام.

وبعـد مـرور 48 سـاعة، مسـاء التاسـع مـن أبريل/ نيسـان، التقـت مـع إفياتـار ثانيـة. هـذه المـرة في المطعـم الجميـل عـلى سـطح فنـدق «فينيسـيا»، حيـث ظهـرت في سـترة رياضيـة عصريـة، وكانـت تربـط وشـاحًا مـن الحريـر الأخـضر حـول عنقهـا، وقـد اسـتمتعا بوجبـة عشـاءٍ شـهية، أجريـا خلالهـا محادثـةً قصـيرة، طلـب منهـا إفياتـار أن تخبره عـن الليـدي هسـتر سـتانهوب.

سردت لـه واحـدةً مـن العلاقـات الرائعـة التـي تعمـل عليهـا الآن. ثـم سـألها بشـكل عابـر: «ومـاذا عـن جيرانـك في المنـزل المقابـل؟»

فأجابت: «إنهم في المنزل اليوم، ثلاثتهم».

قـال لهـا: «جيـد. اذهبـي مباشرة إلى المنـزل، وابقـي في الخلـف، بعيـدًا عـن النوافذ».

وعندمـا تركتـه بمفـرده، قـام إفياتـار بتوجيـه رسـالة عاجلـة إلى مركـز الموسـاد. لم تكـن ياعيـل تعلـم أنهـا بكلماتها هـذه قـد أعطـت للتـو إشـارة البـدء لعمليـة «ربيـع الشـباب».

* * *

لم تكـن تعلـم أنـه في ذلـك الوقـت كانت سـفن الصواريـخ التابعة لسـلاح البحريـة الإسرائيليـة تبحـر قبالـة الشـواطئ اللبنانيـة. حيـث كان جنـود مـن سـييرت هتسـانحانيم[1]، وعـدد مـن وحـدات النخبـة الأخـرى، يرتـدون ثيابًـا مدنيـةً ويقفـون عـلى أسـطح السـفن، مجهزيـن ومسـلحين، مسـتعدين للصعـود عـلى زوارق زودياك السريعـة التابعـة للسـلاح. بينـما كان كل مـن إيهـود بـاراك، قائـد سـييرت ماتـكال[2]، وعمـيرام ليفـين ولـوني رفائيـلي، يتنكـرون بـزي نسـاء ويضعـون المكيـاج وشـعرًا مسـتعارًا نسـائيا، وقـد غطـوا

(1) سييرت هتسانحانيم: الوحدة الخاصة في لواء المظليين.

(2) سييرت ماتكال: وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة الإسرائيلية.

أنفسهم بأغطية بلاستيكية كبيرة؛ حتى لا تتسبب رغوة الأمواج في إتلاف مكياجهم وهم في طريقهم إلى الشاطئ. كان باراك يرتدي فستانًا أسود ضيقًا، وكانت حمالة الصدر التي يلبسها تحت الفستان مليئة بالجوارب القديمة والقنابل. حيث كان الجميع ينتظرون إشارة من الشاطئ تعطيهم الضوء الأخضر للهجوم. ولم تمض لحظات حتى جاءت الإشارة، من قبل إفياتار من الشاطئ: «الطيور في العش».

هرعت القوارب المطاطية، محملةً بالمحاربين، باتجاه أحد الشواطئ المهجورة في ضواحي بيروت. وهكذا بدأت عمليةٌ واسعة النطاق لم يسبق لها مثيل في تاريخ الموساد. ففي تلك الأيام، عمل محاربو وحدة كيدون في أوروبا على استهداف قائمةٍ طويلةٍ من الشخصيات البارزة في منظمة أيلول الأسود في روما وباريس وأثينا وليماسول ومدن أوروبية أخرى. غير أن كل هذه العمليات تتضاءل مقارنة بالعملية التي كانت على وشك الحدوث، لكونها تقع في مكان هو أقرب بكثير إلى إسرائيل.

ولدت عملية «ربيع الشباب» بسبب الإحباط العميق الذي شعر به كبار مسؤولي الأمن الإسرائيليين إزاء ما كان يحدث في بيروت، على بعد 238 كيلومترا من القدس. وقد أوضح رؤساء الموساد والجيش الإسرائيلي أنه: «لا يعقل أن يجلس قادة المنظمات الفلسطينية في حصانة تامة، آمنين ومحميين في بيروت، على أعتاب دولة إسرائيل مباشرة. يجب ضربهم هناك أيضًا، حتى يعلم الجميع أن ذراع إسرائيل الطويلة ستصل إليهم في كل مكان».

درس رئيس الأركان دافيد (دادو) إلعازار فكرة إنزال 300 مظلي في بيروت، والسيطرة على حي في وسط المدينة، وقتل قادة منظمة أيلول الأسود الذين كانوا يعيشون هناك. لكن إيهود باراك، قائد سييرت ماتكال، أقنعه بالتخلي عن الفكرة. وقال له: «مع 300 جندي، سوف تذهب إلى حرب. كما أن هجومًا كهذا سيؤدي إلى فقدان عنصر المفاجأة. بينما وحدة سييرت ماتكال قادرة على تنفيذ العملية بـ 14 مقاتلا، سيصلون إلى المكان ويقتحمون شقق الزعماء بمفاجأة تامة». وافق دادو على اقتراح باراك، في حين قرر وزير الحرب دايان توسيع العملية. وقد قرر رئيس الأركان وقائد المظليين أن تقوم قوات أخرى، أثناء عملية سييرت ماتكال، بالمزيد من العمليات. حيث ستقوم قوة مظليين من الكتيبة 50، بقيادة أمنون ليبكين شاحاك، بتفجير مقر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. بينما ستقوم وحداتٌ أخرى بتخريب مصانع الأسلحة وتنفيذ عمليات إلهاء عند مداخل المدينة. هكذا تم التخطيط لعملية «ربيع الشباب».

في لقاء مع مايك هراري، طلب رئيس الأركان إلعازار معلوماتٍ استخباراتية دقيقة ومحدثة. وقال: لن يتم تنفيذ المهمة إلا عند التأكد من تواجد الزعماء الثلاثة في شققهم، لن أخاطر بحياة عشرات الجنود إن لم أكن متأكدًا من أن «الأهداف» في المنزل.

قال مايك: «ثق بي». كان تقرير ياعيل الدقيق ضروريًّا.

كانت هذه أول عملية يعمل فيها محاربون من الجيش الإسرائيلي والموساد معًا. في الفترة ما بين الأول والسادس من أبريل نيسان، نزل في بيروت ستة «سياح» يحملون جوازات سفر إنجليزية وبلجيكية، استأجروا سيارات أمريكية كبيرة، وتجولوا في بيروت ودرسوا طرق الوصول إلى أهداف العملية. لقد كان هؤلاء محاربون في الموساد، وكانت وظيفتهم إيصال محاربي سييرت ماتكال وسييرت هتسنحانيم إلى كلا الهدفين في بيروت - مقر قيادة «الجبهة الديمقراطية» والبناءين التوأمين في شارع فردان. أحد السائقين كان إفياتار، الذي تم تكليفه بالحفاظ على الاتصال مع ياعيل، في الوقت الحقيقي.

* * *

على الرغم من أن ياعيل تلقت أمرًا من إفياتار بالعودة إلى المنزل مباشرة، إلا أنها لم تفعل ذلك. وقد قالت في وقت لاحق لأميرة لام من صحيفة «يديعوت أحرونوت»: «اعتقدت بسذاجتي أنه كان قلِقًا عليّ». حيث غادرت بعد وجبة العشاء، وتنزهت قليلا في شوارع بيروت. «لقد كنت مرتاحة. قضيت أمسيةً رائعة. لم أشعر بالمسؤولية في هذا الوقت عن أي شيء. تسكعتُ قليلا في مركز مدينة بيروت. لقد كنت سعيدةً جدًّا للقاء شخص ما من الحكومة وشعرت للحظة وكأنني في الوطن. قال لي أنه سيقابلني مرة أخرى في غضون يومين وقد ضللني ذلك، لذا كنت في سلامٍ تام». ثم وصلت إلى المنزل، وأجرت فحصها المعتاد للتأكد من أن أحدًا لم يدخل شقتها في غيابها، ونظرت من النافذة. كانت الأنوار مضاءة

في شقق مسؤولي حركة فتح. فشعرت بالسعادة لأنها قدمت تقريرًا دقيقًا لإفياتار.

قالت لإفرات ماس: «تكورت على الكرسي في غرفتي، وفجأة فكرت في والدي، في الطريقة التي أتيت بها من أمريكا إلى بيروت. فكرت في نفسي أنه لو عرف والداي مكاني الآن، لأصيبا بالصدمة، ولما تمكنا من فهم ما حدث لفتاتهم الناعمة البريئة».

دخلت ياعيل إلى الغرفة الخلفية وخلدت إلى النوم. في ذلك الوقت، كانت القوارب المطاطية قد اخترقت بالفعل مياه خليج بيروت، ورست على شاطئ المدينة. وقد رأى الجنود أمامهم السيارات الأمريكية الستة التي كانت تنتظرهم. حيث تم حشر مقاتلي سييرت ماتكال في ثلاث سيارات، وأفراد سييرت هتسنحانيم (المظليين) في الثلاثة الأخرى. اصطحب السائقون المحاربين إلى كلا الهدفين: سييرت هتسنحانيم (المظليين) إلى مقر قيادة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وسييرت ماتكال إلى شارع فردان. فيما قامت وحدات أخرى بمداهمة أهدافٍ ثانوية أو القيام بعمليات إلهاء عند مداخل المدينة.

تسببت أصوات الانفجارات وإطلاق النار في إيقاظ ياعيل. فهرعت إلى النافذة ونظرت من فتحات الستائر. في منتصف الشارع كانت تقف ثلاث سيارات كبيرة وكان هناك أشخاص يركضون ذهابًا وإيابًا، فيما أخذت أصوات الرصاص ترتفع. أما الشقق الثلاثة في البناءين المقابلين،

فقـد أضيئـت فيهـا الأنـوار، وكان بداخلهـا أشـخاص يركضـون حاملـين كشـافات ضوئيـة. اسـتمر الـصراخ وإطـلاق النـار في الشـارع، وقـد اعتقـدت في البدايـة أن هـؤلاء فلسـطينيون يتقاتلـون فيـما بينهـم. ثـم ظهـرت سـيارتا جيـب تابعتـان للشرطـة واحـدة تلـو الأخـرى، فقتـل سـائق الآليـة الأولى، فيـما توقـف الآخـر بعـد أن اصطـدم بسـيارة متوقفـة. اشـتدت الصيحـات وسـمعت بشـكل واضـح شـخصا ينـادي باللغـة العبريـة: «تعـال إلى هنـا!»

لقـد عرفـت الآن: هـؤلاء رجالنـا. لغـة عبريـة في قلـب بـيروت! غمرتهـا مشـاعر الاحـترام والفخـر. وفكـرت في نفسـها: لقـد تـم تنفيـذ العمليـة، وأنـا جـزءٌ منهـا! في غضـون ذلـك، توقـف إطـلاق النـار، وقفـز أشـخاص إلى داخـل السـيارات الكبـيرة، التـي اختفـت عـلى الفـور. وسـاد الصمـت، لكـن ليـس لفـترةٍ طويلـة. حيـث وصلـت إلى الشـارع سـيارات جيـش وشرطـة، وسـمعت مـرة أخـرى أصـوات إطـلاق النـار والصرخـات.

بعـد مـرور سـنوات، أقامـت ياعيـل علاقـة صداقـة مـع اللـواء عمـيرام ليفـين، أحـد «النسـاء» في العمليـة. والـذي أخبرهـا بـأن المحاربـين كانـوا يعلمـون أن هنـاك شـخصًا مـا في المحيـط قـد زوّدهـم بالمعلومـات اللازمـة، لكنهـم لم يعرفـوا مـن هـو.

عندمـا عـاد الهـدوء إلى الشـارع ثانيـة، جلسـت عـلى طاولتهـا وكتبـت رسـالة إلى حبيبهـا الافـتراضي، إميـل:

«عزيـزي إميـل، مـا زلـت أرتجـف مـن أحـداث الليلـة الماضيـة. حيـث

استيقظت فجأةً في منتصف الليل على دوي الانفجارات. اعتقدت في البداية أنه إطلاق نار تعبيرًا عن الفرح كما هو معتاد في أفراح العرب... لقد أصبت بالذعر – الإسرائيليون يهاجمون. ركضت إلى النافذة، وشاهدت معركة كانت تدور في الشارع. كان ذلك فظيعًا... أولئك الإسرائيليون الرهيبون كانوا هناك حقًّا. للمرة الأولى بدأت أفهم سبب هذا القدر الكبير من الكراهية لليهود في لبنان. يعتقد الإسرائيليون أن بوسعهم أن يفعلوا كل ما يحلو لهم. من المؤكد أنك ستقرأ كل شيء في الصحف... عزيزي، لا تقلق، أنا بخير...» كما اقترحت في تتمة الرسالة أن تأتي لرؤية إميل في عيد الفصح القادم، ووقّعت «لك مع الكثير من الحب، راهبتك في لبنان».

وأضافت إلى الرسالة نصًّا مشفرًا: «لقد كان عرضا رائعًا الليلة الماضية، أحسنتم صنعًا».

قال مايك هراري: «بدونها، ما كان ليحدث ذلك».

❊ ❊ ❊

في اليوم التالي، وصفت الصحف العالمية، بعناوين ضخمة، ومقالات في الصفحة الأولى عملية «ربيع الشباب». وتحدثوا عن محاربي النخبة في الجيش الإسرائيلي الذين عملوا في قلب بيروت. لقد تم تدمير مقر الجبهة الديمقراطية بالكامل، وقتل العديد من المناضلين المحاصرين بداخله. كما تم قتل الشخصيات البارزة الثلاثة في حركة فتح ومنظمة

أيلـول الأسـود. الإسرائيليـون جـاؤوا وعملـوا، ثـم اختفـوا. كل مـا تركـوه وراءهـم كان السـيارات السـتة التـي نقلتهـم إلى أهدافهـم، متوقفـةً بانتظـام عـلى شـاطئ بـيروت، والمفاتيـح بداخلهـا.

صعـد المحاربـون بالفعـل إلى الـزوارق، التـي نقلتهـم إلى سـفن الصواريخ ثـم إلى إسرائيـل. كـما صـدرت تعليـمات لمحـاربي الموسـاد الآخريـن الذيـن كانـوا في بـيروت في مهـمات أخـرى، بمغـادرة لبنـان عـلى الفـور. وقـد غـادر الجميـع حقًّـا - باسـتثناء واحـدة هـي ياعيـل، حيـث قـرر الموسـاد أنـه ينبغـي عليهـا مغـادرة بـيروت بعـد أيـامٍ قليلـة فقـط. ومـع ذلك، كان رؤسـاء قيسـارية قلقـين للغايـة بشـأن سـلامتها وأمنهـا. وقـد أمرهـا المشرفـون بمغـادرة الشـقة والتوقـف عـن اسـتئجارها وبيـع الأثـاث والانتقـال إلى الفنـدق، ثـم مغـادرة بـيروت بعـد بضعـة أيـام فقـط، وأن عليهـا إخبـار معارفهـا بأنهـا تخشـى البقـاء في الحـي الـذي حدثـت فيـه مثـل هـذه الأشـياء.

وبالفعـل، أخـبرت صديقهـا فـؤاد، مالـك المنـزل، أنهـا خائفـةٌ جـدًّا وترغـب في الانتقـال إلى الفنـدق. غـير أن فـؤاد أصيـب بالذهـول مـن قرارهـا. فقـال لهـا: «لا تذهبـي إلى الفنـدق. إنهـا فكـرة سيئة». وأوضـح لهـا أن الرعايـا الأجانـب والسـياح هـم الآن مسـتهدفون، وأن مطـاردة تجـري في بـيروت وراء الأشـخاص الذيـن ربـما سـاعدوا الإسرائيليـين. إن رحيلهـا المفاجـئ إلى الفنـدق قـد يجعلهـا مشـتبهة بهـا. وقـال لهـا: «ابقـي في المنـزل، نحـن سـنقوم بحمايتـك».

اقترح على ياعيل العيش في شقته مع أخواته. وقد احتارت ياعيل بين أن تنفذ الأوامر التي تلقّتها، أو أن تستمع إلى كلام صديقها. وفي النهاية بقيت في الشقة لستة أيامٍ أخرى.

قالت: «في يوم تشييع جنازة أفراد منظمة التحرير الفلسطينية، قضيت الوقت مع عائلة مالك المنزل الذي أستأجره، وسمعت نداءات الغضب والتحريض والإحباط ضد إسرائيل. كانت هناك لحظات شعرت فيها بالقلق من أن شيئًا سيئًا ينسج حولي دون أن أدرك ذلك، ربما كان الناس من حولي يحاولون البحث في هويتي». ومع ذلك، لم تشعر بالخوف. «ما أخافني هو أنني لم أكن خائفة. ربما يكون ما أكسبني المناعة هو حقيقة كوني أمريكية، لم أنشأ كمن نشأوا في إسرائيل على الخوف من الشارع العربي».

عادت تدريجيًّا إلى الروتين الذي كانت قد اعتمدته لنفسها. ارتدت ملابسها وغادرت متجهة إلى مكتب البريد لإرسال الرسالة إلى إميل. وقد شاهدت أشخاصا بدوا لها كمسؤولين جاؤوا إلى الشقق الثلاثة برفقة حراسهم الشخصيين. وكانت معظم المحلات التجارية في المنطقة مغلقة. فذهبت إلى المكتبة الأمريكية، ثم زارت صالون الحلاقة. وبعد ستة أيام، قالت لفؤاد أنها تريد المغادرة. وفي الخامس عشر من أبريل/ نيسان، قام باصطحابها إلى المطار وقبلها على خدها، قبل أن تصعد على متن الطائرة المتوجهة إلى بروكسل.

في غضـون ذلـك، كان مايـك هـراري تحت ضغـطٍ نفسي شـديد. لقـد كان يتوقـع عودتهـا، لكنـه لم يستطع الراحـة. كان هـو ورئيـس الموسـاد زامـير قـد قـررا تأجيـل سـفرها لسـببٍ واحـد: هـي لم تحترق في بـيروت، لم يشـك بهـا أحـد، ولم يخمـن أحـد هويتهـا الحقيقيـة، وكان بإمكانهـا تنفيـذ مهـمات أخـرى في البلـدان العربيـة في المستقبل. لكـن ألم تكـن تلـك مقامـرة محفوفـة بالمخاطر؟

في الخامـس عـشر مـن أبريل/ نيسـان، هبطـت في بروكسـل. في مسـاء ذلـك اليـوم، وصلـت برقيـةٌ إلى كل مـن رئيـس الموسـاد ومايـك هـراري: «وصلـت نيلسـن بسـلامٍ وقامـت بالتواصـل. كل شيء عـلى مـا يـرام معهـا». فأضـاف مايـك هـراري بخـط يـده: «تهـاني!» وقـام بالتوقيـع.

بعـد مـرور شـهر، قـام زامـير وهـراري باصطحـاب ياعيـل إلى رئيسـة الـوزراء، التـي أرادت أن تعـرف كيـف تبـدو المحاربـة. قالـت ياعيـل: «لقـد كانـت تعتقـد أننـا جميعنـا في الموسـاد أبطـالٌ بعضـلات مفتولـة. وقـد ذهلـت عندمـا دخلـتُ الغرفـة، وقالـت: ‹هـل هـذه الفتـاة الصغـيرة هـي مـن فعلـت كل هـذا؟› أجلسـتني بجانبهـا عـلى الأريكـة، وعنـد مغـادرتي قامـت بمعانقتـي وتقبيـلي».

* * *

لم يعـرف والـدا «هـذه الفتـاة الصغـيرة» مـا كانـت تفعلـه ابنتهـما حتـى يومهـا الأخـير، إذ لم تخبرهمـا بـشيء. ربـما كان ذلـك بسـبب العلاقـة المعقـدة التـي كانـت تربطهـا بهـما. وعـلى الرغـم مـن أن والدهـا قـام بزيـارة إسرائيـل،

وتجول فيها طولا وعرضًا، إلا أنه لم يسمع شيئًا عن أعمال ابنته. وبقي حتى وفاته يعتقد أنها تعمل في شركة كمبيوتر مرتبطة بوزارة الحرب. كما أن والدتها أيضًا لم تكن تعرف شيئا، رغم أنها خمنت من رسائل ياعيل الغامضة أنها لم تكن تخبرها بكل شيء. وحتى أصدقاءها اللبنانيين لم يكتشفوا أن ياعيل كانت محاربة موساد. وقد حرصت أيضًا على شراء بعض المطبوعات التي طلبها فؤاد من لندن، والتي أعطاها 8 جنيهات إسترلينية كي تشتريها وترسلها له. وعندما تم نشر قصتها لأول مرة، شعرت بالأسف الشديد بعد أن فكرت في الصدمة التي ستصيب أصدقاءها في بيروت.

خلال لقاءٍ مصغر لقدامى محاربي عملية «ربيع الشباب»، شاركت به أيضا إفرات ماس، التقت ياعيل برجل طويل القامة، يدعى مايكل، كان قد شارك في العملية كضابط في سييرت ماتكال. لقد كان واحدًا من أولئك الذين اقتحموا منازل الزعماء وقتلوهم. وعندما نهض للمغادرة، توجه إلى ياعيل قائلا: «أعتقد أننا قد التقينا من قبل، لكنني لا أتذكر أين».

«في موقف سيارات المنزل الذي كنت أعيش فيه، في هرتسليا».

«لقد بقيتِ صامتةً طوال المساء ولم تقولي لي كلمةً واحدة، وكأنك لم تتعرفي عليّ».

قالت له: «لم نتعرف على بعضنا البعض، ربما أردنا ذلك فحسب.

لقـد بقيـت مـع ذكـرى غامضـةٍ للقـاءٍ كان سـابقًا لأوانـه... كان يمكننـي أن أسـمح لنفسي بعلاقـةٍ فيما بيننـا، لكننـي ذهبـت في طريـقٍ آخـر. لا أعلـم مـا الـذي خسرتـه، ومـن الجيـد أننـا التقينـا الآن».

وبعـد مغـادرة مايكل، قالـت ياعيـل: «لـو كنـتُ قـد كتبـت قصـة حيـاتي، لـكان بإمـكاني أن أصـور مايكل عـلى أنـه هـو الشـخص الـذي أحببتـه، وأن علاقـة غراميـة صاخبـةً قـد نشـأت بيننـا، ولـكان بالإمـكان نسـج العلاقـة التـي كنـت أفتقدهـا بشـدة».

* * *

عـام 2015م، صـدر في إسرائيـل كتـاب قصـير للكاتبـة إفـرات مـاس بعنـوان «ياعيـل، محاربـة الموسـاد في بـيروت». لكـن إلى جانـب الأمـور التـي كُشـف عنهـا، أخفـى الكتـاب شـيئًا أكـبر بكثـير! فعـلى مـدى الأربعـة عـشر عامًا التـي تلـت عمليـة «ربيـع الشـباب»، كانـت مهمـة ياعيـل في بـيروت هـي الأقـل روعـة بـين جميـع مهماتهـا ونجاحاتهـا. حيـث بقيـت في الموسـاد ونفـذت عمليـات خطـرة في بلـدانٍ عربيـةٍ محيطـةٍ بإسرائيـل. لقـد عملـت في سـوريا ومـصر، وفي لبنـان ثانيـةً تحـت غطـاء آخـر، وأيضًـا في بغـداد حيـث قامـت بجمـع معلومـاتٍ استخباراتيةٍ عـن المفاعـل النـووي العراقـي حتـى قصفـه مـن قبـل سـلاح الجـو الإسرائيـلي عـام 1981م. في إحـدى مهماتهـا، أمضـت أربـع سـنواتٍ كاملـة في بلـد عـربي. وقـد تمـت ترقيتهـا وترأسـت العديـد مـن العمليـات. لقـد كانـت قاسـيةً وصارمـة، وأخـذت إنجازاتهـا تتضاعـف.

وأصبحت واحدة من أعظم محاربات الموساد، لكن معظم عملياتها ما زالت في طي الكتمان.

في نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1982م، وبعد وقتٍ قصيرٍ من تدمير المفاعل العراقي، حصلت ياعيل على وسام التميّز من رئيس الأركان رفائيل إيتان. وقد تم منحها الوسام لقاء ما أظهرته من شجاعةٍ ورباطة جأشٍ وسعة حيلة في «مهمة ذات أهمية قصوى لأمن الدولة». أما بقية شهادات التقدير والأوسمة التي حصلت عليها فما زالت سرية. يقول رئيس الموساد السابق تامير باردو: «لو قمنا بتزيين ياعيل بجميع أوسمتها، لما بقي مكان على صدرها».

* * *

بعد تقاعدها، عادت ياعيل إلى المعهد لتتعلم اللغة العبرية أخيرًا. وقد اعتادت أن تمزح بشأن لغتها العبرية المحدودة. «كنت ذات مرة في الكافتيريا وسألت النادل إن كان لديه بيض، فأصيب بالإحراج...» التقت في المعهد بمعلم اسمه جوني. وقد كانت تبلغ من العمر 50 عامًا، لكن بالنسبة لهما لم يكن الأوان قد فات بعد، فتزوجا. ومع مرور الوقت، أصيبت ياعيل بمرض باركنسون وبسرطان الثدي، وقد اعتنى بها زوجها بإخلاصٍ وحب.

قال عنها أحد كبار مسؤولي الموساد ذات مرة: «عندما يدور الحديث عن عملية ‹ربيع الشباب›، فإن الجميع يبدون إعجابهم ودهشتهم من

التنفيـذ الجـريء لإيهـود بـاراك الـذي كان قـد تنكـر بـزي امـرأة، وينسـون أن العمليـة برمتهـا مـا كانـت لتحـدث لـولا هـذه المـرأة الصغـيرة الشـجاعة، ياعيـل».

قالـت لي ياعيـل (الكاتـب): «نـص السـيناريو الخـاص بي عـن الليـدي هسـتر لم يتحـول إلى فيلـم. لسـوء الحـظ، لقـد كان في الواقـع نصًّـا جيـدًا».

(15)

سيلفيا : ليلةٌ مريرة

لم تكـن سـيلفيا تعـرف ياعيـل، كـما أنهـا لم تشـارك في عمليـة «ربيـع الشـباب». لكنهـا علمـت، بعـد بضعـة أسـابيع مـن العمليـة، أنـه بينـما كان محاربـو السـييرت يقومـون بتصفيـة قـادة حركـة فتـح الثلاثـة في شـققهم، كان العـدو الرئيـس - عـلي حسـن سـلامة - يغـط في النـوم عـلى بعـد بضـع دقائـق فقـط مـن هنـاك، في شـقة آمنـة. وقـد غفـل عنـه المحاربـون ولم يبحثـوا عنـه حتـى؛ لأنهـم لم يكونـوا يعلمـون بأنـه هنـاك. كان سـلامة يعـرف جيـدًا كيـف يخفـي آثـاره، ولم يكـن لـدى الموسـاد أدنـى فكـرة عـن مـكان تواجـده.

أصبـح البحـث عـن عـلي حسـن سـلامة نوعًـا مـن الهـوس، وشـكل هاجسًـا بالنسـبة لقـادة الموسـاد. فتـم تجنيـد كل مـن محققـي الاسـتخبارات وخـبراء التنصـت وأفـراد الاتصـالات وأجهـزة الاسـتخبارات الأجنبيـة معًـا للعثـور عـلى سـلامة. كـما صـدرت أوامـر لعمـلاء الموسـاد في لبنـان وأوروبـا بتقديـم أي معلومـة عـن مـكان تواجـده. وطـوال ثلاثـة أشـهر، اسـتمر البحـث دون جـدوى، باسـتثناء المعلومـات الغامضـة التـي تفيـد بـأن سـلامة كان في

ألمانيا أو إحدى الدول الإسكندنافية، يخطط لعملية كبيرة ضد إسرائيل. وقالت نفس المعلومة أيضًا أن ذلك سيكون انتقامًا لعملية «ربيع الشباب» أو لاغتيال محمد بودية، رئيس منظمة أيلول الأسود في فرنسا، قبل بضعة أسابيع. لكن لم يكن هناك أي تأكيد على هذه الأمور.

وها هو، في الأيام الأولى من شهر يوليو/ تموز – بصيص أمل!

كان يعيش في مدينة جنيف بسويسرا شابٌ جزائريٌ وسيم داكن البشرة يدعى كمال بن أمين، وكان متزوجًا من امرأة سويسريةٍ من عائلة ثرية، لكنه هو نفسه كان عاملا بسيطًا في مصنع في ضواحي المدينة. وقد كشفت المراقبة طويلة الأمد أن بن أمين كان يأتي بمفرده في المساء إلى الحانات الرخيصة أو مطاعم العمال ويقضي الكثير من الوقت هناك، حيث كان يتواصل مع مهاجرين من الشرق الأوسط. ولكن سرعان ما تبين لمتعقبيه أنه كان يعيش بالفعل حياة مزدوجة: فقد كان يظهر مرتديًا بدلات أنيقة في حفلات استقبال في السفارة الجزائرية وفي ممثليات الدول العربية الأخرى. وكان يخفي أصله، رغم أنه جدد جواز سفره الجزائري مؤخرًا. وفي محادثةٍ قصيرة، ألمح بضع مرات إلى أنه قضى عدة سنوات في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط. وقد تم اعتباره في تقارير الموساد كعضو في منظمة أيلول الأسود.

في 14 يوليو/ تموز عام 1973م، ظهرت بالقرب من منزل بن أمين سيارة تحمل لوحةً دبلوماسية، وأخذت بن أمين واتجهت نحو مطار

جنيف. ثم شوهد بن أمين، مرتديًا ملابس أنيقة، يصعد على متن طائرة متجهةٍ إلى كوبنهاجن، عاصمة الدنمارك. وعلى الفور، ربط محققو الموساد بين الرحلة الجوية الطارئة للجزائري وبين الأنباء عن تواجد علي حسن سلامة في إسكندنافيا. حيث كان الافتراض الذي تبلور أن بن أمين قد سافر جوًّا لحضور اجتماعٍ عاجلٍ مع سلامة، يتعلق بالتحضير لهجوم ضد هدف إسرائيلي في أوروبا. في ذلك الوقت، كان هناك في كوبنهاجن العديد من أفراد الموساد الذين يحملون جوازات سفر أجنبية، ومن بينهم: «النمساوي» جوستاف فايستاور، و «الفرنسي» جان لوك سفينييه، و «السويدي» دان إيرت. حيث تم إرسالهم في الواقع للتحقق من صحة الشائعات حول وجود سلامة في إسكندنافيا، ربما في الدنمارك. وعندما اتضح لهم أن المعلومات لم تكن صحيحة، كانوا على وشك مغادرة كوبنهاجن، قبل أن يتلقوا فجأة تعليمات من إسرائيل أن بن أمين قادم وينبغي عليهم تعقبه. وبالفعل، هبطت الطائرة القادمة من جنيف وعلى متنها بن أمين، لكنه لم يأت إطلاقًا إلى كوة تدقيق جوازات السفر، ولم يغادر المطار. وقد أظهر تحقيقٌ سريعٌ أجراه الثلاثة بطرق غير شرعية تمامًا، أن بن أمين، عند نزوله من الطائرة، توجه إلى صالة العبور (الترانزيت)، وصعد على متن طائرة أقلعت إلى أوسلو، عاصمة النرويج.

طار محاربو الموساد الثلاثة إلى أوسلو، لكنهم وصلوا متأخرين بالطبع. ففي هذه الأثناء، كان بن أمين قد هبط وعبر مراقبة الحدود واختفت آثاره. لمعت فكرة في رأس فايستاور، حيث اشترى كومة من

العمـلات الخاصـة بالهاتـف العمومـي (تليفـون توكينـز) ووزعهـا عـلى أصدقائـه، قائـلا: «يجب علينـا الاتصـال بجميـع الفنـادق والنـزل في أوسـلو، والتحقـق مـن مـكان إقامـة بـن أمـين». وأضـاف فايسـتاور أن هـذه ليسـت مهمـة صعبـة، فأوسـلو ليسـت مدينـة كبـيرة ومـن المفـترض أن يتـم اكتشـاف بـن أمـين بسـهولة.

اسـتقر المحاربـون في كبائـن هاتـفٍ عمومـي وسـط المدينـة وبـدأوا بالاتصـال. وبالفعـل، بعـد بضـع سـاعات، عثـر عميـل الموسـاد دان أربيـل المولـود في كوبنهاجـن، عـلى بـن أمـين في فنـدق متواضـعٍ ورخيـص كان اسـمه «بانوراما». ووصـل أربيـل عـلى الفـور إلى الفنـدق واسـتأجر غرفـة هنـاك، لكنـه اكتشـف في صبـاح اليـوم التـالي أن بـن أمـين قـد تـرك الفنـدق وغـادر إلى محطـة القطـار. فهـرع المحاربـون الثلاثـة إلى المحطـة، وعثـروا عـلى بـن أمـين يسـتقل قطـارًا مسـافرًا إلى الداخـل، وقـد ظهـرت وجهـة ذلـك القطـار في جـدول رحـلات القطـارات: «ليلهامـر».

كانـت ليلهامـر بلـدة صغـيرة يبلـغ عـدد سـكانها حـوالي 20 ألـف نسـمة، وتبعـد حـوالي 165 كيلومـترًا عـن العاصمـة أوسـلو. وفـور أن وصـل إلى إسرائيـل الإشـعار عـن وجهـة رحلـة بـن أمـين، انغمـس مايـك هـراري في نشـاطٍ محمـوم. ونظـرًا لضغـط الوقـت وظـروف المـكان، قـام بتنظيـم فريـق ضـم محاربـين مخضرمـين ذوي خـبرة، ولكـن كان إلى جانبهـم أيضـا بعـض الذيـن لا يتناسـبون مـع المهمـة المقبلـة. لم يكـن دان أربيـل مـن كبـار المحاربـين، لكنـه أُلحـق بفريـق العمـل كونـه يعـرف اللغـة الدنماركيـة. كـما ضـم الفريـق

أيضـا فتـاة شـابة، تدعـى ماريـان غلادنيكـوف، كانـت قـد هاجـرت مؤخـرًا مـن السـويد. وقـد كانـت مهندسـة برمجيات، هاجـرت إلى إسرائيـل بمفردهـا لدوافـع صهيونيـة. كانـت ماريـان قـد بـدأت لتوهـا أول دورة تدريبيـة لهـا في الموسـاد، عندمـا تـم سـحبها وإرسـالها عـلى وجـه السرعـة إلى ليلهامـر، نظـرًا لأن اللغـة السـويدية التـي تتحدثهـا كانـت قريبـة جـدًا مـن اللغـة النرويجيـة. فسـافرت باسـمها الحقيقـي وجـواز سـفرها السـويدي. وإلى جانـب أفـراد الموسـاد هـؤلاء مـن الصـف الثـاني، وصـل إلى ليلهامـر محاربـون ماهـرون مثـل أفراهـام جيمـر وبعـض أعضـاء فريـق الاغتيـالات الـذي كان نشـطًا بالفعـل في أوروبـا، بـما في ذلـك سـيلفيا رافائيـل. حيـث وصـل جيمـر بجـواز سـفر بريطـاني باسـم ليسـلي أوربـاوم، مـدرس مـن ليـدز في إنجلـترا. كـما وصـل إلى ليلهامـر أيضًـا كل مـن مايـك هـراري وتسـفي زامـير. وقـد أقـام الفريـق بأكملـه في عـدد مـن الشـقق والغـرف الفندقيـة التـي اسـتأجرها دان أربيـل. كـما اسـتأجر أربيـل وأصدقـاؤه أيضـا سـيارات في مطـار أوسـلو.

شـعرت سـيلفيا منـذ البدايـة أن هنـاك شـيئًا مـا خاطئـا. وبصفتهـا شـخصًا سـبق وأن شـارك بالفعـل في عمليـات مـن هـذا النـوع، طلبـت التحقـق مـن الترتيبـات في حـال حـدوث خلـلٍ مـا، ومـا هـي طـرق الهـروب. وقـد فوجئـت عندمـا اكتشـفت عـدم وجـود مثـل هـذه الترتيبـات، فتوجهـت إلى أفراهـام جيمـر الـذي أكـد أنـه أيضًـا لم يتلـق أي تعليـمات بشـأن حالـة كهـذه. وقـد كانـت هنـاك مسـألةٌ أخـرى مثيرةٌ للقلـق، وهـي سـلوك الفريـق الـذي تجمـع في ليلهامـر.

كانـت البلـدة النرويجيـة الصغـيرة مكانًـا شـعبيًّا للسـياحة الشـتوية. فخـلال أشـهر الشـتاء، كان يـأتي إلى ليلهامـر حـوالي 600 ألـف سـائح. وقـد تـم تحديـد مسـارات تزلـج رائعـة عـلى المنحـدرات الجبليـة المحيطـة بالبلـدة الخلابـة. وليـس مـن قبيـل المصادفـة أن يتـم اختيـار ليلهامـر في عـام 1994م لاسـتضافة دورة الألعـاب الأولمبيـة الشـتوية.

غـير أن ليلهامـر كانـت في الصيـف نوعًـا مـن الجـمال النائـم، بلـدة صغـيرة هادئـة، حيـث يوجـد عـدد ضئيـل مـن السـياح وتقـل فيهـا الحركـة والضوضـاء. وهنـا، في 19 يوليو/ تمـوز، وصـل إلى هنـاك 15 عنـصرًا مـن الموسـاد، بسـياراتٍ مسـتأجرةٍ تجـوب شـوارع المدينـة. كـما كان بعـض محـاربي الموسـاد يتحدثـون مـع بعضهـم البعـض عـبر أجهـزة اتصـال بالـكاد كانـت مخفيـة. لقـد لفـت الفريـق الانتبـاه بشـكل غـير ضروري وضـار.

كانـت المسـألة الثالثـة التـي أقلقـت راحـة سيلفيا هـي تحديـد الهـدف. هل يختبـئ عـلي حسـن سـلامة في هـذه البلـدة الصغـيرة؟ وإذا كان الأمـر كذلـك فأيـن؟ لقـد تمكـن أفـراد الموسـاد مـن تحديـد مـكان كـمال بـن أمـين، الـذي انتقـل إلى فنـدق «ريجينـا» وسـجل باسـم مسـتعار. فجـاء أحـد المحاربـين إلى جانـب ماريـان غلادنيكـوف إلى الفنـدق واسـتأجرا غرفتـين هنـاك. وفي وقـت متأخـر مـن المسـاء، بينـما كانـا جالسـين في صالـة الاسـتقبال، شـاهدا بـن أمـين ينسـحب ويدخـل غرفتـه.

في اليـوم التـالي، قـام الإسرائيليـون بمراقبـة وتعقـب بـن أمـين الـذي غـادر

الفندق. لقد مشى في أزقة ثم عاد على أعقابه، ودخل إلى مقاه ثم خرج من الباب الخلفي، وقام بسلسلة من التحركات التي جعلت الإسرائيليين يقتنعون بأنه عضوٌ ماهرٌ في حركةٍ سرية، يحاول التخلص من أي مراقبة محتملة. وكان الاستنتاج المنطقي أنه كان يحاول الإفلات من أي متعقبين محتملين قبل أن يلتقي بسلامة.

عند الظهيرة، تم العثور على بن أمين في شرفة مقهى «كارولين»، جالسًا تحت مظلةٍ ملونة. ومن مقعد على الطرف الآخر من الشارع، كان يراقبه كل من «جوستاف فايستاور» وماريان غلادنيكوف وعميل آخر. ثم فجأة اقترب شخصان غريبان من بن أمين. والتفت أحدهما إلى الخلف. فظهر التوتر على فايستاور. ذلك الشخص كان عربيًّا! قام فايستاور بمقارنة وجه الرجل مع صورة سلامة التي أخرجها من جيبه. في الواقع، كان سلامة في الصورة حليق الشارب، بينما العربي الذي اقترب من بن أمين كان لديه واحد، غير أن الشارب يمكن تربيته أو لصقه. ولدقائق طويلة، قارن فايستاور ملامح وجه الشخص المجهول بصورة سلامة. ثم أومأ برأسه أخيرًا.

في السيارة التي كانت متوقفةً في مكانٍ قريب، تلقى هراري الرسالة وقام على الفور بإبلاغ تسفي زامير، الذي وصل إلى المكان بجواز سفرٍ إسرائيلي يحمل اسم تال ساريج. وقد ذكر هراري أن محاربيه قد تعرفوا على سلامة.

منـذ تلـك اللحظـة، تـرك المحاربـون بـن أمـين وركـزوا كل جهودهـم عـلى صاحـب الشـارب. فقامـوا بتعقبـه عندمـا غـادر المقهـى، حيـث قـاد الدراجـة في جولـة مطولـة في شـوارع المدينـة. ثـم رأوه يصـل إلى مسـاكن رخيصـةٍ وكئيبـةٍ في ضواحـي المدينـة، حيـث أمـضى الليلـة هنـاك. وفي صبـاح اليـوم التـالي، تواصلـت المراقبـة. حيـث ركـب الرجـل دراجتـه وقادهـا حتـى وصـل إلى بركـة السـباحة العامـة في المدينـة. وفي غضـون دقائـق، شـوهد في ثيـاب السـباحة جالسـا عـلى حافـة المسـبح يتحـدث إلى شـخصٍ آخـر.

مـا الـذي كانـا يتحدثـان عنـه؟ أمـر قائـد المجموعـة ماريـان باسـتئجار ثيـاب سـباحة عـلى الفـور، ثـم الدخـول إلى المسـبح والاقـتراب مـن الرجـل ذي الشـارب ومحـاوره. وقـد اسـتأجرت بيكينـي حقًّـا، ثـم قفـزت في المـاء وسـبحت ذهابًـا وإيابًـا إلى حافـة المسـبح، حيـث كان يجلـس الاثنـان. إلا أنهـا لم تفهـم مـا كانـا يقولانـه؛ لأنهـما كانـا يتحدثـان بالفرنسـية، وهـي لا تفهـم هـذه اللغـة. ومـع ذلـك، كانـت قـد ألقـت نظـرة عـلى صـورة سـلامة قبـل بضـع دقائـق مـن دخولهـا المسـبح، ونظـرت الآن عـن كثـب في وجـه الرجـل ذي الشـارب. ثـم خرجـت مـن المسـبح، وقالـت لمشـغليها: «لا يبـدو لي هـو. حاجبـا الرجـل في الصـورة كانـا مختلفـين، مدببـان نوعًـا مـا. قطعـا، هـذا ليـس سـلامة».

لكنهم ردوا عليها قائلين: «أنت لا تعرفين. أنت لا تفهمين».

تبلـور في ذهـن سـيلفيا رأي مماثـل. فقـد كان أول مـا لفـت انتباههـا،

كمصـورة محترفـة، هـو تحديـد الهويـة وفقـا لصـورة مشوشـةٍ وغـير واضحـة. كـما أن أفراهـام جيمـر قـد فكـر مثلهـا، لكـن قادتهـما رفضـوا رأي الاثنـين.

شيء آخـر أزعـج سـيلفيا: وفقًـا لـكل مـا كانـوا يعرفونـه عـن سـلامة، وللتقاريـر التـي قدمهـا رومـي ضابـط الاسـتخبارات في قيسـارية، فهـو لم يكـن يتكلـم اللغـة الفرنسـية، بينـما كان الرجـل الـذي في المسـبح يتحـدث اللغـة الفرنسـية بطلاقـة. ولكـن أكثـر مـن ذلـك: هـل يعقـل أن يقـوم سـلامة، زعيـم منظمـة أيلـول الأسـود الـذي يعلـم أن محـاربي الموسـاد كانـوا يلاحقونـه، بالتجـول راكبًـا عـلى دراجتـه في شـوارع ليلهامـر، دون أي حمايـةٍ أو محاولـة للتملـص مـن المراقبـة؟ هـل يعقـل أن يقيـم في مسـاكن مثـيرة للشـفقة عـلى أطـراف البلـدة؟ وأن يذهـب للسـباحة في المسـبح حيـث لا تتوفـر لـه أي حمايـة؟ شـاركت سـيلفيا هـذه التسـاؤلات أيضًـا مـع قـادة العمليـة، وتـم رفضهـا مـرة أخـرى. لقـد كان هـراري وزامـير عازمـان عـلى تنفيـذ الاغتيـال. ويبـدو أن النجاحـات السـابقة لعمليـة «غضـب الله»، قـد أدت إلى التهـاون في الإجـراءات الاحترازيـة والاختبـارات الدقيقـة. كـما قـرر القـادة أيضـا أن يكـون يـوم تنفيـذ العمليـة هـو ذات اليـوم، 21 يوليو/ تمـوز.

في المسـاء، كانـت تهطـل أمطـارٌ خفيفـةٌ عندمـا دخـل الرجـل الـذي كانـوا يراقبونـه، بصحبـة امـرأةٍ شـقراء حامـل، إلى السـينما في قلـب ليلهامـر، حيـث كان يعـرض فيلـم «حيـث يجرؤ النسـور» مـن بطولـة كلينـت إيسـتوود وجيمـس ماسـون. وفي قاعـة السـينما، ليـس بعيـدًا عنهـما، كان يجلـس أيضًـا أحـد محـاربي الموسـاد، الـذي رآهمـا وهمـا يتشـاركان كيـس حلـوى قامـا

بشرائـه مـن بوفيـه السـينما. ومـع نهايـة الفيلـم، في السـاعة 22:15، غـادر الاثنـان واسـتقلا حافلـة. فقامـت ماريـان التـي تراقبهـما بملاحقـة الحافلـة في سـيارة التعقـب. بينـما كان فريـق الاغتيـال يجلـس في سـيارة أخـرى. ومـا إن نـزل الرجـل والمـرأة في شـارع بوروبـاكان غاتـا، حتـى توقفـت بالقـرب منهـما عـدة سـيارات. كانـت إحداهـا بيضـاء، قفـز منهـا رجـلان مـن فريـق الاغتيـال. وسـحبا مسدسـا بيريتـا، وأطلقـا 14 رصاصـة عـلى الرجـل الـذي وصـف بأنـه عـلي حسـن سـلامة. دون أن يؤذيـا المـرأة التـي كانـت بجانبـه. وبعـد إطـلاق النـار مباشرة، قفـزا إلى داخـل السيارة وهربـوا مـن المكان. وفي سـيارة التعقـب، سـمعت غلادنيكـوف الرسـالة «لقـد أخـذوه».

كان رؤسـاء الموسـاد وقيسـارية سـعداء بتلقـي نبـأ اغتيـال كبـير زعـماء المنظمـة. وهلـل مايـك هـراري عـلى جهـاز الاتصـال: «لقـد قمتـم بعمـلٍ ممتـاز. الجميـع الآن عائـدون إلى الديـار».

وصلـت سـيارات الشرطـة والإسـعاف عـلى الفـور إلى مـكان الحـادث، إلا أن المسـؤولين عـن اغتيـال سـلامة لم يعـودوا موجوديـن هنـاك. حيـث اتبعـوا عـلى الفـور الإجـراء المعـروف، وهـو أن المنفذيـن هـم دائـمًا أول مـن يفـر مـن المنطقـة. قـام الثلاثـة الذيـن وصلـوا إلى موقـع الاغتيـال في السـيارة البيضـاء بـترك السيارة في ضواحـي البلـدة، والانتقـال إلى سيارة أخـرى. وقـد كانـوا، بحسـب جـوازات سـفرهم المـزورة: «جوناثـان إنجلبـي، ورولـف باهـر (السـائق)، وجـيرارد إميـل لافـون». وفي تلـك الليلـة نفسـها، غـادروا مـع أربعـة محاربـين آخريـن بواسـطة سـيارتي هـروب إلى أوسـلو، ثـم غـادروا

النرويج في اليوم التالي. كما قام تسفي زامير ومايك هراري بمغادرة النرويج دون صعوبة، عن طريق الجو وطريق البحر. وقد تركوا وراءهم عددًا من المحاربين الذين كان عليهم التعامل مع الشقق المستأجرة والمركبات المتبقية، وإخفاء الأدلة على وجود عناصر الموساد في ليلهامر وأوسلو.

لم يكن لديهم أي علمٍ أنه بالقرب من موقع الجريمة، في الحديقة العامة، كان يجلس زوجان شابان يمارسان المعاشرة. وعندما سمعا إطلاق النار، لاحظا إحدى السيارات التي استخدمتها المجموعة، والتي هربت من المكان بسرعةٍ كبيرة. وقد تمكن الزوجان من تسجيل نوع السيارة ولونها ورقمها، وسلما هذه التفاصيل إلى الشرطة. وبحسب أحد أعضاء المجموعة، فقد عاد دان أربيل إلى سيارة العملية المهجورة التي عثر فيها على طرد كان قد تركه في الليلة السابقة، ثم قاد السيارة إلى أوسلو. وفي اليوم التالي، دخل دان أربيل إلى مكاتب شركة التأجير «هيرتز» في مطار أوسلو من أجل إعادة السيارة، بينما بقيت ماريان غلادنيكوف في سيارة بيجو بيضاء، في انتظار أن يقوم أربيل بإنهاء العملية. كان هذا إهمالا من الدرجة الأولى، لأنه في مرحلة الهروب يمنع منعًا باتًّا إعادة السيارات المستعملة في العمليات إلى شركات التأجير. وكان لا بد من التخلي عن هذه السيارات، وحتى يومنا هذا لم يتضح من كان القائد الذي أعطى الأوامر للاثنين بإعادتها.

وبالفعل، في ذات الوقت بالضبط، تم بث وصف السيارة المطلوبة

ورقمهـا عـبر الراديـو، نيابـة عـن الشرطـة. وقـد كان هنـاك سـائقٌ نرويجـيٌ يجلـس في سـيارته خلـف ماريـان، رفـع نظـره أثنـاء البـث عـبر الراديـو، ورأى السـيارة المطلوبـة ورقمهـا. فـما كان منـه إلا أن اتقـد حماسـة، وقـام باسـتدعاء الشرطـة. وتـم القبـض عـلى أربيـل وغلادنيكـوف في الحـال. وقـد تـم اسـتجوابهما مـن قبـل شـتاينر ريفيلـو، وهـو ضابـط تحقيـق في شرطـة أوسـلو، فانهـارا عـلى الفـور. حيـث تبـين أن أربيـل يعـاني مـن الكلوسـتروفوبيا (رهـاب الأماكـن المغلقـة). وقـد أخـبر الشرطـة أنـه عندمـا كان طفـلا، خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة، اضطـر للاختبـاء في القبـو لعـدة أشـهر. ومـا إن أحـضر إلى غرفـة اسـتجواب صغـيرة، حتـى وافـق عـلى التعـاون مـع ضبـاط الشرطـة بـشرط أن يبقـى بـاب الغرفـة مفتوحًـا.

أصيـب محققـو الشرطـة بالذهـول. فقـد كانـوا حتـى تلـك اللحظـة يظنـون أن جريمـة القتـل ارتكبـت بسـبب تجـارة المخـدرات، لكـن تبـين لهـم أنهـا قضيـة تجسـس دوليـة. قـال شـتاينر: «لم نكـن في عـام 1973م نتخيـل أن شـيئًا كهـذا يمكـن أن يحـدث في النرويـج».

قـام غلادنيكـوف وأربيـل باصطحـاب الشرطـة إلى شـقة التأمـين، حيـث كان لا يـزال كل مـن سـيلفيا رافائيـل وأفراهـام جيمـر جالسـان بانتظـار مغـادرة النرويـج. وكان هنـاك إسرائيليـان آخـران في المـكان، همـا مايـكل دور وتسـفي شـتاينبرغ. كانـت سـيلفيا متوتـرة وطالبـت بمغـادرة المـكان عـلى الفـور، ولكـن بمجـرد خروجهـم مـن المبنـى، وجـد المحاربـون أنفسـهم محاطـين برجـال شرطـةٍ نرويجيـين مـع أسـلحة مصوبـةٍ نحوهـم، وتـم اعتقالهـم.

وقد عثر المحققون مع دان أربيل على رقم الهاتف الخاص برجل الأمن في السفارة الإسرائيلية يغآل إيال، والذي تم القبض على محاربين اثنين آخرين في منزله، كما تم إعلان يغآل إيال كشخصيةٍ غير مرغوبٍ فيها وترحيله من النرويج مع عائلته.

واصلت سيلفيا التمسك بهويتها بصفتها باتريشيا روكسبرغ، وروت للشرطة قصة غطاءٍ مفتعلةٍ وملتوية. حيث قالت إنها التقت في إحدى شوارع زيوريخ بليسلي أورباوم (اسم الغطاء الخاص بأفراهام جيمر) والذي كانت تعرفه من قبل، ووافقت على السفر معه جوًّا لقضاء إجازة في أوسلو، حيث قابلت كلا من دان أربيل وماريان غلادنيكوف، ثم تشاجرت مع ليسلي فتركها وهكذا... لم يصدق محقق الشرطة هيرالد رومينغن أي كلمة. غير أن أربيل وغلادنيكوف تصرفا بشكلٍ مختلف، حيث اعترفا على الفور بأنهما عنصرا موساد، وقدما تفاصيل وأسماء حقيقية وعناوين في أوسلو وفي بلدانٍ أخرى وتعليماتٍ سرية وأساليب عمل. كما قدم أربيل رقم هاتف مايك هراري السري في تل أبيب. وقد تسببت شهاداتها بإحراج وضرر كبير للموساد. كما قاما بإعطاء الاسم الحقيقي لباتريشيا روكسبرغ، ومنذ تلك اللحظة وصاعدًا توجه المحققون لها باسم سيلفيا رافائيل.

لكن الفشل الأكبر على الإطلاق، الذي اكتشفه المحاربون، والذي كان السبب في إلقاء القبض عليهم أنهم قتلوا الرجل الخطأ!

* * *

لم يكـن الرجـل الـذي قامـوا بقتلـه تلـك الليلـة في ليلهامـر عـلي حسـن سـلامة. بـل كان أحمـد بوشـيقي. عـربيٌ مغـربيٌ هاجـر إلى ليلهامـر كباحـثٍ عـن عمـل، ثـم وجـد عمـلا كنـادل في أحـد مطاعـم البلـدة. ولم تكـن لـه أي علاقـة بمنظمـة أيلـول الأسـود. أمـا المرأة التـي كانـت برفقتـه في السينما فهـي زوجتـه النرويجيـة توريـل، التـي كانـت في الأشـهر الأخـيرة مـن حملهـا. لقـد أخطـأ محاربـو الموسـاد بالفعـل في تحديـد الهويـة وقامـوا بقتـل رجـلٍ لا ذنـب لـه. وبعـد سـنوات (عـام 1996م) وعـلى الرغـم مـن عـدم اعترافهـا بالذنـب، دفعـت إسرائيـل تعويضًـا لعائلـة بوشـيقي بقيمـة 400 ألـف دولار. لم يتـم توبيـخ أو معاقبـة أو إقالـة أيٍ مـن مسـؤولي الموسـاد، لا هـراري ولا زامـير، كـما لم يتـم تشـكيل أي لجنـة تحقيـق لفحـص أكـبر فشـل في تاريـخ المنظمـة، ولكـن في أعقـاب هـذه القضيـة أمـرت غولـدا مائـير بإيقـاف جميـع عمليـات «غضـب الله» عـلى الفـور. يمكـن للمـرء أن يفـترض بـأن زامـير وهـراري سيسـتقيلان مـن منصبيهـما، إلا أن هـراري لم يسـتقل وكذلـك زامـير لم يفعـل، عـلى الرغـم مـن أنـه ادعـى أن «ليلهامـر كانـت خطـأ لا لبـس فيـه. كان الأمـر محزنـا للغايـة».

احتـاج قـادة الموسـاد زمنًـا طويـلا ليعلمـوا كـم كانـوا قريبـين في الفرضيـات والتخطيـط للعمليـة. حيـث إنـه خـلال عمليـة ليلهامـر، كان عـلي حسـن سـلامة في سـتوكهولم، عاصمـة السـويد المجـاورة. وقـد قـال سـلامة لاحقًـا لصحيفـة «الصيـاد» اللبنانيـة: «عندمـا قامـوا بقتـل بوشـيقي، كنـت في أوروبـا». وقـد عـرف بوشـيقي بأنـه عامـل في حـوض السـباحة. «وجهـه

وجسده لا يتطابقان مع مواصفاتي... لم أنج بفضل مهاراتي، وإنما بسبب ضعف المخابرات الإسرائيلية».

وفي الموساد بدأوا يطلقون على ليلهامر بالعبرية «ليلا مر» أي ليلة مريرة.

* * *

تصدرت الصحف النرويجية والدولية عناوين ضخمة تحدثت عن جريمة القتل في ليلهامر وعن إلقاء القبض على «فريق الاغتيال» الإسرائيلي، فيما لم تنجح جهود الموساد في إطلاق سراح السجناء. وتم تقديم كل من سيلفيا وأفراهام جيمر وماريان غلادنيكوف ودان أربيل ومحارب آخر إلى المحاكمة في أوسلو.

قبل الكشف عن هوية سيلفيا رافائيل الحقيقية، طلبت الشرطة الفرنسية من النرويجيين الإذن بالتحقيق مع باتريشيا روكسبرغ. حيث أنها كانت مشتبهًا بها في المشاركة باغتيال الزعيمين محمد بودية وباسل الكبيسي في باريس، في أبريل/ نيسان ويونيو/ حزيران عام 1973م. وقد رفض النرويجيون ذلك، لكنهم أرسلوا ضابطي شرطة اثنين إلى باريس، حيث قاما بزيارة شقة سيلفيا على ضفاف نهر السين. كانت الشقة فارغة باستثناء زجاجة نبيذ «كالفادوس» ونسخةٍ من صحيفة «لو فيغارو» اليومية صادرة بتاريخ 23 يونيو/ حزيران عام 1973م، أي في اليوم السابق

لاغتيـال بوديـة. وقـد توصـلا إلى أن باتريشـيا ربـما تكـون قـد شـاركت في العمليـة، ثـم سـافرت بعدهـا عـلى الفـور إلى تـل أبيـب لبضعـة أسـابيع قبـل مغادرتهـا إلى النرويـج، لكنهـما لم يعثـرا عـلى أي دليـل يثبـت تلـك الروايـة.

في السـجن، شـعرت سـيلفيا بخيبـة أمـلٍ عميقـة مـن أصدقائهـا في الموسـاد، ابتـداء مـن سـوء التخطيـط والتنفيـذ، إلى انعـدام خـبرة الفتـاة والمحـارب اللذيـن تـم إقحامهـما في العمليـة، وإلى الطريقـة غـير المحترفـة في تحديـد الهويـة، وإلى أنهـا منـذ بدايـة اعتقالهـا لم يـأت لزيارتهـا أحـد، وكأن إسرائيـل قـد تخلـت عنهـا تمامًـا. وبعـد بضعـة أشـهر، أفرغـت شـعورها بالوحـدة في الكتابـة، برسـالة إلى أفراهـام جيمـر: «أنـا متأكـدةٌ مـن أنـه كان مـن الممكـن تجنـب هـذا التـورط المحـرج. شيء مـا بداخـلي قـد كـسر بعـد ليلهامـر... لقـد فقـدت الكثـير مـن بهجـة حيـاتي، ومـن الرغبـة في الاسـتمرار بالخدمـة مـع الأشـخاص الذيـن كنـت أقدرهـم. لقـد كانـوا بالنسـبة لي أبطـالا لا مثيـل لهـم، أشـخاصًا ذوي مكانـةٍ عظيمـة، وفجـأة بـدوا مختلفـين بالنسـبة لي. يـا لـه مـن شيء مؤسـف».

لكـن يبـدو أن رسـالتها قـد وصلـت إلى شـارع شـاؤول الملـك في تـل أبيـب، إذ أنهـا بعـد أيـام

قليلـة تلقـت رسـالة غـير موقعـة مـن الموسـاد، تضمنـت قصيـدةً مهـداة لهـا، غـير موقعـةٍ أيضًـا. ولم تتمكـن أبـدًا مـن معرفـة صاحـب القصيـدة:

مثل مكنسةٍ كهربائيةٍ كبيرة
كذلك يستوعب الموساد
شخصيات من جميع الأنواع
أشخاصًا من أفضل الناس

مجموعةٌ متنوعةٌ ورائعة من النساء
ونخبةٌ متميزةٌ من الرجال
جميعهم محترفون رائعون
وقبل كل شيءٍ محاربون مخلصون

كل واحد منهم مصممٌ على النجاح
على الوصول إلى أي هدف
إنهم يتعلمون شم رائحة
الآثار في الظلام

وهناك منهم محاربةٌ واحدة
جميلةٌ وذكيةٌ وحاذقة
لكنها تعاني من عيب
بارزٍ وكبير

إنها تعتقد أننا جميعا

لا مثيل لنا في الكمال

هي تعتقد أننا

رسل الله فحسب

فلتذهب وتشرح لها بشكلٍ واضحٍ وجميل

أن كل واحد منا في البر والبحر

مهما كان موهوبًا

فهو مجرد إنسان

اذهب واشرح أننا أيضًا لم نهبط من السماء

وأن لدينا كذلك عيوبًا وسلبيات

وأنه ليس لدينا أي أجنحة

وأننا أيضًا معرضون لارتكاب الأخطاء

* * *

مع معاناتها في السجن، تم نقل والد سيلفيا إلى المستشفى في جنوب إفريقيا، وتوفي بعدها ببضعة أيامٍ إثر نوبةٍ قلبية. آلمها أنها لم تستطع التحدث معه في أيامه الأخيرة. لكن الأيام كانت حبلى بالمفاجآت. لقد جاءت والدتها وأحد إخوتها، جوناثان، من جنوب إفريقيا البعيدة للوقوف إلى جانبها ودعمها. الآن فقط اكتشفوا ما كانت تفعله كل هذه السنوات، وفهموا أخيرًا مغزى الصمت وكثرة السفر، ورفضها إعطاءهم رقم هاتفها أو عنوان سكنها. لقد كان لقاءً مؤثرًا.

عندما قُدمت للمحاكمة، لم تذكر سيلفيا أي شيءٍ عن علاقتها بالموساد وحافظت بشدة على الأسرار الكثيرة التي سادت قصة حياتها. وقد قام المحامي النرويجي «أنوس شودت» بالدفاع عن سيلفيا بشراسة، وتعرّف عليها وتواصل معها، ثم تقاربا تدريجيًّا. محاربة الموساد ذات الـ37 ربيعًا، والمحامي النرويجي البالغ من العمر 54 عامًا، والذي يملك زوجة وأولادًا. كانت العلاقة بينهما مصدر قوةٍ لسيلفيا، التي حُكم عليها بالسجن لمدة خمس سنوات ونصف. كما صدر حكمٌ مماثل على أفراهام جيمر وعقوباتٌ أخف على كلٍ من ماريان غلادنيكوف ودان أربيل.

تحسنت حياة سيلفيا كثيرًا بعد صدور الحكم. فقد تم نقلها إلى سجن النساء، حيث حصلت على شقةٍ حقيقية. وكثيرًا ما زارها في السجن مستشار السفارة أليعازر بالمور. وجاءت من إسرائيل يهوديت ناسياهو، التي كلفها الموساد بالتواصل مع السجناء. كما أن الأخ ديفيد، الذي أتى إلى إسرائيل كمتطوع، سافر أيضًا إلى أوسلو لرؤيتها. حتى الكاتب إفرايم

كيشـون، الـذي جـاء إلى أوسـلو بمناسـبة عـرض فيلمـه «الشرطـي أزولاي»، تـم السـماح لـه بلقائهـا.

أحيطـت سـيلفيا أيضًـا بحـبٍ آخـر مـن نـوعٍ مختلـف. فـما إن أصبـح اسـمها معروفًـا وتـم نـشر تفاصيـل فرديـةٍ عـن الأدوار التـي قامـت بهـا، حتـى أُرسـلت الكثـير مـن رسـائل الإعجـاب والمـودة مـن إسرائيـل إلى السـجن. وقـد قـررت «كيبوتـس رامـات هكوفيـش»، التـي كان يعمـل فيهـا شـقيقها ديفيـد مؤقتًـا كمتطـوع، أن تتبناهـا وتصبـح منزلهـا الدافـئ عنـد إطـلاق سراحهـا. وكانـت عائلـة زامـير هـي التـي تبنـت سـيلفيا رافائيـل.

خرجـت سـيلفيا مـن السـجن في مايو/ أيـار عـام 1975م، بعـد سـنةٍ وعـشرة شـهور. فيـما طلّـق أنـوس زوجتـه، ثـم تـزوج الاثنـان. وأمضيـا سـويةً عقـودًا مـن الزمـن، في جنـوب إفريقيـا والنرويـج وإسرائيـل. وعاشـا لفـترةٍ في شـقةٍ في تـل أبيـب ولبضعـة أشـهرٍ في كيبوتـس رامـات هكوفيـش، حيـث أصرّا عـلى العمـل في الزراعـة مثـل بقيـة الأعضـاء. كانـت سـيلفيا قريبـةً جـدًّا مـن أعضـاء الكيبوتـس، وكثـيرون يتذكرونهـا كيـف كانـت تتوجـه إلى العمـل صباحًـا وهـي تقـود دراجتهـا الهوائيـة. وقـد كانـت حياتهـا العائليـة سـعيدة للغايـة، رغـم أنهـا تخلّـت عـن حُلمهـا في إنجـاب الأطفـال. قالـت لصديقتهـا سـارة روزنبـاوم وهـي تبتسـم: «هـذا هـو الثمـن الـذي كان عـليّ أن أدفعـه».

تـألم قلـب سـيلفيا بسـبب قضيـة ليلهامـر، ولم تعـد مجـددًا إلى الموسـاد. وكذلـك صديقهـا ومدربهـا أفراهـام جيمـر، أصيـب بجـرحٍ عميـقٍ لأن أحـدًا

لم يـر أنـه مـن المناسـب تشـكيل لجنـة تحقيـقٍ حـول مـا حـدث في شـهر يوليـو/ تمـوز ذلـك في البلـدة النرويجيـة. وقـد غـادر أفراهـام جيمـر الموسـاد، وغـيّر اسـم عائلتـه إلى إيتـان، وعمـل حتـى وفاتـه في تربيـة الـورود والأزهـار في موشـاف بيتسرون.

خـرج دان أربيـل مـن السـجن مجروحًـا أيضًـا، لكـن الضحيـة الرئيسـة كانـت ماريـان غلادنيكـوف. حيـث تـم طردهـا مـن الموسـاد، وعـادت إلى مهنتهـا – مهندسـة برمجيـات – وظلّـت وحيـدة وكئيبـة طـوال حياتهـا. وقـد أعربـت عـن اعتقادهـا بأنـه كان ينبغـي على تسـفي زامـير أن يسـتقيل في أعقـاب الفشـل، لكـن زامـير زعـم أنـه: «لـو اسـتقال مايـك هـراري، لاسـتقلت معـه». كلاهمـا، الصديقـان منـذ أيـام البلمـاح، اسـتمرا في منصبيهـا. ومـع ذلـك، يبـدو أن الفشـل في ليلهامـر كان سـببًا في عرقلـة صعـود مايـك هـراري، ومنـع تعيينـه الـذي كان يبـدو واضحًـا كرئيـس للموسـاد بعـد رحيـل زامـير عـام 1974م.

أصيبـت سـيلفيا بسرطـانٍ عضـال، وأخـذ جسـدها يـذوب تدريجيًّـا مـن ويـلات المـرض، لكنهـا اعتـادت المـزاح قائلـةً: «لقـد حافظـت طـوال حيـاتي عـلى نظـامٍ غذائـي لفقـدان الـوزن، والآن لم أعـد بحاجـةٍ لبـذل الجهـد». مـات أنـوس في عـام 2014م. أمـا سـيلفيا فقـد توفيـت قبلـه، حيـث ماتـت في جنـوب إفريقيـا عـام 2005م. وطلبـت قبـل وفاتهـا أن تدفـن في كيبوتـس رامـات هكوفيـش.

قـال مايـك هـراري في مراسـم تأبينهـا، ملتزمـا بالضوابـط المقبولـة في

وسائل الإعلام: «هي لم تكن عميلة، بل كانت فردًا في قيسارية ذات عرقٍ نبيل، تم الاعتماد عليها لتكون محاربةً في العديد من البلدان المستهدفة، سواءً منفردة أو مع زميل».



(16)

دانييل: جاسوسان عاشقان

باريس عام 1973م، أواخر حرب يوم الغفران (حرب تشرين التحريرية/ حرب أكتوبر).

في ذلك المساء نهض مايك هراري من مكانه وفتح الباب، على صوت طرقاتٍ متفق عليها. دخل الشقة الآمنة رجل قزمٌ أشقر. حدقت عينا دانييل (اسم مستعار) به.

قال مايك: «هذا هو خوليو. وهذه تمار». كان تمار هو لقبها في الموساد.

قال خوليو بلُكنةٍ أمريكيةٍ جنوبيةٍ خفيفة: «مرحبا. يسرني لقاؤك».

توجه مايك إلى دانييل بالكلام: «خوليو سيكون زوجك في مصر».

وكانت مستعدة. فعندما قاموا بإرسالها إلى باريس، في الأيام الأولى من حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر)، أطلعها قادة قيسارية بأنها ستُرسل من فرنسا إلى القاهرة بوصفها «زوجة» لمحاربٍ يقيم في مصر

منذ فترةٍ طويلة. إذ كان بحاجة للمساعدة والتشجيع، وكان من المهم أن تلحق به محاربةٌ لتؤدي دور زوجته.

خضعت في باريس لتحضيراتٍ مكثفة للدور وحفظت قصة حياتها التي تم إعدادها لها. لقد كانت تعلم أنه يجب عليها الوصول إلى مصر بأسرع ما يمكن، حيث كانت هناك مخاوف حقيقيةٌ في إسرائيل من العواقب المحتملة للهجوم المفاجئ في الجولان وسيناء.

فوجئت إسرائيل بالهجوم المشترك لمصر وسوريا في يوم الغفران. وقد كانت بحاجةٍ ماسة، أثناء الحرب وبعدها، إلى معلوماتٍ استخباراتية موثوقة من مصر، فقام الموساد بتشغيل أفضل محاربيه هناك.

بعد الاجتماع في الشقة، التقت بخوليو مرةً أخرى لتناول طعام الغداء وإجراء محادثةٍ طويلة. أخبرها خلالها عن أسلوب حياته وعن منزله الفاخر في حي الزمالك. وقال لها إنه كان بالفعل يقيم في القاهرة منذ عدة سنوات، وأنه يدير شركةً كبيرة هناك، وهي فرع لشركةٍ أوروبيةٍ معروفة.

بعد بضعة أيام، وبعد أن قاما بشراء أدوات ومنتجات «منزل العائلة»، وحصلا على وثائق زواجٍ مزورة، صعدا معًا على متن طائرة ركاب، في طريقهما إلى القاهرة.

* * *

كانت هذه هي المهمة الأولى لدانييل. التي كانت قد وُلدت في بلدةٍ جميلةٍ في فرنسا، والتحقت بمدرسة للبنات مع 2000 فتاة أخرى، وكانت بالفعل استثنائية في شبابها. موهوبة، حادة، ومتفوقة في حصة المسرح. كانت لديها أختان، إحداهما «ملاك الصمت»، كما كانت تسميها، لديها إعاقة في دماغها. وقد تعلمت دانييل منذ طفولتها ألا تدعو الأصدقاء إلى المنزل، وأن لا تتحدث عن مرض أختها، وأن تعرف كيف تخفي الأشياء التي لا ينبغي الكشف عنها. وعندما تطلّق والداها أرادت الهجرة إلى إسرائيل، لكن في تلك الأيام كان سن الرشد في فرنسا 21 عامًا، ولم تكن تستطيع أن تفعل أي شيءٍ بمفردها قبل بلوغ ذلك السن. فانتقلت إلى باريس والتحقت بجامعة السوربون، كما شاركت في انتفاضة الطلاب في مايو/ أيار عام 1968م وتظاهرت في شوارع باريس مع مئات الطلاب الذين كانوا يناضلون من أجل استقلالهم وحريتهم. وعندما جاء إلى باريس البروفسور ساول فريدلاندر قادمًا من إسرائيل، اقتربت منه بعد محاضرته وسألته: «متى أهاجر إلى إسرائيل، الآن فورًا أم بعد الحصول على درجة البكالوريوس؟»

«على الفور» نصحها البروفسور.

هكذا هاجرت إلى إسرائيل. حيث تم قبولها في الجامعة العبرية في السنة الثانية لدراسة العلوم السياسية والعلاقات الدولية، وأقامت في السكن الطلابي مع شابةٍ أمريكية، كما شكلت حولها دائرة من الأصدقاء الأنجلوسكسونيين والأمريكيين الجنوبيين. وقد قالت: «قطعت

علاقتي بالفرنسيين وقتذاك. نصف الطلاب الفرنسيين كانوا أعضاء في «متسبين»[1]، ونصفهم الآخر في حركة بيتار[2]. بينما أنا كنت يسارية، فلم أجد مكانًا لي بينهم».

وفي يومٍ ما وصلت إلى السكن الطلابي. كانت الرسالة مرسلة لها من قبل «مكتب التعاون الدولي»، حيث طُلب منها الاتصال برقم هاتفٍ معينٍ لتحديد موعد لقاء في تل أبيب. في البداية ظنت أنها كانت مزحة، لكن أحد الطلاب الذين كانت تعرفهم قام بفحص الرسالة، وقال لها: «انظري، يظهر هنا شعار الدولة، ربما هذا أمرٌ جاد».

نزلت إلى تل أبيب، حيث كانت والدتها قد وصلت للتو من فرنسا، وذهبت معها للبحث عن فستانٍ جادٍ ولائق للاجتماع. كان الرجل الذي قابلته يجلس في مكتب صغير في «الكرياه» بتل أبيب، وقد قام باستجوابها وسؤالها عن سيرتها الذاتية، وبعد ساعة من التحقيق معها، سألها: «إذا أخبرتك أن هناك دورًا لا يستطيع طيارونا القيام به، كما لا يمكن لمظليينا تأديته، فيما أنت تستطيعين القيام به، فماذا تقولين؟»

في البداية قالت: «نعم!» ثم بعدها سألت: «عم يدور الأمر؟»

أجابها: «أن تكوني عيننا في أرض العدو».

---

(1) متسبين: المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية.

(2) حركة بيتار: تحالف الشباب العبري.

فعادت وقالت: «نعم!»

جعلها الرجل توقع على وثائق، وحدد لها وسائل الاتصال، وطلب منها أن تقطع كل علاقاتها مع معارفها وأصدقاءها، والطلاب الذي كانت تدرس معهم. كما طلب منها أيضًا أن توقف دراستها، وأخبرها أن أحد شروط قبولها هو أن لا تتزوج خلال السنوات الخمسة المقبلة.

لماذا يقومون بتجنيدي؟ سألت نفسها، وأخذت تخمن الإجابة – لأنني أعرف بعض اللغات. لأنني أملك جواز سفر أجنبي. لأنني ذكيةٌ بما فيه الكفاية للخروج من المواقف غير المتوقعة. كانت تنتظر إخضاعها لدورةٍ تدريبيةٍ لمحاربي الموساد، ولكن قبل أن تبدأ، تمت دعوتها إلى اجتماع في تل أبيب، وأدخلوها إلى غرفة كان يجلس فيها «جميع عظماء العقيدة» في الموساد، فطرحوا عليها الأسئلة واستجوبوها مرارًا وتكرارًا. وفي نهاية المطاف قال لها أحدهم: «انظري، أنت لا تزالين صغيرة. عودي للدراسة، وعندما تنتهين تعالي إلينا. ثم بعد أن تنهي الخدمة لدينا، سيكون بإمكانك أن تتزوجي وتُكوّني أسرة».

لكنها قالت: «مستحيل. عمري الآن 22 عامًا. وستأخذ مني الدراسة ثلاث سنوات أخرى. ثم سآتي إلى الموساد وأنتم تطلبون مني أن لا أتزوج لمدة خمس سنوات. وبذلك سأبلغ سن الثلاثين. وفي سن الثلاثين لا يتزوجون».

انتهى الاجتماع، وعادت إلى القدس معتقدةً أن الأمر قد انتهى، لكنه لم يكن كذلك. فبعد بضعة أشهر، تلقّت برقيةً للذهاب إلى عنوانٍ

محدد، وهكذا بدأت دورةً تدريبيةً خاصة بمحاربي قيسارية. وقد أعجبتها الدورة، وكذلك المهمات التي كُلفت بها. قاموا بإعدادها لتكون مصورةً صحفية، كما التقت أثناء التدريبات بسيلفيا رافائيل التي كانت على وشك إنهاء أنشطتها في باريس. وقد نشأت علاقة قوية بين الاثنتين حيث رأت في سيلفيا «أختًا كبيرة». وفي أحد الأيام، قاموا بإرسالها لإجراء مقابلة صحفية مع إحدى زعيمات فيتسو[1]، لصالح «صحيفة بلجيكية». فذهبت، ولم تتمكن فقط من جعل المرأة تتحدث، بل حصلت منها أيضًا على وصفتها لكعكة الجبن. وعندما أحضرت الوصفة لمشغليها، قال لها أحدهم: «لقد حصلت اليوم على الوصفة من رئيسة فيتسو، وغدًا قد يكون ذلك من جيهان السادات».

كانت مهمتها الأولى مع مايك هراري. حيث سافرا جوًّا إلى عاصمة أوروبية، تتحدث الفرنسية، وتم تكليفها باستئجار شقةٍ بوصفها طالبةً تنوي الدراسة هناك. كانت مهمةً سهلة، لكنها قضت خلالها ساعات طويلة في التحدث إلى هراري، الذي بدا أنه قد أعجب بها. وفي عام 1973م، عندما اندلعت حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر)، انطلقت إلى وجهتها الأولى. وقد أخبرت والدتها أنها مسافرةٌ إلى إفريقيا لصالح وزارة الخارجية. غير أنه كان ينبغي عليها التعامل مع مهمة غير تقليدية- أن تنتحل شخصية الزوجة الجديدة لخوليو، وهو محاربٌ إسرائيلي في القاهرة.

وعلى متن الطائرة التي كانت تقلّهم إلى مصر، قال لها خوليو:

(1) فيتسو: المنظمة النسائية الصهيونية العالمية.

«سترين شقتي الجميلة في القاهرة، لقد قمت بإعداد غرفة منفصلةٍ من أجلك».

شعرت بالغيظ. «ما هذا؟ ما هذا النقاء؟ وأين هو المنطق؟ هل تقوم بإحضار عروس إلى المنزل وتضعها في غرفةٍ منفصلة؟ لديك خدم في المنزل، أليس كذلك؟ إذا رأوا أن زوجة السيد تعيش في غرفة منفصلةٍ منذ لحظة وصولها - فسيقومون بإبلاغ السلطات على الفور. أنا على استعدادٍ لأن يتم إلقاء القبض عليّ ووضعي في السجن بسبب خطأ أرتكبه، ولكن ليس بسبب مثل هذا الهراء. أنظر، لقد شاركت في انتفاضة الطلاب عام 1968م[1]، ولست أخشى أن أكون معك في نفس الغرفة ونفس السرير».

وهكذا تم الاتفاق على أن يبيت السيد والسيدة في نفس الغرفة.

* * *

تدريجيًّا، تعرفت على القاهرة، بكل جمالها وميادينها وشوارعها المزدحمة، وعلى أطلال الماضي المجيد في آثار الجيزة، وعلى نهر النيل، ولكن أيضًا على معسكرات الجيش، ونقاط التفتيش، والشعارات المشبعة

---

(1) أحداث مايو 1968: اضطراباتٌ مدنية اجتاحت جميع أنحاء فرنسا ابتداءً من مايو عام 1968. استمرت نحو سبعة أسابيع وتخللتها المظاهرات والإضرابات العامة واعتصامات الجامعات والمصانع. توقفت حركة الاقتصاد الفرنسي في ذروة تلك الأحداث، مما أثار خوف القادة السياسيين من اندلاع حربٍ أهليةٍ أو ثورة؛ وتوقفت الحكومة الوطنية لفترةٍ قصيرة عن العمل بعد أن فرّ الرئيس شارل ديغول سرًا من فرنسا إلى ألمانيا.

بالكراهية لإسرائيل، والتي صرخت من الملصقات الموضوعة على الجدران في كل مكان. وبينما كانت الجماهير تتابع قصص النصر المجيد على الجيش الإسرائيلي، أخذ خوليو تمار إلى «صحارى سيتي»، وهي خيمةٌ كبيرةٌ مع موسيقى وطعامٍ وأغانٍ عربية ورقص شرقي. وقد رأته يضرب على فخذه وفقًا لإيقاع الأغاني، وشعرت أنه متجذر بالفعل في حياة القاهرة. ثم في الأيام التالية، قام بتعريفها على أصدقائه - دبلوماسيون ورجال أعمال أجانب، ومصريون من الطبقة الراقية، وعسكريون وموظفون حكوميون كبار، من الذين كانوا يحبون قضاء الليالي في النوادي الليلية المرموقة في القاهرة. كما أرادت أيضًا مرافقة خوليو إلى نوادي ركوب الخيل، كونها كانت في إسرائيل معتادة على الركوب في قيسارية، لكن هذا الأمر كان ممنوعًا عليها لأنها قد تعرفت في إسرائيل على عدد لا بأس به من السياح الذين ركبوا معها، بل إنها في إحدى المرات ذهبت في رحلة لمدة يومين مع سائح أجنبي، كان فارسًا مخضرمًا وذو خبرة. كان مشغلوها يخشون أن تصادف أحد هؤلاء السياح الذين قد يأتون أيضًا في رحلاتهم إلى القاهرة. إذ أن التعرّف على هويتها قد يقودها مباشرة إلى حبل المشنقة.

كما اكتشفت تدريجيًّا أيضًا السبب في إرسالها على وجه السرعة لتكون إلى جانبه. فقد اتضح أن لخوليو عشيقة، هي ابنة دبلوماسي أوروبي في القاهرة. وقد وصلت العلاقات الساخنة بينهما إلى درجة أن خوليو تلقى أوامر لا لبس فيها من البلاد لقطع علاقته مع الفتاة. فقام بذلك بالفعل، لكن الانفصال القسري قد افترس أفكاره ومشاعره. وبالإضافة

إلى هـذه العلاقـة، فقـد اقتنـع مشـغلوه بحقيقـة أن أداءه قـد تأثـر بسـلوكه خلال الأشـهر الأخيرة، وشـعرت دانييـل أنـه كان يعـاني مـن الإرهـاق الـذي يبـدو أنـه نبـع مـن إقامتـه الطويلـة في مـصر وأسـلوب حياتـه المضطـرب. لقـد كان مـن المفـترض أن تعمـل إلى جانبـه، وأن تتـولى القيـام بعمليـاتٍ معقـدة، ولكـن أيضًـا أن تقـوم بتقويتـه وتعيـد حياتـه إلى مسـار منتظـم إلى حـد مـا.

إلا أن ذلـك لم يكـن بهـذه البسـاطة. حيـث لم يفهـم أصدقـاء خوليـو كيـف انقطعـت علاقتـه مـع صديقتـه فجـأة، بـل وأحـضر مـن إجازتـه في أوروبـا امـرأةً مجهولـة زعـم أنـه تزوجهـا للتـو. كان لديهـا انطبـاعٌ بأنهـم كانـوا ينظـرون إلى بطنهـا باسـتمرار، ويتسـاءلون عـما إذا كان خوليـو قـد جعلهـا حامـلا واضطـر أن يتزوجهـا، وهـذا هـو حـل اللغـز. فـما كان منهـا إلا أن لعبـت دور المـرأة السـاذجة الغبيـة، وأخـبرت الجميـع أنهـا اعتـادت أن تلتقـي بخوليـو خـلال إجازاتـه في أوروبـا، وبمجـرد أن عـرض عليهـا الـزواج، قالـت «نعـم» عـلى الفـور.

وبعـد بضعـة أشـهر، عـادت إلى باريـس لتقديـم تقريـر إلى هـراري عـن النشـاطات. وعندمـا سردت لـه أعـمال خوليـو، انفجـر هـراري غاضبًـا: «لقـد أرسـلت تمـار إلى هنـاك فحصلـت عـلى ‹خوليتـا› (عـلى وزن خوليـو). أريـد أن أسـمع عـما تفعلـه تمـار!»

وبالفعـل، تولـت زمـام الأمـور بنفسـها، وسرعـان مـا بـرزت في العمليات الاسـتخباراتية. وقـد انضمـت إلى جولـة لأوروبيـين في مدينـة السـويس،

وزارت المتحـف الحـربي هنـاك وشـاهدت، في ذلـك الوقـت، الدبابـات وناقـلات الجنـود الإسرائيليـة، غنائـم حـرب يـوم الغفـران (حـرب أكتوبـر). وبقصـد الحصـول على معلومـاتٍ عـن الأسرى والمفقوديـن، التقطـت صـورًا إلى جانـب العربـات المدرّعـة، كـما حرصـت على أن تضـم الصـور أيضًـا أرقـام المركبـات. وقـد أصابتهـا القشـعريرة عندمـا نظـرت إلى داخـل الآليـة ورأت بقـع الـدم التـي جفـت... في القاهـرة، قـادت سيارتها الصغـيرة مـرارًا وتكـرارًا إلى منطقـة المقـرات العسـكرية؛ مـن أجـل التأكـد إذا مـا كانـت مـصر حقًّـا تسـتعد لحـرب جديـدة: هـل هنـاك نقـاط تفتيـش، تحـركاتٌ عسـكرية، مناطـق وطـرقٌ مغلقـة؟ كانـت تراقـب مبـاني هيئـة الأركان العامـة للإبـلاغ عـما إذا كانـوا ينـيرون الأضـواء حتـى وقـتٍ متأخـرٍ مـن الليـل. كـما كان ينبغـي عليهـا أيضًـا أن تكـون حـذرة للغايـة مـن حـراس أبـواب المبـاني السـكنية، الذيـن كان يطلـق عليهـم بوّابـون. حيـث كان أولئـك البوابـون يجلسـون طـوال اليـوم بجانـب الأبـواب ويشـاهدون حركـة السـيارات. فـإذا مـا اكتشـفوا أن نفـس المـرأة الأجنبيـة في نفـس السـيارة تمـر بالمـكان مـرارًا وتكـرارًا، فقـد يشـتبهون أن هنـاك شـيئًا مـا غـير صحيـح ويتصلـون بالسـلطات.

ومـع ذلـك، فـإن حقيقـة أنهـا هـي وخوليـو تصرفـا كزوجـين قـد سـهلت عملهـما إلى حـدٍ كبـير. إذ أنـه في حـين أن الرجـل الـذي يتجـول بمفـرده ليـلا في أماكـن حساسـةً قـد يثـير الشـك، فـإن ذلـك ليـس هـو الحـال مـع زوجـين يسـيران في الشـارع أو يجلسـان في سـيارة. وحتـى عندمـا كانـت وحدهـا في الشـارع، كانـت تعلـم أنهـا سـتثير شـبهاتٍ أقـل. وقـد قالـت: «عندمـا يـرون

رجلا يقف ليلا في زاوية الشارع، فإنه قد يثير الشكوك. ولكن إذا ما رأوا امرأة بمفردها، فإنهم يسألونها إن كانت تحتاج للمساعدة».

انطلقت إلى جانب خوليو في رحلتها الأولى على «الطريق الصحراوي الجديد» الذي تم شقه بين القاهرة والاسكندرية، وقامت بإرسال التقارير إلى البلاد عن منشآت ومعسكرات الجيش التي على الطريق. كما خرجت في جولةٍ ليليةٍ مع خوليو في منطقةٍ سرية، حيث أوقفهما ضابطٌ على نقطة تفتيش، وسألهما: «إلى أين أنتما ذاهبان؟» فقالت له اسم ملهى ليليّ مشهور. ظل يحدق فيها بريبة. فنظرت له نظرةً ساذجة، وقالت: «لماذا تركتم الملهى هناك؟» ثم علقت: «لقد كان الأمر مملا للغاية هناك». هكذا سمح لهما بالمرور دون أن يفحص السيارة. وتذكرت بعد سنوات: «لو كان قد قام بالفحص، لوجد جميع الأشياء التي لم يكن ينبغي أن تكون هناك».

كانا يعيشان معًا في القاهرة، لكن عندما «يذهبان في إجازة» إلى أوروبا ومن هناك إلى إسرائيل، كان ينفصلان ويذهب كل واحدٍ في طريقه. وقد كانت تخشى أن يتم التعرف عليها في أي من المطارات، فكانت تتجول بقبعةٍ ونظارات، وتعلمت عدم الرد على من يتوجه إليها باللغة العبرية. وحتى عندما تصل إلى إسرائيل، كانت تفضل أن تحبس نفسها في المنزل، باستثناء الذهاب مرة واحدة لتناول العشاء لدى تسفي زامير وزوجته. كما كانت تخشى أن تلتقي بأصدقاء من الجامعة، لئلا تضطر إلى الكذب حول حياتها وأعمالها. وفي مكاتب الموساد، كانت تنتظرها كومة من

الرسـائل التـي كتبتهـا لهـا والدتهـا، وكان ينبغـي عليهـا كتابـة كومـة مـن رسـائل الـرد، التـي سـتصل، بالطبـع، في أوقـات مختلفـة. فيـما لم تفهـم والدتهـا عـلى الإطـلاق سـبب وصـول الإجابـات عـلى رسـائلها السـابقة بعـد أن يكـون قـد تـم بالفعـل إرسـال عـدد مـن الرسـائل إليهـا مـن عواصـم إفريقيـة مختلفـة.

* * *

عندمـا التقـت بخوليـو مـرة أخـرى في المطـار، رأت أنـه قـد أصابـه تغيـيرٌ جـذري، إذ قـال لهـا بحنـان: «اشـتقت إليـك»، وكشـف لهـا أنـه كان يفكـر بهـا طـوال الوقـت الـذي قضيـاه خـارج القاهـرة. فـما كان منهـا إلا أن أخـذت زمـام المبـادرة وأحدثـت نقطـة تحـول في «حياتهـا الزوجيـة». لقـد اعتـادت عـلى العيـش مـع خوليـو، وتعلمـت أن تحبـه، كـما أن الحيـاة المشـتركة المليئـة بالتوتـر والانعـزال والخـوف مـن الأخطـار مـن جميـع الجهـات والعمليـات الجريئـة أدت إلى تقويـة العلاقـة بينهـما. وقـد خاطبتـه بكلـماتٍ مبـاشرةٍ وواضحـة، فقالـت: «نحـن نعيـش معًـا، دعنـا نأخـذ الأمـر حتـى النهايـة. لنـرى مـا الـذي سـنجنيه منـه». وهكـذا، أضيفـت الحيـاة الجنسـية أيضًـا إلى تجربتهـم الحياتيـة المشـتركة، وسرعـان مـا اشـتعل حـبٌّ شـديدٌ بينهـا وبـين خوليـو. وبـدآ في الحديـث عـن العيـش معًـا حتـى بعـد العـودة إلى إسرائيـل، عـن زواج حقيقـي. لقـد كانـت تعلـم أنـه سـبق وأن كان لـه صديقـة في البـلاد، لكنـه انفصـل عنهـا منـذ زمـن بعيـد. وكل مـا كانـت تريـده الآن هـو الـزواج منـه والعيـش معـه بقيـة حياتهـا.

عـادت إلى إسرائيـل بعـد عـام ونصـف، تسـبق خوليـو بفـترة قصـيرة. وكـما تحدثـت مـع خوليـو، فقـد توجهـت إلى المشرفـين عليهـا وطلبـت الإذن بالـزواج منـه. غـير أن جوابهـم كان حاسـما: لا! قـال لهـا مايـك هـراري إن الـزواج الوهمـي كان مخصصًـا لأنشـطة الاثنـين في القاهـرة، لكـن العلاقـة يجب أن تنتهـي هنـا. فتملكهـا الغضـب وتمـردت وبـدأت صراعًـا عنيفًـا عـلى جميع المسـتويات. كـما توقعـت أيضًـا أن ينضـم خوليـو إلى معركتهـا بعـد عودتـه.

وهنـا كانـت خيبـة الأمـل الثانيـة التـي حطمـت قلبهـا. وصـل خوليـو - ولم يحـارب. لم يقـف إلى جانبهـا ولم يطلـب الإذن بالـزواج منهـا. لقـد كانـت عـلى اسـتعداد للذهـاب «حتـى النهايـة» في نضالهـا، لكـن خوليـو تلـكأ وارتـدع. في مـصر، أقسـما لبعضهـما البعـض أنهـما سـينتقلان للعيـش معًـا في إسرائيـل، ولكنـه الآن يرفـض بحجـة أنـه ينبغـي عليهـما انتظـار وصـول الحاويـة التـي تضـم متعلقاتهـما الشـخصية، ثـم وجـد أعـذارًا أخـرى. هـي لم تفهـم السـبب وراء ذلـك. فبعـد أن أحبتـه مـن كل قلبهـا، لمـاذا هـو يتهـرب الآن؟ وفي نهايـة المطـاف، اسـتأجرت شـقةً بمفردهـا، فيـما ابتعـد هـو عنهـا. كـما غـادر الموسـاد أيضًـا. وفي هـذه الأثنـاء، ترقـت في سـلم الوظائـف، فبـدأت كمترجمـة مـن اللغـة الفرنسـية إلى العبريـة، ثـم تـم تعيينهـا كمدربـةٍ كبـيرةٍ في قيسـارية. وعندمـا انعقـد مؤتمـر قيسـارية، اسـتجمعت شـجاعتها واتصلـت بخوليـو. وقالـت لـه: «يجـب أن نظهـر هنـاك معًـا».

فأكـد: «بالطبـع. سـأتواصل معـك قبـل المؤتمـر، وآتي لاصطحابـك لنذهـب إلى هنـاك سـويًّا».

لكنه لم يتصل، ولم يأت. وقد ذهبت إلى المؤتمر لوحدها.

التقت لاحقا برجلٍ آخر، استحوذ على قلبها. وقرر الاثنان الزواج. وقبل وقت قصير من الزفاف، قال لها رامي (اسم مستعار)، زوجها المستقبلي: «تخيلي أنك اليوم، أو غدًا، سمعت أحدهم يطرق الباب، ففتحت، ووجدت خوليو يقف أمامك وبيده باقة من الزهور فيقول لك ‹لقد كنت مخطئًا، دعينا نتزوج›، ماذا كنت ستفعلين؟»

أجابت: «كنت سأتزوجه على الفور!»

كان كلامها قاسيًا، لكن رامي سامحها. وقد تزوجا وعاشا معًا لمدة 45 عامًا، ورزقا بأبناء وأحفاد. ولكن عادات الموساد لم تنته. فعندما سافرت دانييل مع ابنتها إلى خارج البلاد، وفي أحد المطارات، توجهت البنت إلى والدتها وقالت: «أمي؟» لكنها لم تجب ولم تلتفت.

وخوليو؟ لقد وصلت إليها شائعات بأنه تزوج من صديقته السابقة، وأنجبا ابنتين اثنتين، لكنه لم ينجح في التعامل مع الحياة خارج الموساد. تماما مثل فولفغانغ لوتز من قبله، لم يتأقلم مع الحياة الطبيعية. وقد تنقل من عمل إلى آخر، وفشل وبدأ من جديد، ثم في النهاية تطلق وعاد إلى أمريكا الجنوبية، إلى موطنه الذي ولد فيه، غير أنه فشل هناك أيضا في عمله. وكان قد رتب موعدًا للقاء طليقته وابنتيه في كورفو (جزيرة في اليونان)، لكنه في اللحظة الأخيرة ألغاه ولم يأت. وبدا أنه كان غارقًا في أعماق اليأس والوحدة.

في النهايـة، تـم العثـور عـلى جثتـه مـن قبـل بعـض المـارة عـلى شـاطئ البحـر. كان خوليـو مصابًـا بطلـق نـاري في صدغـه. وكان لا يـزال يحمـل المسـدس في يـده.

* * *

تقاعـدت دانييـل مـن الموسـاد بعـد أن حصلـت عـلى وسـامٍ تقديـرًا لعملهـا البطـولي عـلى مر السـنين. كـما أنهـا مـن أجـل صديقاتهـا ومـن أجـل نفسـها، بـادرت بعقـد أول لقـاء للمحاربـات السـابقات في غرفـة المعيشـة في منزلهـا، بحيـث يتسـنى لهـن اسـتحضار الذكريـات، ومشـاركة وتبـادل القصـص التـي قـد لا يتـم الكشـف عنهـا عـلى الإطـلاق. وقـد وجـدت أن العديـد مـن المتقاعـدات مـن الموسـاد، مثلهـا، لا زلـن ملزمـاتٍ بحظـرٍ شـديد يمنعهـن مـن الكشـف عـن هوياتهـن وعملياتهـن. وحتـى عندمـا تـم رفـع الحظـر، كانـت لا تـزال لديهـن جـدران وعوائـق نفسـية، ولم يتمكـن مـن فتـح قلوبهـن والتـصرف بشـكل طبيعـي. وخـلال اللقـاءات التـي جـرت في منـزل دانييـل، كان بإمـكان هـؤلاء النسـوة التحـدث بحريـةٍ، وقضـاء بعـض الوقـت بصحبـة محاربـات سِرّيـات أخريـات، يفهمـن بعضهـن البعـض ويعرفـن إحجامهـن عـن التحـدث مـع الأصدقـاء وأفـراد العائلـة، لأنهـن غالبـا مـا كـن يُخفـين مهنهـن السـابقة عـن عائلاتهـن وأبنائهـن.

تعيـش دانييـل اليـوم في منـزلٍ واسـع، محـاطٍ بحديقـةٍ اسـتوائية، بالقـرب مـن تـل أبيـب. وهـي تظهـر في بعـض الأحيـان على خشـبة المسرح تحـت اسـم مسـتعار، وتغنـي أغـانٍ وترانيـم أوروبيـة مـن كنـوز المـاضي، مـن أيـام أخـرى.



الجاسوسة الإسرائيلية شولا كوهين في بيروت- أرشيف



الجاسوس وولفغانغ لوتز في قبضة المخابرات المصرية- أرشيف



الجاسوسة الإسرائيلية سيلفيا رافائيل- أرشيف



مارسيل نينيو بعد اعتقالها في مصر- أرشيف







